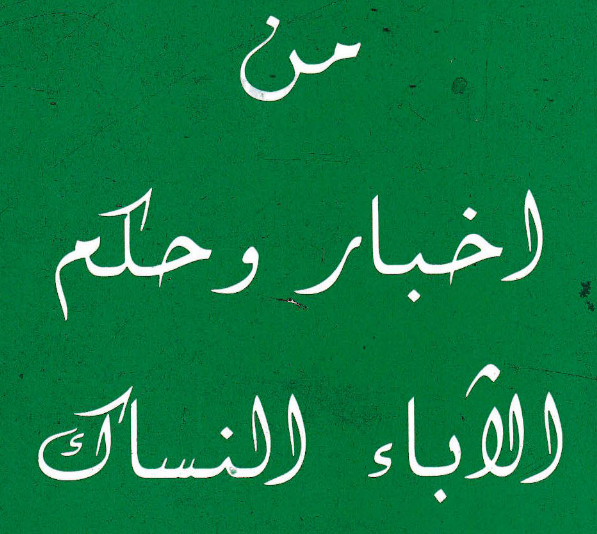




الطبعة الثانية

نقله عن اليونانيّة

الأب

منيف حمصي

من
اخبار وحكم
الآباء النساك(*)

الطبعة الثانية

نقله عن اليونانيّة

الأب
منيف حمصي

(*) في النص الاصلي (اليوناني)، العنوان هو «شذرات من حكمة الآباء».

الإهداء

إلى عائلة الثالوث الاقدس

المجاهدين حباً بربنا

يسوع المسيح، الاحباء - دوما - لبنان

الأب
منيف حمصي
وعائلته

وأما الحكمة التي من فوق، فهي أولاً طاهرة،

ثم مسالمة، مترفقة، مذعنة،

مملوءة رحمة وأثماراً صالحة،

عديمة الريب والرياء.

وثمر البر يُزرع في

السلام

من الذين

يصنعون

السلام

(يعقوب ٣:٧١)

كلمة المعرّب

هذا الكتاب النسكي مدرسة حقيقيّة. فيه تُختزن خبرات الآباء القدّيسين. وعندما نطالعه، بأسلوبه القصصي الشيّق نشعر بالدفء الإلهي يلامس قلوبنا. فهذه الخبرات العظيمة التي عرفها الآباء القديسون، وذاقوها، واختبروها في اللحم والدم والجهاد والسهر والنوح على الخطايا والصلاة، هي أمور كتبت لتأديبنا ونخس قلوبنا بمنخس التوبة.

قوام الكتاب أخبار وقصص وحكم وأقوال شفهيّة بسيطة في شكلها، لكنها عميقة في مضمونها. فأنت عندما تجلس الى الكتاب، تراه توّاً، يشدّك ويجتذبك، ويسير بك في دروب ليست من اختيارك. يطلعك على تجربة جسديّة حلّت بأحد الرهبان، فتنذهل اذ ترى حقيقتك في الخبر المذكور. يحدثك عن العفة، فتخال نفسك حقاً، انك لا تمتلكها. يحدثك عن التواضع، فتجد كم أنت بعيد عن هذه الفضيلة العظيمة. يكلمك عن محبة القريب، فتدرك كم أنت ماقت لأخوتك الذين في العالم. يذكّرك بخطايا بعض الرهبان، فتظنّ للوهلة الأولى أن هذا أمر معثر، ولكن سرعان ما تعي حقيقة الأمر، فتقول في نفسك: ما من شك ان خطيئتي اعظم من خطيئة ذلك الراهب، الذي تاب في النهاية، أما أنت فما تزال تجتر خطاياك، ولا تقوى على الانسلاخ عن مآثمك. يكلمك عن بكاء الآباء على خطاياهم، فتجد أنك غريب عن هذا البكاء المغبوط، وليس لك أية خبرة به.

ولعل ما دفعني إلى تعريب الكتاب عن اليونانية، يقيني-، أنا الخاطئ المولود من أحشاء أمي بطبيعة انسانيّة مهزوزة، مفككة ومعطوبة، لا بل

ساقطة كما هو التعبير المسيحي، - ان هذا الكتاب نافع جداً لجميع الناس. فأدبه انساني. ومادته وجوديّة.

ولكن ربّ انسان يقول: الأدب النسكي الأرثوذكسي صعب وعسير سيما في الزمان الرديء هذا؟ وقد قيل ان «أقوال الآباء الشيوخ» كتاب عسير ولا يمكن مطالعته بدون حذر وانتباه. فهناك خطر أن يشعر القارئ أنه مطالب بحرفية النص النسكي، وسرعان ما يكتشف انه عاجز عن الالتزام بما فيه. أو قد يشعر أن الكتاب جميل لكنه انسان مقصّر. او انه بحاجة إلى الكثير كي يتتلمذ على الكتاب، الأمر الذي يجعله يكتئب وييأس. وغير ذلك كثير...

وما من شك أن الكتاب النسكي متطلب، واننا نحتاج إلى كتاب يكون لنا مثالاً للسيرة وللحياة. وهو يدعونا إلى الانتباه للسيرة والحياة، دون أن يقول لك: غداً يجب أن تكون كصيصوي، أو مثل أرسانيوس أو انطونيوس الكبير او ابوللو او بفنوتيوس وسواهم. أنت تتربى على سيرة هؤلاء جميعاً، دون ان يعني ذلك أن تصبح مثلهم بين ليلة وضحاها. ترى أين المشكلة إذا سمعتُ عن العفة وحلاوتها؟ أين المشكلة إذا كلمني هؤلاء عن الصوم أو عن غيره من الفضائل؟

نحن بأمس الحاجة إلى كتاب يقدّم لنا الفضائل المسيحيّة في أسلوب قصصي جذاب يعزّي ويشدّد.

نحن بشر ضعفاء عالقون ومستعبدون لتفاهات هذا العصر الكثيرة. انسان اليوم يقيس تقدمه بما يملك، بسيارته، بمنزله، بأثاث بيته، بلباسه، بمقتنياته، بأمواله. الانسان اليوم يرى انه قد بلغ الكمال لمجرد أن عنده كومبيوتر، وبريد الكتروني وصحن لاقط وسيارة فخمة وراتب جيد ويعيش هو وعائلته في بحبوحة. لهذا السبب نحتاج إلى كتاب كهذا، وذلك لأننا عاجزون عن رؤية حقيقتنا، وعاجزون عن تشخيص ضعفنا.

الكتاب كبير بصفحاته، عميق في مضمونه. أخباره وقصصه عديدة وكثيرة. وقد حاولت أن أقدمه بلغة سلسلة مقبولة تخلو من العبارات المنمقة، وتكون في متناول كل الناس. ولست أدري إذا وفقت في عملي على هذا الصعيد.

الا اني أحببت الكتاب عندما طالعته للمرة الأولى. وشعرت، بينما كنت أطالعه، أن مادته قريبة من القلب وجذابة ويمكنها أن تقدّم الفضائل المسيحية بحلة جميلة تحاكي جميع شرائح المجتمع. وأظن أن هذا الاحساس راود الذين طالعوه باليونانية أيضاً.

إلى ذلك، فإن هناك سبباً آخر دفعني إلى تعريب هذا الكتاب هو اعتقادي أن عامة الناس المسيحيين عندهم نظرة خاصة جداً عن الرهبان والنساك. الناس عادة يظنون أن الرهبنة هي دعوة إلى حبس ضمن جدران الدير. وفئة أخرى يرى أصحابها أن وجود الرهبان هو أمر غير مألوف، اذ كيف يعيش الانسان بدون عائلة؟ الانسان في نظرهم مقبول فقط في الزواج. طبعاً يقول القديس غريغوريوس النيصصي ان الطبيعة تطلب الزواج. ولكن هذا لا يعني أن الكنيسة لا تؤمن الا بوجود المتزوجين. نحن في الكنيسة نؤمن بالرهبنة التي فيها يعطي الانسان أشواقه وعشقه مقابل الحبّ الإلهيّ «مغبوطة هي عيشة أهل البراري لأنهم بالعشق الإلهي يتطايرون على الدوام». ويسوع هو إمام الرهبان ومثالهم. الرهبنة الأرثوذكسية هي ببساطة، الحياة بمقتضى الانجيل.

الرهبنة هي عيش الانجيل. بهذا المعنى فإن كل مسيحي يجب أن يعيش بمقتضى الانجيل. الرهبنة هي تذوّق مسبق لملكوت الله. انها حدث اسخاتولوجي يعاش في قلب الزمن. الراهب يعيش في الجسد ما سوف تكون عليه الحياة في الدهر الآتي. الراهب الحقيقي لا يحسد المتزوجين بل يحبهم ويصلي من أجلهم ومن أجل بيوتهم. الراهب الحقيقي يعلمنا العفة والصلاة والفضائل.

وحياة النسك هي أمر تقرّ به الكنيسة. كنيستنا هي كنيسة الآباء القديسين. وصلواتنا رهبانية. وفضائلنا تدعونا إلى الارتقاء نحو الرب كل حين. القديسون في كنيستنا، هم من الرهبان والنساك والمتوحدين والمعترفين وسواهم. تراث كنيستنا نسكي بطابعه. لاهوت كنيستنا نسكي روحاني. القديس بالاماس كان راهباً. القديس غريغوريوس النزيزي كان راهباً. الذهبي الفم أسقف راهب. يوحنا الرحوم قديس أسقف عاش راهباً. أثناسيوس الكبير بطريرك راهب. تراث كنيستنا يتّسم بالنسك والروحانيّة الصافية العميقة. والذين كتبوا في الزواج، هم في غالبيتهم من الرهبان الكتاب مشبع بالروح الابائيّة النسكية المتجذرة في الجهاد والنعمة الالهية. إنه لطيف، قريب من القلب ويحسن أن نطالعه بهدوء وتأنٍ.

طالعه عزيزي القارئ. فهو مفيد جداً لكونه يلطّف القلب ويذكّرنا بالكنيسة والقديسين. طالعه كي تتذكّر فضائل الانجيل التي غاب بعضها، وانقلبت مفاهيم البعض الأخر وتحوّلت، في عالم طائش مجنون ومليء بالفخاخ...

وأني لأسأل الربّ، بشفاعة القديسين المذكورين في هذا الكتاب أن يجعل حياتنا جميعاً، تزخر بالبركات السماويّة فنحيا ونحن نطلب رضى الرب ومؤازرته لنا في كل شيء. بشفاعة الرسل القديسين والآباء القديسين الذين أرضوا الربّ في كل جيل وجيل. الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.

الأب

منيف حمصي

أحد الشعانين ٢٠٠٢

فهرس المحتويات

الفصل الاول

١ - في محبة الله

- زار مرة الأب عمون النطروني العظيم انطونيوس. ولما كان بينهما الفة ومودة، بادر الأب عمون تواً الى سؤاله :

كيف يحدث هذا يا ابت انني اتعب اكثر منك، اما انت فتتمجد اكثر من الجميع ؟

فأجابه القديس انطونيوس وهو يبتسم بمحبة :

يبدو يا اخي، انني احب الله اكثر منك.

- تضرّع احد نساك البرية الى الله، اثناء الصلاة، ان يُظهر له اباء البرية القدماء. فاستجاب الله لطلبه، وكشفهم له، باستثناء القديس انطونيوس الكبير.

فتساءل الناسك :

واين هو القديس انطونيوس ؟

فسمع صوتا خافتاً يقول :

انطونيوس هو مع الله.

- كتب القديس مكسيموس المعترف مرة يقول :

محبة الله هي الميل الحسن في النفس. ومن يحوز هذا الميل، فإنه يُؤْثر الخالق على كل الخليقة.

لكن يستحيل على الانسان ان يقتني هذا الميل، اذا كان متعلقاً بأمور هذا العالم. فمن يحب الله، يحيا على الارض كملاك، فيصوم ويسهر ويرتل ويصلي، وافكاره تكون صالحة تجاه الجميع، كل حين.

- قال اب البرية العظيم انطونيوس لتلاميذه ذات يوم :

انا لا اخاف الله يا اخوتي، لأني احبه. فالمحبة الكاملة تطرد الخوف (١يوحنا١٨:٤).

٢- في محبة القريب

- قال القديس انطونيوس الكبير ذات يوم :

لم اؤثرْ يوماً مصلحتي، بل كنت اضع منفعة اخي نصب عيني كل حين.

- عندما كان الأب ثيوذور مريداً (مبتدئاً)، ارسله ابوه الشيخ الى فرن الاسقيط كي يخبز العجين.

وهناك، وجد انساناً اتى للغرض عينه، لكن لم يكن له من يُعينه.

فترك الشاب ثيوذور عجينه، ومدّ يد العون للأخ. وما كاد ينتهي حتى قدم ثانٍ، فأعطاه دوره، وأعانه. ثم جاء ثالث ورابع، ففعل الشيء نفسه، حتى السادس. وفي نهاية الأمر أعدّ خبزه.

فأوشكت الشمس ان تغيب، عندما بدأ طريق العودة الى الاسقيط.

وعندما وصل، اطلع الشيخ على سبب تأخره، دون ان تُبدي ملامحه انه قام بأمر عظيم.

- سأل بعض الاخوة الأب اغاثون قائلين :

وكيف تكون محبة القريب الحقيقية ؟

اما ذاك المغبوط، وقد سبق له ان حاز ملكة الفضائل (المحبة)، بدرجة عالية، فأجاب :

المحبة الحقيقية يا اولادي، هي ان اجد ابرصاً اعطيه جسدي بفرح، واذا امكن، ان آخذ انا جسده.

- يخبرنا الآباء القديسون، الكثير عن الأب اغاثون، وعن المحبة العظيمة التي كان يحملها في قلبه تجاه الاخوة.

ودونكم القصة التالية :

نزل الأب اغاثون الى المدينة ليبيع عمل اليد. وبينما هو هناك، لمح انساناً مسكيناً مطروحاً على قارعة الطريق، غريباً ومريضاً، لم يفكر احد من العابرين ان يمدّ له يد العون.

فما كان من الأب اغاثون، الا ان انهضه، وعمل على ترتيب شؤونه. فاستأجر له غرفة صغيرة بما جناه من تعب اليد، و انزله فيها.

و يقال انه بقي بجواره بعض الوقت يعتني بأمره. لابل كان يعمل ايضاً ليؤمّن احتياجاته .وعندما تعافى الأخ المريض، وصار في وضع يسمح له بالعودة الى بلاده ، زوّده الأب اغاثون بما يحتاج اليه، واطلقه. ثم بعد ذلك، قام هو وعاد الى سكينته المحبوبة.

- وذات يوم ، وبينما كان في المدينة يبيع عمل اليد ، ليبتاع بثمنه بضعة خبزات، صادف فقيراً كسيحاً يستعطي.

فلما لمحه ذاك، شرع يتوسّل اليه قائلاً :

لا تتركني ههنا يا ابت.

خذني الى حيث تمضي.

فأقامه الأب اغاثون الى جانبه حيث كان ينتظر ليبيع السلال.

وبعد حين، سأله ذاك المسكين قائلاً : وكم من المال دفعوا لك ثمن السلال يا ابت؟ فأجابه على سؤاله.

ثم عاد وطرح عليه السؤال نفسه، بعد لحظات، فأجابه على سؤاله ايضاً. وكان يطرح السؤال نفسه بعد كل سلة كان الأب اغاثون يبيعها. وكان الأب اغاثون يجيبه على سؤاله بالتفصيل، وبدون تذمّر.

فقال الفقير :

حسناً يا ابت، لما لا تشتري لي كعكة، فأنا لم اضع في فمي شيئاً منذ مساء البارحة ؟

فقال الأب القديس :

بكل سرور. ثم قام وعبر الشارع الى حانوت قريب، وابتاع له ما اراد، وعاد ودفعها الى يده محققاً له طلبه. فتناولها المسكين.

وبعد حين طلب منه الفقير ان يشتري له قليلاً من الفاكهة، ففعل.

ثم عاد وطالبه ان يشتري له بعض الحلوى، ففعل ايضاً. وهكذا، انفق الأب اغاثون ثمن السلال التي باعها، وذلك حباً بالمسكين، ولم يعد معه قرش واحد. ومع ذلك، فقد قام بما فعل، بفرح ولهفة، رغم انه كان يدرك انه سيقضي اسبوعاً كاملاً لن يأكل فيه خبزة.

فلما انفق كل ما كان معه، همّ بترك السوق للعودة الى البرية، فسأله الفقير:

ارجوك يا ابت، اعمل لي خدمة، واحملني الى الشارع ذاك، ومنه تعود الى البرية. فقام الأب البار وحمله على ظهره بصعوبة فائقة، ونقله الى حيث اراد.

وعندما وصل به الى تقاطع الطرق، وهمّ بانزاله عن ظهره، سمع صوتاً خافتاً يقول:

مبارك انت يا اغاثون. مبارك انت عند الله في السماء، وعلى الارض. فالتفت اغاثون ليرى من كان يكلمه، فلم يجد احداً، لأن ذلك الفقير كان ملاكاً ارسله الله، ليختبر محبة الأب اغاثون.

- ويمكننا القول ان اغاثون عاش كي يريح قريبه.

ومرة، بينما كان هو نفسه يهمّ بعبور النهر مع بعض الاخوة ، امسك بمجذاف القارب كي يساعد الرجال في التجذيف.

اما عندما كان الزوار يَفِدون اليه للنصح والاسترشاد، كان يصافحهم بيد، بينما اليد الاخرى كانت تعمل من اجل واجب الضيافة.

- وذات يوم أهداه احد الزوار معولاً لحديقة قلايته. وحدث ان زاره انسان ورأى المعول، فَحَسُنَ في عينيه.

فلما حان اوان المغادرة، لم يدعه الأب اغاثون يمضي، حتى حمّله ما ابدى اعجابه به.

- ويقال ان الأب ابوللو كان يحمل في قلبه محبة مماثلة نحو القريب، فكان لا يرفض اية خدمة يستطيع أن يسديها لطالبها، صغيرة كانت ام كبيرة. وعندما كان الاخوة يطالبونه ان يمدّ لهم يد العون، كان يندفع امامهم بفرح وهو يردّد مبتسماً :

مع الرب سأعمل اليوم من اجل منفعة نفسي وخلاصها.

- اخبرنا الاسقف بالاديوس القصة التالية :

عاش على الارض انسان يدعى سيرابيون، ناسك عظيم، عديم القنية ورحوم. هذا،كثيراً ما كان الناس يرونه عائداً الى قلايته وهو يحمل صندوقه فوق جسده العاري، وذلك لأنه سبق ان وهب ثيابه لمحتاج. لهذا عُرف بالصندوقي.

وذات يوم بيع سيرابيون كعبد الى حبشي وثني مقابل مبلغ زهيد من المال. فقام يخدم سيده، وعائلته، بفرح منقطع النظير. وكان يعمل ويكدّ دون ان يطلب منه احد. اما طعامه فكان فتات خبز وماء. وعندما يعمل، كانت يداه تتحركان، اما ذهنه فكان دائم الانشغال بالصلاة. ولم تكن كلمات الكتاب المقدس لتغيب عن شفتيه. وكان دأبه وديدنه ان ينقل نور المسيح لسيده واهل بيته.

وفي النهاية، تمكّن من اجتذاب سائر افراد العائلة الى المسيح بقدوته الحسنة ودماثة سيرته، فضلاً عن اعتماده تعاليم الانجيل التي هي بلسم تعزية للنفوس البائسة والمتعبة في العالم.

ولم يتوقف الامر عند هذا الحد، بل استطاع ان يقود افراد عائلة سيده جميعاً، وسيده ايضاً، لنيل سر المعمودية المقدسة.

وكان في النهاية ان ترك سيدُه عملَه، لأنه لم يعد يراه منسجماً والسيرة المسيحية. وهكذا، صار الجميع اعضاء فاعلين في كنيسة المسيح.

وحدث مرة بينما كان هذا، يحمل صندوقه، كما هي العادة، ان استوقفه سيده وقال له :

لقد آن الاوان يا اخي كي اردّ لك الاحسان الذي قابلتني به. فقد اعتقتني وعائلتي من ظلمة الأوثان. وها انا اردّ لك احسانك بأن اعيد لك حريتك. ولكن ارجوك اخبرني ما هي قصتك؟ فأدرك هذا الصندوقي انه آن الاوان كي يبوح لسيده بالحقيقة كلها. فقام وقال له :

يا سيدي، انا لست عبداً. انما وبمحض ارادتي، رضيت أن اباع لك، وذلك كي اقودك الى المسيح. وها قد اعطاني الله ان احقق امنيتي. فاسمح لي الآن ان انطلق لأساعد اخرين ايضاً. ثم مدّ يده الى بنطاله واخرج ثمن عبوديته وقال :

ارجوك، خذ ثمن عبوديتي.

فنقده المال، وسافر الى بلد آخر. وهناك بيع هذا الصندوقي الى عائلة هرطوقية، فاستطاع بسرعة فائقة ان يعيد جميع افرادها الى حضن الكنيسة.

لقد عاش هذا الصندوقي طوال حياته يخدم الناس كي يعيدهم الى المسيح.

- سأل احد الأخوة شيخاً وقال له :

لماذا يا ابت يتعب الرهبان اليوم دون ان ينالوا المواهب التي كانت بحوزة اصفياء الله القدامى ؟

فأجابه الشيخ قائلاً :

في الماضي يا ولدي، كانت هناك محبة بين الرهبان، وكان كل واحد منهم يخدم اخوته كي يشدّهم الى فوق. اما اليوم فقد بردت المحبة في القلوب، وصار كل واحد يخدم اخوته كي يشدّهم الى اسفل.

لهذا السبب، لا يجني رهبان هذا الزمان تلك المواهب الروحية العظيمة التي عرفها القدماء.

- قال مرة الأب يوحنا لراهب شاب جاءه يطلب النصح والارشاد :

في الماضي كان دأب الرهبان وديدنهم، الانشغال بالروحيات، وكان العمل في المرتبة الثانية. اما اليوم فقد تبدّلت الامور، فقد صار العمل اولاً، والانشغال بالروحيات، اصبح في المرتبة الثانية.

فسأله الأخ :

وما هو عمل النفس يا ابت ؟

اجابه الشيخ قائلاً :

انه ما نقوم به حباً بالوصية الالهية يا ولدي .

فأنت ، بسبب هذه المحبة ، علمتَ انني مريض ، فأتيت لزيارتي . وها انت الآن امامي تحدثني .

اما اذا لم تأتِ الي، فهذا علامة على انك تنتهك ناموس المحبة.

ثم قال له :

اذا طالبك انسان بمد يد العون، وقلت في نفسك:

هل يحسن ان اترك عملي لأساعده ؟

عندما ترفض اسداء الخدمة له، فأنت تنتهك ناموس المحبة الالهية. هذا هو عمل النفس. فإذا شرعتَ تتممه ، يكون العمل الجسدي ثانوياً.

- ذات يوم مضى الأب مكاريوس لزيارة ناسك مريض يقيم في جواره. ولما دخل عليه، اجال بصره في انحاء القلاية، فلم يجد اثراً لطعام.

فسأل الناسك المريض :

وماذا ستأكل اليوم يا ابت ؟

فتردّد المريض في الرد على السؤال.

لكنه، وبعد الحاح الأب مكاريوس عليه مرات ومرات، قال :

اريد ان آكل شوربة الشعير يا ولدي. فقال الأب مكاريوس في نفسه : ولكن اين له في هذه القلاية ان يحقق هذه الرغبة ؟

للحال نهض الأب مكاريوس، وتوجّه الى الاسكندرية قاطعاً خمسين ميلاً على قدميه، لشراء ما يحقق لذاك رغبته. وقد فعل ذلك، لأنه اراد ان يريح نفس اخيه الناسك.

- نَسَكَ البار بيمن مع اربعة اخوة في برية مصر. اما بايسيوس، الأخ الاصغر، فلم يكن قد افلح في قهر ضعفاته، فكان يزعج الاخوة الذين معه بسبب عدم انضباطه.

فقال الأب بيمن:

هذا الصغير لا يدعنا نعيش بهدوء.

هلموا بنا نغادر المكان بحثاً عن هدوء افكارنا.

فقام الجميع، وانطلقوا بحثاً عن مكان آخر ينسكون فيه.

فأدرك بايسيوس، الأخ الاصغر، ان الاخوة تركوه ومضوا، فجدّ في اثرهم بحثاً عنهم.

فلمحه الأب بيمن من بعيد، فقال للأخ الاكبر أنوب :

دعونا يا اخوتي ننتظر وصول اخينا بايسيوس .

ولما وصل ذاك، بدأ يكلّمهم، وفي نفسه غصّة، وقال:

لماذا تركتموني لوحدي يا اخوتي؟

قالوا له :

لقد تركناك بحثاً عن هدوئنا. فأنت تقلقنا وتزعجنا بتصرفاتك.

فقال الأخ الصغير:

حسناً، لنمضِ جميعاً الى حيث تريدون.

قال هذه الكلمات بسذاجة منقطعة النظير.

فلما رأى الأب بيمن سذاجة الأخ بايسيوس، قال لأنوب:

دعونا يا اخوتي نعود الى مكاننا الاول. لأني اعتقد ان الله رتّب الامور هكذا، كي يمتحن صبرنا ومحبتنا. فقام الجميع وعادوا الى قلاليهم، وعاشوا حتى النهاية على المحبة الكاملة لبعضهم.

– عاش احد تلاميذ شيخ جليل في كوخ يبعد عشرة اميال عن الاسقيط.

وذات يوم، اراد الشيخ ابوه ان يُعَلمه بأن يأتي الى القلاية لأخذ خبزته. فقال في نفسه: أبسبب خبزة صغيرة اجعل الأخ يسير عشرة اميال؟ لماذا لا امضي انا اليه؟ قال هذا، ثم حمل صرّته على كتفه وانطلق. وبينما هو في الطريق، تعثّر بحجر صغير، فانجرحت رجله، وسال الدم دون ان يتوقف. اما هو، ولشدة المه، راح يبكي. وبينما هو على هذا الحال، سمع صوتاً خافتاً يكلّمه من وراء ظهره ويقول : أتبكي يا ابت ؟

فأدار رأسه ليرى نفسه امام ملاك بهي الحسن والجمال. لكنه لم يرتعد، انما اشار بيده الى الجرح في قدمه. فقال له الملاك :

كُفّ عن البكاء، فالامر لا يستدعي ذلك، لأن الله يرى محبتك، وهو سوف يكافئك على عملك.

ففرح الشيخ وتعزى، وقام يتابع سيره نحو الأخ. ومنذئذ، كان شديد الحرص على خدمة الاخوة بلهفة وفرح.

– وذات يوم، قام الناسك نفسه وحمل بعض الخبزات الى ناسك آخر يعيش في البرية الداخلية. وحدث ان ذلك الناسك كان يقوم بالخطوة ذاتها، فالتقيا في وسط الطريق.

فقال الشيخ :

يا اخي، بالتعب والجهد الكثير جمعتُ لنفسي كنزاً صغيراً، وها انك الآن تسبقني اليه.

اجابه الناسك الثاني:

الا تظن ان الطريق الضيق يتسع لك ولسواك؟ اسألك ان تفسح لي كي نعبر فيه معاً. وبينما كانا يتبادلان اطراف الحديث، نزل ملاك من السماء، وقال لهما :

ان روحية الكلام الذي يدور بينكما، هي بخور يرتفع اريجه وشذاه الى اعالي السماء.

- عندما كان البار سابا المتقدس راهباً مبتدئاً في دير القديس افتيميوس، كان طري العود، قصير الباع، ومحدود الخبرة، وقد اوكل اليه رئيسه امر اعداد الخبز للأخوة.

وفي صبيحة يوم عاصف وممطر، بينما كان سابا البار منهمكاً باعداد الخبزات، دخل احد الاخوة غرفة الفرن وترك ثيابه المبلّلة كي تجف. اما سابا فلم يكن قد لمحه عند دخوله. فلما اشعل النار، وأعدّ العجين على الواح من خشب، عاد الى الفرن ذلك الأخ الذي كان قد ترك ثيابه لتجف. فلما رأى النار مشتعلة، بدأ يبكي لشدة حزنه، فهو لم يكن عنده غير الثياب التي تبللتْ، لأن الثياب التي كان يرتديها، كان قد سبق له ان استعارها من احد الاخوة. (يبدو ان سابا الشاب استعان بهذه الثياب ليضرم النار).

فلما ادرك سابا ما كان يدور حوله، ورأى حزن الاخ، بأم العين، وثب الى داخل الفرن، ومد يده واخرج الثياب وعاد. يا للعجب، ويا لدهشة سابا، فالنار لم تكن قد التهمت الثياب، وسابا نفسه خرج سليما من هذا الاتون المشتعل. فقد خرج دون ان تمسّه النار بأذى بسبب محبته وتقواه. (هذه الرواية تذكّرنا بالفتية الثلاثة في الاتون).

- اتفق ثلاثة اخوة ان يحصدوا ستين فداناً من حقل كبير. وفي اليوم الاول لبدء العمل، اصاب المرضُ احدهم، فأضطر الى العودة الى الاسقيط لملازمة الفراش. اما الاثنان الاخران فقالا فيما بينهما :

الا يجدر بنا ان نقوم بجهد اضافي فنحصد ما يختص بأخينا المريض؟ نحن بصلواته سنفعل ذلك. وهكذا كان. فلما انتهى اوان الحصاد، دعا هذان الأخ المريض ليُعطياه اجرته، اما هو فقال :

ما هذا الكلام ؟ عن اية اجرة تتكلمان ؟ انا لم احصد شيئاً مما تتكلمان عنه. فقالا له:

بصلواتك يا اخي جرتْ الامور هكذا، وانقضى الامر، وانجز العمل. فخذ اجرتك التي اتفقنا عليها قبل الحصاد.

اما هو فلم يشأ ان يأخذ شيئاً لم يتعب من اجله. ومع ذلك كان الاخوان يلحّان عليه. وكان هو عند كل مرة يرفض. ولكي لا تبقى الامور معلقة، اراد الجميع ان يحتكموا الى شيخ جليل ينسك على قاب قوسين من المكان، وذلك ليحل لهما الاشكال ، ويعيد لكل ذي حق حقه.

فلما مثلوا في حضرته، قال الأخ الذي كان مريضاً:

يا أبت، لقد ذهبنا جميعاً الى الحقل للحصاد. اما انا، وقبل الشروع بالعمل، اضطررتُ الى ملازمة الفراش بسبب مرض المّ بي. لكن هذين اراهما الآن يجبرانني على المشاركة في تعبهما، رغم اني لم احصد شيئاً، ولم اتعب كما تعبا. فماذا تقول ؟ هل من العدل ان آخذ ما لم اتعب من اجله ؟

وهنا وقف الاخوان وقالا :

يا ابانا، لقد اتفقنا ان نتقاسم الاجرة قبل الشروع في العمل. وبصلوات اخينا، انجزنا العمل بسرعة غير متوقعة. أليس من العدل ان يُعطى له ما قد اتفقنا عليه ؟

فتعجّب الشيخ لهذه المحبة العظيمة، وقام وأمسك عصاه، وهو يهز رأسه، وضرب بها الأرض ثلاث مرات، كما هي عادته، فحضر رهبان الاسقيط وتحلّقوا حوله. فقال لهم :

هلموا يا ابائي واخوتي المحبوبين الى العمل، فنحن اليوم مطالبون بمهمة قضائية. ولما اجتمع شملهم، اطلعهم على ما جرى.

وفي النهاية جاءت نتيجة الحكم على النحو التالي :

يتوجب على ذلك الراهب (الذي كان مريضاً) ان يقبل الاجرة من

اخويه. فأطاع ذاك ومد يده واخذ المال. لكن ما ان ادار ظهره، حتى شرع يبكي بمرارة، ليقينه ان الاخوة والاباء ظلموه ولم يعدلوا.

- اتفق اربعة اصدقاء، على النسك معاً ، واتفقوا فيما بينهم ان يلازم ثلاثة منهم الصلاة والسكينة، بينما راح الرابع يقوم بواجب الخدمة . فكان يتسلّم عمل اليد الذي ينجزه الاخوة ، ويحمله على ظهره الى سوق المدينة ليبيعه، ومن ثم يعود الى الاسقيط بما هو ضروري للجميع.

وبعد سنوات، رقد اثنان منهم في الرب، وبقي الثالث والرابع، وأحدهما هو الذي يقوم بالخدمة.

وذات يوم وبينما كان الاخ الخادم - وهو في ريعان الشباب - في طريقه الى المدينة ليبيع عمل اليد، كعادته، سقط في تجربة، وارتكب خطيئة عظيمة . وكان بجوار قلايته ناسك قديس حباه الله موهبة التنبؤ والتمييز، فلمح هذا بعينيه الروحيتين ما لا يستطيع احد ان يراه بعيني الجسد. فقد كشف الله للناسك القديس ان الراهبين اللذين رقدا بالرب قبل سنوات، كانا يضرعان الى الله العلي ان يرسل حيواناً مفترساً يلتهم الأخ الذي سقط في الزنى، وذلك كي يغسل بدمه هذه الخطيئة، فلا يخسر الفردوس.

وبينما كان الراهب الذي اعتاد ان يخدم الاخوة، عائداً من السوق، هاجمه اسد شرس وقد اوشك ان يفترسه. فلما رأى الناسك ما كان على وشك ان يحدث، سقط على ركبتيه الى الارض وبدأ يضرع الى الله طالباً منه ان ينقذ الأخ من انياب الاسد الضاري. اما الراهبان اللذان سبقَ ان رقدا، فكانا يضرعان الى الله بحرارة ويقولان: يا رب ارحم، واستجب لنا. في هذه الاثناء، كان الناسك في قلايته يطلب من الرب ان يستجيب له، ويرحم الأخ، ويخلصه من انياب الاسد.

وفجأة، حدث ما لم يكن في الحسبان، اذ بينما كان الاسد يهمّ بالانقضاض على الاخ، لافتراسه، شوهد (الاسد) بغتة يبتعد عن فريسته الى الغابة كما لو ان قوة عظيمة كانت تطارده.

وهنا سمع الناسك في قلايته صوتاً يخاطب الراهبين في السماء:

من العدل، كل العدل، ان يستجاب طلب ذاك الذي ما يزال على الارض مجاهداً. اما انتما،فيكفيكما التمتع بالغبطة السماوية والراحة الابدية.

فشعر الأخ بالتوبة والندامة بعد ان شاهد الخطر بأم عينيه.

فقام وعاد الى اخيه في الاسقيط، واعترف له بما جرى. ثم دخل قلايته واغلق على نفسه وهو يبكي حتى نهاية حياته.

وبعد سنوات مات هذان ايضاً، فأعطى الله للناسك الموهوب، النعمة، فرأى الاخوة الاربعة في السماء.

- نزل راهبان شابان الى المدينة ليبتاعا بعض الحاجيات. وفي الطريق، انفصلا عن بعضهما، فسقط احدهما في خطيئة جسدية. اما الذي سقط، فلشدة حزنه ويأسه، قرر ان لا يعود الى البرية، فقال لأخيه: عد انت يا اخي الى البرية، اما انا فسوف ابقى ههنا.

فقال له الآخر :

ولماذا تفعل هكذا ؟ ماذا جرى لك ؟

ثم اعاد عليه السؤال المرة تلو الاخرى، دون ان يسمع منه جواباً. واخيراً قال ذاك:

ما دمتَ تصرّ على معرفة الحقيقة، وتريد ان تعرف ما جرى، فاسمع: عندما افترقنا، صادفتُ امرأة، فوقعت في التجربة معها. وها انا امامك فاقد الرجاء. فماذا عساي افعل في البرية بعد الآن ؟

فاضطرب الراهب العفيف لدى سماع الخبر، لكنه لم يَبُحْ بحقيقة مشاعره. ولكن لما كان يريد من كل قلبه ان يخلّص اخاه من ورطته، حاول ان يُفهمه ان ما جرى له، حلّ به هو ايضاً. ثم قال له : هلمّ بنا اذاً نعود نحن الاثنين الى البرية. قال ذلك، وهو يبكي بمرارة. هلمّ لنكد ونتعب معاً، فالله ابونا حنون ورحوم، وهو يرى توبتنا، ويسامحنا على خطيئتنا.

بهذه الكلمات، استطاع الأخ ان يُدخل العزاء الى قلب ذاك. وفي النهاية استطاع ان يقنعه بالعودة الى البرية.

فرجعا كلاهما معاً الى الاسقيط. ولما وصلا، مضى الاثنان الى الشيخ الروحاني واعترفا له بما جرى لهما في المدينة، وخضعا بكل فرح لتأديب الاباء القديسين.

ومرت الايام والسنون، وظل الراهب البريء عاكفاً على التوبة حباً بأخيه، وحمل كل عار الخطيئة التي اقترفها ذاك. اما الله فقبل موقفه وسُرّ به.

وفي احدى الليالي، وبينما كان احد الشيوخ يصلي في الاسقيط، سمع صوتاً يقول له:

بسبب محبة الأخ البريء، سوف اسامح الاخ المذنب.

بعد هذا الصوت، قام الاباء الشيوخ وحلّوا الراهبين من التأديب، دون ان يَعلموا من هو المذنب، ومن هو البريء.

- نسك اثنان في برية طيبة، وكانا شابين حديثي السن والخبرة. فنصب لهما ابليس فخاخاً عظيمة. وكان يحارب الاكثر فتوة بشهوة الجسد. فوقف ذات يوم بعد صراع مرير مع التجربة، وبعد ان فقد رباطة جأشه وصبره، قال لأخيه :

لم اعد احتمل، سأعود الى العالم.

فحزن الأخ لمّا سمع ذلك، وحاول جاهداً ان يثنيه عن عمله، وقال له :

لن ادعك تغادر هذا المكان. فأنت ستخسر كل جهاداتك واتعابك وطهارة قلبك.

ولكن كيف له ان يقنعه وقد عقد ذاك العزم على الرحيل ؟ وهنا قال الأخ الاصغر :

سأعود الى العالم، واجرّب كل شيء، ثم ارى ما يكون بعد ذلك. واذا كنت تريد، افعل مثلي واتبعني. فقال له الأخ الاكبر : سنلازم البرية معاً.

الا انه لم يكن يدري ما يفعل كي يثني اخاه عن عمله.

فقام ومضى الى احدى القلالي المجاورة، يريد ان يستشير شيخاً حكيماً بما يمكن ان يفعله. فقال له الناسك: اذهب معه انت ايضاً، فأنا على يقين ان الله سيحميه بسبب محبتك. فقال الراهب في نفسه:

لنفترض انني حققتُ رغبتي، ولكن ماذا انتفع ؟ ولم تكن كلمات الناسك سهلة القبول بالنسبة اليه. ومع ذلك توجّه الاثنان الى المدينة. ولما زال ضغط التجربة عن الأخ، وفارقته الحرب، عادا معاً الى البرية من جديد.

- قال الأب اغاثون :

لم اذهب الى فراشي يوماً، وفي قلبي شيء ضد احد الاخوة. كذلك فإني لم اترك اخاً يذهب الى فراشه حزيناً بسببي.

- مضى الأب يوحنا مع بعض الاخوة لافتقاد ناسك يقيم في قلب الصحراء. ولما غابت الشمس، وأرخى الليل سدوله، ضلَ الأخ الدليلُ طريقَه. فشعر الاخوة بقلقه واضطرابه. فسألوا الأب يوحنا، وقالوا له:

وماذا عسانا نعمل الآن يا ابانا ؟ اذا تابعنا سيرنا، فالظلام في الصحراء سيدهمنا. اما اذا بيّنا أننا نعرف ما جرى، فهذا سيجعل الأخ يخجل ويكتئب. فقال الأب يوحنا :

نفعل هكذا : اتظاهر انني متعب ولا اقوى على السير. بهذا نظل حيث نحن حتى الصباح. وفي الحقيقة انهم فعلوا ذلك، فقط كي لا يُحزنوا الأخ الدليل.

- اقام احد النساك في الاسقيط قبل نزول الأب بيمن فيه هو وأربعة من الاخوة الذين نسكوا معه. وكان هذا الناسك على درجة عالية من التقدم الروحي، فتوافد اليه كثيرون من المسيحيين من المدن المجاورة، واعترفوا له بخطاياهم، واستفادوا كثيراً من نصائحه وارشاداته.

ولكن عندما قدم الأب بيمن الى الاسقيط، ترك الناس هذا الناسك، وقصدوا الأب بيمن للاعتراف والاسترشاد. فما كان من الأب بيمن الاّ ان حزن، وقال للأخوة :

وماذا عسانا نقول لهذا الناسك ؟

وفي صبيحة اليوم التالي، اعدّوا طعاماً مطبوخاً، وجعلوا قليلاً من الخمرة في آنية، وقاموا وتوجّهوا شطر قلاية ذلك الناسك. اما هو، فلما لمحهم من بعيد، قام واختبأ، بعد ان اوعز لتلميذه ان قلْ ان الناسك ليس عنده وقت لقبول الزيارات.

ولما وصلوا الى القلاية، قال الأب بيمن لتلميذ الناسك الذي كان يقف عند الباب:

يا اخي، قل للشيخ الجليل اننا عازمون على رؤيته حتى ولو انتظرنا يوماً كاملاً. وسوف لن نبارح المكان ونعود الى قلالينا قبل ان نأخذ بركته. فلما رأى الشيخ القابع في احد اركان القلاية محبتهم وتواضعهم ، خرج وقبلهم بفرح . فقام الجميع وسجدوا له طالبين منه ان يبارك رغبتهم في ان يتناولوا الطعام معاً . فتحرّكتْ عاطفته من هذه المحبة . واثناء الطعام، وقف وقال لهم : ينبغي ان اعترف امام محبتكم أن ما سمعته عنكم، ليس صحيحاً فحسب، انما تيقنتُ ايضاً من ذلك بأم العين. انتم في الحقيقة من اصفياء الله، ليس بالقول فحسب، بل بالعمل ايضاً. ومنذ ذلك الحين، توطّدت اواصر المودّة بين الأب بيمن وذلك الناسك.

- ذات يوم اجتاز اثنا عشر راهباً برية غير معروفة، وعندما حل الظلام، ضلّ الأخ الدليلُ الدرب، وراح يسير في اتجاه معاكس. فأدرك الاخوة ما حصل. الا انهم جميعاً جاهدوا طوال الليل كي يكتموا مشاعرهم وذلك كي لا يحزنوه. ولما طلع الصباح، ادرك الأخ الدليل غلطته، فقال للأخوة: سامحوني يا اخوتي، لقد سلكتُ الدرب المعاكس.

فقالوا له:

لا تغتم. كنا على علم بما جرى. ولكن هلموا بنا جميعاً نعود ادراجنا. وبدون تأفف او تذمّر، وقف الجميع وعادوا ادراجهم، بعد ان كانوا قد مشوا ليلة كاملة على غير هدى قاطعين مسافة عشرين كيلومتراً.

فتعجب الأخ الدليل من دماثة اخلاقهم، وحسن موقفهم، وراح يردّد حيثما حل، ويقول:

ان اصفياء الله يتّفقون - حتى الموت- كي لا يُحزنوا احداً من الاخوة.

- قال القديس اسحق السرياني:

اذا حدث ان تخاصم اثنان من الاخوة فيما بينهما، فإن من يطلب المسامحة اولاً، هو الذي يفوز باكليل الظفر. فهو عندما لا يحتقر اخاه، بل يتنازل له، ويكبح جماح غضبه، انما يجعل حياة الاثنين في سلام.

- ذات يوم، ارسل احد النساك تلميذه الى المدينة المجاورة كي يعود منها بجملٍ يحمل عليه سلال الاسقيط الى المدينة.

فقام هذا ومضى الى غايته. ولما عاد وهو يجرّ الجمل، صادفه ناسك آخر، وقال له:

لماذا لم تُعلمني بنزولك الى المدينة، فقد كنت اود ان اطلب منك ان تُحضر لي جملاً آخر أضع عليه سلالي، وأمضي به الى السوق لأبيعها؟

فحمل الأخ الراهب هذه الكلمات الى ابيه الناسك، فقال له ابوه:

اعطه الجمل فوراً. وبعد بيع السلال، عُدْ به الينا كي نحمل عليه سلالنا الى المدينة لنبيعها.

فقام التلميذ وعمل كما اوصاه ابوه الشيخ. ولما عبر الجمل امام قلاية الناسك الثاني، سأله ذاك وقال له:

الى اين تمضي يا اخي؟ فقال له التلميذ:

انني عائد الى القلاية كي انقل سلالنا الى المدينة لنبيعها.

ثم قال له:

صلّ من اجلي يا اخي، وأسرعْ كي تنجز عملك قبل ان يداهمك المساء.

لقد حزن الناسك لأن اخاه الناسك المجاور، ترك عمله كي يخدمه. فلما عاد التلميذ الى القلاية، تبعه الناسك الثاني، حتى وصل الى قلاية

الناسك، فقرع الباب. ولما فُتح له، للحال سجد امام اخيه الناسك، وقال:

سامحني يا ابت. لقد فازت محبتُك بثمار عملي.

- بينما كان احد الاخوة يُعدّ عمل اليد ليذهب به الى السوق ليبيعه، سمع احداً يقول بصوت خافت:

- ماذا عساي اعمل؟ لقد قرب اوان الذهاب الى السوق، وانا غير مستعد. كم انا كسول؟!!

فقام الأخ الاول، وحمل عمل اليد الذي يخصّه، ومضى الى الأخ المتأفف وقال له:

يا أخي، ارجوك ان تقبل هذه مني، فهي تفضل عني، ولست بحاجة اليها. لعلك تحتاج اليها اكثر مني؟

فقبلها ذاك بارتياح، كما لو انها هدية من الله، ودون ان يفكّر للحظة ان الأخ قد اعطاه ما له، وما هو بأمس الحاجة اليه، انما فعل ذلك فقط كي يريحه.

- امضى اثنان من النساك الليل كله يحيكان الحبال. وبغتة ابدى احدهما جانب التأفف والامتعاض بحجة ان عمل الفريق الآخر بطيء، بينما الفريق الاول عمله سريع وناجح. لكنه عاد فاستدرك، وشرع يبطئ في العمل، وذلك كي يبدو عمل الاثنين على وتيرة واحدة، وايقاع واحد. وهكذا انهى الاثنان عملهما بدون انزعاج.

- مضى احد المبتدئين الى ناسك طاعن في السن يطلب منه بعض النصائح. ولما وصل، راح الاثنان يتكلمان حول امور عديدة لمدة تربو على الساعة. فانتفع الراهب كثيراً، وأحسّ بالراحة. ولما نهض كي يعود ادراجه الى قلايته، قال للناسك : سامحني يا ابت، لقد منعتك من الصلاة بسبب زيارتي. فقال له الناسك :

صلاتي يا ولدي، هي ان اريحك، واعيدك الى قلايتك مزوّداً بالفرح والسلام.

- ترك البار ابرام العالم لما كان شاباً يافعاً، ومضى ليعيش في البرية. واستطاع بالجهاد، وعمل النعمة الالهية، ان يبلغ درجة عالية من الفضيلة. وبعد سنوات، بلغه عبر بعض معارفه، ان اخاه رقد تاركاً وراءه ابنة صغيرة لم تتجاوز السادسة من العمر. فقام في تلك الاثناء احد معارف ابرام، واحتضن الطفلة اليتيمة. وذات يوم قام وحملها، ومضى بها الى البرية. وكان الناسك ابرام ذا قلب رقيق جداً، رغم شظف العيش وكثرة الجهادات في البرية. فلما رأى الطفلة، حزن من اجلها حزناً عظيماً، فهي صغيرة وليس لها من يعولها. ثم ابقاها عنده رغم قساوة حياته، ورغم الصعوبات التي قد تحول دون نموها هناك.

ولما كان قد عزم ان يتبنّاها، صارلها بمثابة اب رؤوف، وام حنون، ومربّ صالح، ومعلم حكيم. ثم بنى لها كوخاً صغيراً بقرب منسكه. وحرص كل الحرص ان لا يعوزها شيء حتى تكبر. ثم قام بعد ذلك، وعلّمها الابجدية، وزوّدها بالتعليم المسيحي. وكان يحبها جداً، ويود لو يقود خطاها في سبيل التقوى والفضيلة، علّها تكون في يوم من الأيام ناسكة عظيمة، او بمثابة سارة اخرى بارة تطبّق شهرتها الافاق في كل انحاء مصر.

ومرت الايام، وتعاقبت السنون، وكبرت مريم - وهذا هو اسمها - وبدأت تبدو كما كان يتوسّم فيها عمها من اخلاق وتقوى وفضيلة.

بيد ان ابليس الحسود جداً، لم يرضَ بما كان عمها يتمناه لها، فعمد الى ما يجعل الصبية تسقي عمها الدواء المر، وذلك كي يحدّ من سعيه من اجل ابنة اخيه، فيفقده اجره.

وحدث في ذلك الحين ان شاباً منافقاً كان يتردّد على منسك البار ابرام ليتزود بنصائحه وارشاداته. لكن زيارات هذا الشاب للناسك لم تكن في العمق بنيّة حسنة، كما حاول ان يبدو، فهو كان يمتّي النفس برؤية الصبية الجميلة التي كان يلمحها بجوار منسك البار ابرام. سيما وقد تيقّن من براءتها، وطراوة عودها، وطيبة اخلاقها.

وذات يوم مضى البار ابرام الى عمق الصحراء لأيام، كعادته، وذلك كي يعكف على مزيد من النسك والصلاة. فبقيت الصبية وحيدة. وكان ابليس يفتش عن سانحة كي يوقع بها. فأوعز الى الشاب ان ينطلق اليها. وكان لإبليس ما اراد. فلما عادت الصبية الى نفسها، وادركت حالتها، واحسّت باليأس القاتل ينهش قلبها، لم تفكر بالتوبة الى الله، والاتكال على رحمته، بل كانت تسمع لما يوجس لها به ابليس الذي راح يوحي لها كل حين قائلاً:

لم يعد لكِ خلاص. لقد ضللتِ. وكانت هي في قرارتها ترجو لو يتوقف هذا الصوت فلا تسمعه الى الابد.

وفي النهاية، وجدت الصبية خلاصها في الهرب. فقامت وتركت القلاية تحت جنح الظلام، وهامت على وجهها دون ان تترك لعمها اثراً يدل على مكان اقامتها.

في تلك الاثناء، كان البار ابرام حراً من كل اهتمام دنيوي، وكانت روحه ترتقي الى العالم السماوي، وكانت نفسه في سعادة وغبطة يتعذر وصفها.

ولما انقضت ثلاثة ايام على وجوده في عمق الصحراء، أحس بالتعب يدب اليه. فتوقف عن صلاته قليلاً، ثم صعد الى صخرة عظيمة بجوار المكان، وجلس فوقها ونام. ولم يدرِ كم من الوقت مر وهو على هذه الحال. وفجأة انتصب واقفاً كما لو ان شيئاً قضّ سكينته وهدوءه. لقد اضطرب من حلم رآه في نومه. فقد بدا له انه يسير في بستان القلاية التي اقامها لابنة اخيه مريم، وانه كان ينتظرها كي تأتي ليقرأ لها كما كان يفعل في طفولتها. لكنه رأى فجأة حمامة بيضاء ترفرف فوق رأسه في قلب نور شمس الظهيرة. وسرعان ما ارتفعت الحمامة في الفضاء لتنجو من فخ كان قد نصبه لها ثعبان كبير، غير انها لم تفلح في النجاة من انيابه. فقد استطاع ان يمسك بها بين فكّيه، وبلمح البصر ابتلعها، فغابت في احشائه.

حزن الشيخ جداً. وقام وحمل عصاه وتوجه الى الثعبان وراح يضربه

حتى اخرج الحمامة من جوفه، فعادت الى الطيران من جديد.

تأثر الشيخ ابرام لرؤيته هذا الحلم، وشعر بالاضطراب يدبّ الى قلبه، وتوجهت افكاره نحو مريم ابنة اخيه. ثم قال في نفسه : لا بد ان مكروهاً اصابها.

انتصب على قدميه، وحمل عصاه وانطلق الى قلايته. ولما وصلها، توّجه تواً الى قلاية مريم. وكعادته، قرع الباب، فانفتح له. وكان في المكان صمت مطبق.

وَثَبَ الى الداخل، وراح يجيل بصره، علّه يجد لها اثراً، ولكن عبثاً. ثم غادر القلاية الى البستان، وراح يبحث عن مريم، فلم يجدها.

امضى ليلته الاولى في قلق وحيرة. وفي صبيحة اليوم التالي بدأ يمنّي نفسه بعودتها، ولكن عبثاً. وهكذا كانت حالته ايضاً في صبيحة اليوم الثاني، والثالث... وكان يترقب عودتها، ولكن حلمه لم يتحقق.

أيقن الشيخ ابرام في نهاية المطاف ان مريم لن تعود. فالطفلة التي رعاها وتعّهدها بمحبة وحنان، سقطت في براثن التنين. وهكذا ظل الشيخ ابرام يتذكر الحلم الذي رآه، وكيف ان تلك الحمامة البيضاء غابت في جوف الثعبان الذي ابتلعها.

مرت الأيام، وكان الشيخ ابرام شديد الحزن والتأثر. وانقضت سنتان والدمعة لا تفارق خديه، فقد راح يتخيل الاخطار المحيقة بهذه الصبية المسكينة. واخيراً، قام الى بعض معارفه وطلب منهم البحث عن مريم في كل مكان. اما هو فعاد الى قلايته، واغلق على نفسه لتجد ملاذها وراحتها في الصلاة الى الله. وبدأ يضاعف جهاده، وينهك جسده كي يرثي المسيح لحاله، ويستجيب له، فيعيد هذه النعجة الضالة الى الحظيرة.

وذات يوم، وكان قد مر على رحيل مريم سنتان، وقف في باب قلايته احد معارفه الذين اوفدهم ابرام للبحث عن مريم، وقال للشيخ:

يا ابت، ان مريم تعيش في مدينة عيصو، وقد وجدناها في بيت

الخطيئة. فتفطّر قلب الشيخ حزناً لدى سماعه النبأ، وتقطّعت احشاؤه، لكنه آثر ان يسند جسده الى الجدار، كي لا يهوي الى الارض من وقع النبأ. وفي النهاية قال:

ليكن الأمر هكذا. يكفي اننا عرفنا اين هي. ثم راح يُطرق في التفكير بما يجب ان يفعله من اجلها.

واخيراً قرر ان يمضي اليها كي يخرجها من ظلمتها، لأنه ينبغي ان يخلّصها مما هي فيه، ويعيدها الى ميناء الامان، الى البرية المقدسة. ثم قام وصلى الى الرب وقال:

يا يسوع، يا من نزلت الى الارض من اجل الضالين، أعنّي في مهمتي. ودون ان يضيع الوقت بالمخططات والافكار، قام الى صديقه واقترض منه بعض المال والثياب، واستأجر حصاناً ركبه وتوّجه به شطر المدينة.

ذاك الذي لم يبارح قلايته طيلة خمسين سنة، ها هو الآن يتركها ليقصد العالم بحثاً عن الخروف الضال في الشوارع والأزقة. يا لعظم قوة المحبة! ولما وصل الى المكان المحدّد، توجّه الى المسؤول عن البيت، ونقده بعض المال طالباً منه وجبة شهية بصحبة تلك الصبية الجميلة. اما ذاك، فتملّكه الذهول والاستغراب، وراح يحدج الشيخ نظراتٍ تنم عن التعجب والاستغراب. واخيراً قال له:

الا تستحي من نفسك ومن شيبتك! وكان الشيخ ابرام يشعر باحتقار الرجل له، فراح يبكي في قلبه، لكنه كان يعود الى نفسه بين الفينة والاخرى ويصلي قائلاً:

يا يسوع انظر الى تعبي وتواضعي، وأعنّي وساعدني في المهمة التي اتيت الى ههنا من اجلها.

وكي لا يثير الشبهات، راح يتناول الطعام بنهم وشراهة. ثم احتسى الخمرة التي قُدمتْ له، على عجل، وهو الذي كان يشرب بالقطرة مرة في الاسبوع. ولما حان وقت لقائه بالصبية، اقتادوه الى غرفة مجاورة، وكانت

هي قد سبقته اليها، وراحت تنتظره بزينتها الكاملة، بينما كانت عيناها تُجيلان النظر فيه بسخرية وازدراء. لقد استغربت بياض شعره، وشيب لحيته. اما هو فراح يجاهد كي يخفي دموعه. وفي النهاية قال لها:

مريم، يا ابنتي، الا تعرفين من انا؟ لقد غادرتُ البرية بحثاً عنك، كي اعيدك الى طريق التوبة. اشفقي على شيخوختي، ولا تجرحيني في آخر ايامي. ولا تنسي مقدار تعبي للوصول اليك.

اما هي فراحت تتمنى لو أن الارض تنشق وتبتلعها بدل ان تقف هكذا امام من ربّاها وعلمها الطهارة والعفة. ولم تكن لتستطيع، لشدة خجلها، ان ترفع عينيها لتنظر اليه، بل بقيت مسمّرة في مكانها لا تتفوه بكلمة.

ولما افاقت من صدمتها، انطرحت عند قدمي الشيخ كما فعلت الزانية في الانجيل، وبللتهما بدموعها. وكان قلبها يتفطّر ألماً وحزناً، وراحت تقول: يا له من محب! لقد جاء الى ههنا من اجلي.

ثم قال لها الشيخ:

يا ابنتي، للانسان امكانية للخلاص كل حين. ومهما كانت السقطة، فلا شيء يمكنه ان يعيق ويعرقل من رفع على منكبيه، وفي قلبه، خطايا العالم.

قال الشيخ هذا، وراح يهمّ بالمزيد، الاّ انه لم يكن يريد اضاعة الوقت. وقبل ان ينكشف الأمر، خرج الاثنان خلسة عبر باب صغير كانت تعرف به مريم، وسلكا معاً طريق العودة الى الصحراء.

كانت توبة مريم عظيمة، فمحبة الرب، واصرار الشيخ، عادا بها الى حظيرة المسيح. وهكذا جاز قول الكتاب: حيث تكثر الخطيئة، تكثر النعمة (رومية ٢٠:٥)

امضى الشيخ ابرام بقية ايامه بهدوء وسلام، وكان سعيداً للتقدم الروحي الذي كانت تحرزه مريم ابنته في المسيح.

- كان راهب بسيط يتردد على الأب يوحنا الكوخي للاسترشاد

والمنفعة الروحية. وكان الأب يوحنا يستقبله بمحبة، ولم يكف يوماً عن توجيهه وارشاده. وكان في كل مرة يزوره، يسمع شيئاً جديداً عن دقائق الحياة الروحية.

لكن هذا الراهب لم يكن يفهم كل ما كان الأب يوحنا يقوله. وكان يتذكر القليل ليغيب عنه الكثير. لذا فقد جاءت اسئلته كلها عن مواضيع سمعها بالأمس، دون أن يفهمها.

وذات يوم توقف هذا الراهب عن زيارة الأب يوحنا. فاستفسر الأب عن السبب، ولكن دون جدوى. وذات يوم التقاه في الكنيسة، فبادر الى سؤاله قائلاً : لماذا لا تزورني يا اخي؟ ما بك؟ هل اصابك مكروه، لا سمح الله؟ فأجابه الراهب وقال:

كلا يا ابت، ولكن كما ترى، فإن ذهني بليد، ولا استطيع ان افهم ارشاداتك بسهولة. وأخشى ان اكون ازعجك ببلادتي وغباوتي.

فقال له الأب يوحنا :

خذ هذه الشمعة وأشعلها.

فأخذها الأخ واشعلها.

ثم اردف يقول له :

اذهب، وأتني بشموع الاخوة فنشعلها من الشمعة الاولى.

فمضى الأخ وعمل كما طلب منه.

فقال له الأب :

وهل تناقص نور الشمعة عندما اخذت منه كي تشعل سائر الشموع؟

فقال الأخ :

كلا يا ابت، لم يتناقص. قال هذا بينما انفرجت اساريره، وراح يضحك.

فأردف الأب يوحنا يقول :

هكذا ايضاً، فالأب يوحنا لا يتناقص ايضاً عندما تأخذ منه. لذا فإني اطالبك ان تأتي الي بدون تردّد.

منذ ذلك الحين، شرع الأخ يتردّد على الأب يوحنا باستمرار. وبفضل محبته له، اصبح راهباً عظيماً.

٣- في الاحتمال والصبر :

- كان الأب ايسيذور كاهن اسقيط مصر، يتمتع بقدر عظيم من الصبر والاحتمال. لذا فقد كان يجمع الاخوة حوله، وكان يرشد المبتدئين الارديا.

وعندما كان احد الشيوخ يتخلى عن راهب سيء الطباع، لا ينفع، كان الأب ايسيذور يسرع اليه ويقول:

ارسله إليّ يا ابت. وكان يبقيه معه في القلاية. وكان بصبره ومحبته، يصلح سيرته، ثم يعود ويرسله الى الشيخ حكيماً ومعافى. وفي الكنيسة، كان اعذب قول الى قلبه، هو التالي :

اذا تركتم للناس زلاتهم، يترك لكم ابوكم السماوي زلاتكم (متى ٦:١٤). وكان كل حين يردّد امام الاخوة ويقول:

يا اخوتي، يا اخوتي، اغفروا للاخوة زلاتهم، كي يغفر لكم ابوكم السماوي زلاتكم .

- اعتاد احد النساك الكبار ان يقول للرهبان حديثي السن:

لنفترض يا اخوتي، انني اصبحت قاضياً. لذا فإني اسألكم، من موقعي واقول:

ماذا تريدون ان افعل بكم ؟

اما اذا اجبتموني:

نريد ان ترحمنا يا سيدي القاضي، فسوف اجيبكم قائلاً : انتم اولاً

بادروا الى رحمة اخوتكم، بعد ذلك ارحمكم انا. ترى ما رأيكم ؟ أيكون هذا القاضي ظالماً ؟ معاذ الله. يا اخوتي، في ايديكم انتم ان تربحوا عطف القاضي ومحبته. يكفي ان نتعلّم كيف نسامح الاخرين.

- شعر احد الاخوة بظلم اخ له، فقام ومضى الى الأب صيصوي وقال له : يا ابت، الأخ الفلاني يظلمني. وفكري يعذبني، لا بل يحضّني، ويحرّضني على الثأر منه. فقال له الأب صيصوي:

لا يا اخي، لا تفعل هكذا. اترك الأمر لله، وهو يجازي.

فقال الأخ:

لن ارتاح، حتى اجعله يتوجّع بمثل وجعي.

فدعاه الأب للصلاة معه كي ينيره الله، ويلهمه على ما فيه المنفعة الحقيقية له.

فقام الأخ وركع قبالة الشيخ، ورفع الاثنان ايديهما الى الله، وصليا هكذا:

يا رب يا الهنا، نحن من ابنائك، ونعلن لك اليوم اننا لم نعد بحاجة اليك، ولا الى عنايتك بنا. وقد تعلّمنا ان نعتني بأنفسنا. لا بل نشاء ان نثأر لأنفسنا من الاخوة.

فاضطرب الأخ عندما سمع هذه الكلمات، سيما وانها جاءت منسجمة مع حالته النفسية، فوقف للحال وقال للأب صيصوي:

سامحني يا ابت، لم يعد قلبي يطلب الثأر والانتقام.

- مضى احد الاخوة الى الأب سلوان كي يسترشد عليه، وقال له:

هناك عدو مميت يغيظني يا ابت. لا بل انه يحرّك في اعماقي خطايا كثيرة. وما برح حتى الساعة يعكّر صفو حياتي، ويقضّ مضجعي. لقد اقتطع جزءاً من حقلي بالغش والخديعة. وها هو يبادر الآن الى الكلام ضدي حيثما حل، ويفتري علي، وينال من سيرتي وسمعتي. وقد علمت انه

حاول، قبل بضعة ايام، ان يدسّ سماً في طعامي. لذا فإني اشاء ان ابلّغ عنه، كي تنظر العدالة في امري، ويعود لذي الحق حقه.

فقال له الأب سلوان بشيء من اللامبالاة:

افعل ما يحلو لك.

فقال الأخ:

الا تعتقد يا ابت، انه اذا اقتصّت العدالة منه وعوقب، تخلص نفسه، لأنه لا يبالي بأحد ؟

فقال له الأب :

اعمل ما يحلو لك.

فقال الأخ:

سأتوّجه تواً الى الجهات المختصة. قال هذا وهمّ بالرحيل.

فقال له الأب سلوان بهدوء:

لا تكن عجولاً، بل دعنا نصلي معاً كي يلهمك الله الى ما هو موافق. وشرع الاثنان يصليان. ثم بدأ الأب سلوان الصلاة الربانية. ولما وصلا الى: واترك لنا ما علينا كما نترك نحن لمن لنا عليه، رفع الأب سلوان صوته وقال:

ولا تترك لنا ما علينا...، فقال الأخ : كلا يا ابت، الصلاة الربانية لا تقول هكذا، فهي لا تطالبنا بذلك.

فقال الأب سلوان:

اذا كنت قد عزمت ان تقاضي اخاك، فإن سلوان ليس عنده ما يقوله لك.

- ذات يوم شاهد احد الشيوخ اثنين من الاخوة يحملان جثمان احد الراقدين، فقال لهما:

وهل تحملان الأموات ؟ لماذا لا تحملان الاحياء بدل الاموات ؟

- صعد بعض الشباب الى الاسقيط للقاء شيخ روحاني. ولما وصلوا الى قلايته، وجدوا عند بابها سلة للقمامة، فقالوا له:

وكيف تحتمل رائحتها يا ابانا، فلا تتخلص منها ؟

فقال الشيخ:

ما يزال امامي متسع من الوقت للقيام بذلك. وفي كل مرة انوي ان افعل ذلك، اقول لنفسي: اذا كنتَ لا تحتمل قليلاً من الازعاج، فكيف تحتمل تجربة عظيمة؟ وهكذا تألف نفسي الامور الصغيرة التي يُنزلها الله بي.

- عاش عند احد الشيوخ المتوحدين تلميذ غير منضبط، لم يكن يطيعه في شيء. فكان الشيخ يطيل اناته راجياً ان الوقت سيكون له دوره في اصلاحه.

- ذات يوم اقفل الأخ المسؤول غرفة الطعام واحتفظ بمفتاحها، ثم نزل الى المدينة دون ان يخبر احداً. وهناك، اضطر ان يتغيّب عن ديره اسبوعين كاملين. فبقي الناسك بدون طعام، اذ لم يجد سبيلاً لفتح المخزن. وفي النهاية زاره احد الاخوة، وجلب له قليلاً من العدس.

- ذات يوم قال احد المبتدئين : انا متشوّق للموت حباً بالمسيح.

فقال له الشيخ:

اذا كنت تحتمل بفرح التجربة التي تحل بك بسبب اخيك، عند حدوثها، تكون مشابهاً للفتية الثلاثة في الاتون.

- اسدى احد الشيوخ لبعض الاخوة النصيحة التالية، فقال:

اذا بلغ الى مسمعكم كلام نابي، ورفض صاحب الكلام ان يعترف بما قال، فلا تصرّوا عليه وتذكّروه بخطيئته. فهو سوف يجيب بعد حين، ويقول : اجل، انا من تلفّظ بهذه الكلمات، فماذا لك علي ؟ وهكذا،

سيستفحل الأمر، وتكون النهاية وخيمة. لذا فإني اناشدكم وادعوكم واطالبكم في مثل هذه الحال، ان تنسوا الاساءة، كي يحل الوفاق، ويستتب السلام بينكم.

- يقول لنا التقليد ان الرسول يعقوب، شقيق الانجيلي يوحنا، بينما كان في طريقه الى الاستشهاد، صادف الانسان الذي كان قد افترى عليه. فتوقف وقبّله قائلاً : عش بسلام يا اخي. فلما رأى ذاك محبة الرسول يعقوب، تعجّب وصرخ قائلاً : انا من الآن مسيحي. بعد هذا، مضى الاثنان الى الاستشهاد، وماتا بقطع الرأس.

- دفع الأب زوسيما -(غير الذي نعرفه في قصة امنا البارة مريم المصرية)- ببعض الكتب لأحد الكتبة كي ينسخها له. ولما انتهى ذاك من عمله، ارسل يدعو الأب زوسيما كي يأخذها. لكن انساناً آخر انتحل اسم الأب زوسيما، مضى واخذ الكتب. وبعد ايام ارسل الأب زوسيما احد ابنائه الروحيين كي يحضر الكتب، فأدرك الناسخ انه قد خُدع، فقال:

ألن يقع ذاك في قبضتي؟ سوف يرى ما سأفعل به.

فلما بلغتْ هذه الكلمات الى مسمع الأب زوسيما، قال للناسخ:

يا اخي، نحن نقتني الكتب كي تعلّمنا المحبة واحتمال الاخرين. لكن اذا كنا بسببها نتخاصم ونتشاجر، فخليق بنا ان ننقطع عنها لأن عبدالله لا يخاصم (٢ تيمو ٢:٢٤).

- هاجم احدَ النساك في احدى الليالي الباردة مجموعةٌ من اللصوص. فخاف وبدأ يصرخ طالباً النجدة. فاستيقظ الاخوة في الجوار وطاردوا اللصوص حتى تمكنوا منهم واسلموهم الى السلطات المختصة. وفي النهاية تابوا واعترفوا للأب بيمن بكل شيء.

حزن الأب بيمن بسبب الموقف الذي اتخذه الرهبان، فكتب للناسك يقول: فكّر يا اخي ما الذي اودى الى هذه النهاية. لقد رضختَ لقلة ايمانك وجبنك، فسلّمت للقضاء اناساً كي تقتصّ منهم العدالة. فلما

سمع الناسك هذه الكلمات، ادرك خطيئته، وقام يعمل لإخراج اللصوص من السجن.

- قال احد الآباء القديسين الحكماء : ان من يُظلَم، ويسامح، يشبه يسوع المسيح. اما الذي لا يَظلم، ولا يحب ان يُظلم، فهو بمثابة آدم. اما الظالم المفتري، فلا يختلف عن الشيطان البتة.

- كان عند الأب جلاسيوس كتاب جميل يحوي العهدين القديم والجديد. وكان يردّد على الدوام ويقول : هذا كتاب باهظ الثمن ونفيس. وقد اعتاد ان يتركه في الكنيسة كي يطالعه من اراد من الاخوة.

وذات يوم، امتدت اليه يد احد اللصوص وسرقته، فعلم الأب جلاسيوس بما حدث، لكنه لم يحرّك ساكناً لاسترجاعه.

اخذ اللص الكتاب ومضى به الى المدينة ليبيعه. وهناك راح يبحث عمن يشتريه منه. ولكن لم يُعطه احد ثمناً. وفي النهاية بلغ به الأمر حانوتاً لبيع الكتب، فأودعه لديه آملاً ان يعرضه صاحب الحانوت على من يهتم بمادته، ووعده ان يدفع له لدى بيعه.

اخذ الحانوتي الكتاب، ومضى به الى الأب جلاسيوس الذي كان صديقاً له، وسأله:

هل اشتري هذا الكتاب يا ابت، فقد عرضه علي انسان مقابل مبلغ محدد من المال؟ قل لي هل هو كتاب قيّم؟

فأدرك الأب جلاسيوس حقيقة ما جرى، لكنه تكتّم ولم يبح بشيء. وفي النهاية، مد يده وأمسك الكتاب، وتمعّن فيه، وقلّبه بين يديه كما لو كان يراه للمرة الاولى. وفي النهاية قال للرجل:

اقبله يا اخي، فهو يستحق المبلغ المذكور.

وفي صبيحة اليوم التالي، عاد من اراد ان يبيع الكتاب، فقال له الحانوتي : لقد عرضتُ كتابك على الأب جلاسيوس، فقال انه ليس قيماً كما تتصور. فقال الرجل:

ألم يقل الأب جلاسيوس شيئاً آخر؟ قال هذه الكلمات وهو يرتجف. فقال الحانوتي:

كلا لم يقل لي شيئاً آخر. فقال البائع:

هاتِ الكتاب، فأنا لا اريد ان ابيعه. قال هذا وهو يشعر ان في اعماقه صراعاً عظيماً. فهو من جهة، أُعجب بمحبة الأب جلاسيوس، ومن الناحية الثانية راح يلوم نفسه عما فعل. ثم قام وحمل الكتاب ومضى به الى الاسقيط. ولما رأى الأب جلاسيوس، سقط عند قدميه وطلب منه المسامحة.

سامحه الأب جلاسيوس، وأصرّ ان يُبقي له الكتاب، لكن الرجل كان شديد الحيرة والارتباك في قلبه. فهو اذا قرر ان يأخذ الكتاب، لن يرضي نفسه. اما اذا قرر ان يرفضه، فلن يرضي الأب جلاسيوس. ثم صمت لبرهة وقال: اصنع هكذا. ثم قام وحمل الكتاب ومضى به الى الكنيسة، وتركه حيث اخذه. ومنذ ذلك الحين، تاب عما فعل، ولم يعد يمد يده الى اي شيء.

- ذات يوم اقتحم بعض اللصوص قلاية الأب افبربيوس ونهبوا كل ما فيها. وقبل ان يرحلوا، تساءلوا فيما بينهم من سيحمل هذه الاغراض ويضعها على ظهر الجمل. وفي النهاية حملوا المسروقات وغادروا على عجل. اما الأب افبربيوس فلاحظ ان اللصوص نسوا عصاه، فحملها وانطلق وهو يصيح في اثرهم ويقول:

تعالوا خذوا العصا التي نسيتموها.

- اقتحم بعض اللصوص قلاية الأب ثيوذور. فقام اثنان منهم وأمسكا به كي يحدّا من حركته. اما الثالث فراح يجمع كل ما في القلاية. ولما فرغوا من عملهم، وجعلوا كل شيء على ظهر الجمل، رموا بمعطف الأب ثيوذور فوق الحمولة (الأب ثيوذور يلبس هذا المعطف عند لقاء الاخوة).

فصرخ فيهم الأب ثيوذور وقال : اتركوا معطفي فأنا بحاجة اليه. فسخر اللصوص به، وضحكوا عليه. اما هو -وقد كان قوي البنية-

فاستطاع بحركة منه ان يرمي بالرجلين الى الارض. فلما رأى اللصوص مقدار قوته، خافوا، وهمّوا بالفرار.

فقال لهم:

اين تهربون ايها الجبناء ؟ تعالوا نقتسم الاغراض فيما بيننا: ثلاثة ارباع لكم، والربع الاخير لي. وهكذا، بقي له المعطف الذي طالبهم به.

- اخبرنا بعض الآباء الشيوخ عن الأب يوحنا الفارسي ان مجرمين اقتحموا ذات يوم قلايته وفي نيّتهم ان يقتلوه. فقام هذا البار وأعدّ لهم شيئاً يأكلونه. ثم قام وسكب ماء كي يغسل ارجلهم كما هو حاله مع اصدقائه الزوار. فلما رأى اللصوص ما كان يفعله، خجلوا من انفسهم، ومضوا.

- ذات يوم اقتحم بعض اللصوص قلاية ناسك شيخ وقالوا له:

اتينا كي نجرّدك مما هو لك.

فأجابهم ببرودة قائلاً: خذوا ما تريدون واذهبوا.

فقاموا وافرغوا القلاية وغادروها على عجل.

الا انهم لم ينتبهوا الى شيء كان معلقاً في السقف. فمد الأب يده وأخذه، وخرج يصيح في اثرهم ويقول : لقد نسيتم هذا يا اخوتي.

فتعجب اللصوص من موقفه، وعادوا ادراجهم لا كي يأخذوا الغرض، بل كي يعيدوا له كل شيء سرقوه. ولما وصلوا سجدوا له وقالوا:

في الحقيقة انت رجل الله.

- اراد احد النساك ان يختبر اثنين من الاخوة، فدخل الى بستانهما وراح يتلف بعصاه كل المزروعات التي امامه. اما هذان فراحا ينظران اليه عبر شق في باب القلاية دون ان يَظهرا امامه، الى ان اتلف كل شيء. ولما بقي امر واحد لم يتلفه بعد، خرجا معاً، وقالا له بلطف منقطع النظير:

اذا سمحت يا ابانا، اترك لنا هذا، كي نقوم بواجب الضيافة فنعّد لك شيئاً تأكله. فأعجب الشيخ لسمو الموقف، فقام وقبّل الاخوين وقال:

اری روح الله يرتاح فيكما يا اخواي، فأنتما كثيرا المحبة والصبر.

- قال الأب بيمن:

لا يمكنك ان تطرد الشر بالشر. فإذا حدث ان اساء اليك اخوك، فبادله الشر بالخير، لأن لا شيء يطرد الشر الا الخير.

- في ايام الاضطهاد، سُلّم احد المسيحيين الى العذاب. فأخرجه الجلادون خارج المدينة ليقطعوا رأسه. وفي الطريق صادف هذا، المرأة التي كانت قد وشت به الى السلطات وسلّمته الى الموت. فما ان رآها حتى اخرج خاتمه الذهبي وجعله في اصبعها وقال:

اشكركِ من صميم القلب على الكرامة التي أَنْعُمُ بها الآن. لأنكِ كنتِ السبب في ان اصير شهيداً للمسيح.

- عاش احد النساك مع راهب كسول لا يحب العمل. وكان هذا الاخير يسرق اغراض الاخوة ويبيعها كي يعيش.

ففهم الجميع ما يحصل، لكنهم لم يقولوا له شيئاً. اما الناسك فقال في نفسه: لا يمكن للأخ ان يفعل هذا، الا لأنه في ضيق وعوز. فكان الناسك يقسو على نفسه كثيراً كي يعيش، لأن السارق كان يأخذ منه كل شيء. حتى انه لم يترك له خبزة واحدة يأكلها.

وذات يوم، لما حان اوان رحيل الناسك، تجمّع الاخوة كي يأخذوا منه البركة. وكان بينهم ذاك الراهب الذي كان قد سرق لهم كل ما عندهم. فدعاه الناسك كي يدنو منه. ولما اقترب، امسكه بيديه وراح يقبّلهما بحرارة. فتعجب جميع الحاضرين. فقال الناسك:

من صميم قلبي اشكر هاتين اليدين، فأنا بفضلهما قد بلغتُ الفردوس. فإذا علمتم ان احداً يسيء اليكم، لا تضمروا له الشر والاساءة. واذا استطعتم، قدّموا له هدية. لأنكم بهذا تقدرون ان تقولوا للسيد يوم الدينونة:

اترك لنا ما علينا يا سيد، لأننا قد تركنا ما لأخينا....

- ضلّ احد الرهبان السبيل بينما كان يسير في الصحراء، فراح يسير لساعات، على غير هدى. وفي النهاية، صادف بعض اللصوص، فرجاهم ان يدلّوه على المكان الذي كان يريد ان يذهب اليه. ولما كان هؤلاء قد ضمروا قتله بقصد سرقته، فقد اقتادوه الى جهة نائية. ففهم الراهب ما كان في نيّتهم فعله، لكنه لم يقل شيئاً. وعندما بلغوا النهر وهمّوا بعبوره، خرج من الماء بغتة تمساح عظيم كاد ان يمسك احدهم بفكّيه لولا وجود الراهب. فتحرك اللص من جرّاء ما حصل، وسجد امام الراهب وقال له:

سامحني يا اخي على الشر الذي كنت اضمره لك. فأنا وجّهتك الى هنا، بقصد قتلك، لكن محبتك سبقتني. ثم اشار الى الجهة المقابلة، وطلب من الراهب ان يسلك فيها للوصول الى هدفه.

- سرق احد العاملين في احدى المطرانيات مكتب المطران واخذ لباسه الكهنوتي وولّى هارباً باتجاه الصحراء كي لا يجده احد. وبينما هو يسير، صادفه عدد من اللصوص، فجرّدوه من كل ما لديه، وقيّدوه. ثم تابعوا طريقهم داخل الصحراء الافريقية.

علم المطران بأمر هذا اللص، فحزن من اجله حزناً عميقاً، وارسل من يستدل على مكانه مبدياً كل الرغبة في افتدائه. وكان له ما اراد. فلما عاد اللص المفتدى الى المدينة، استقبله المطران بحفاوة بالغة حتى تعجب الجميع وقالوا فيما بينهم:

ليس من خطيئة تفوق خطيئة الاساءة الى هذا المطران.

- قال احد الشيوخ الروحانيين:

في كل مرة يقتادك فكرك الى من يسيء اليك ويُلحق بك الاذى، حاول ان تقنع نفسك ان المسيء هذا قد أحسن اليك، فهو طبيب ارسله اليك الرب كي يجتثّ اهواءك، ويداوي جراح نفسك.

- وقال شيخ آخر:

هل تتذكّر المسيء اليك؟ لا تنسى ان هذا الحزن علامة على وجود

المرض الداخلي فيك. فلو كانت نفسك عديمة الشعور، لما كانت حزنتِ وتألمتِ. اذاً، اشكر المسيء اليك، وصلّ من اجله. وقل لنفسك انك بسببه اكتشفتَ مرضك وتيقّنتَ منه.

– قال شيخ آخر : تعلّم ان تقبل التجارب التي يُنزلها بك بنو جنسك، واقبلها على انها دواء ناجع ارسله لك الطبيب السماوي.

لكن اذا ثار غضبك ضد المسيء اليك، فهذا يعني انك تقول للمسيح:

لا اريد عقاقيرك، لأني راغب ان العق جراحي الداخلية.

ثم اردف يقول:

فكّر كم هو الصبر الذي يحتمله الراغبون بالشفاء من امراض الجسد. فالعمليات الجراحية تُجرى لهم، وهم يشربون الدواء المر – الذي طعمه يثير اشمئزازهم وقرفهم– طمعاً في العافية. لكن هؤلاء سبق ان اقنعوا ذواتهم انهم بغير هذا السبيل يستحيل شفاؤهم. لذا فأنت تراهم يحتملون كل شيء بشكر، لا بل يسرعون الى شافيهم كي يشكروه. فأظهر انت ايضاً لطبيب الارواح والاجساد العظيم ذاك الذي يسيء اليك ويحتقرك، فيشفيك من المجد الباطل. فدواء دائك هو عند ذاك الظالم والمسيء اليك. اما انت فإذا احسنت صنيعاً، فسرعان ما تنعتق من بلواك.

– وتابع هو نفسه يقول:

اما اذا تحاشيتَ التجارب النافعة، فأنت تخسر فرصة إصلاح نفسك كي تكون اهلاً للحياة السماوية. قل لي: من اعطى استفانوس اول الشهداء، مجداً اعظم مما قدّمه له الذين رجموه ؟

– تلى الأب زوسيما على تلاميذه القصة التالية:

اقام احد النساك قلايته بجوار دير، وكان جميع رهبان ذلك الدير يحبونه.

وكان في الجوار ناسك آخر. ذات يوم اضطر الناسك الى ترك قلايته لبضعة ايام. فاغتنم جاره فرصة غيابه، وانسلّ الى داخل القلاية واخذ

الكتب وكل ما فيها. فلما عاد الناسك بعد غياب، وجد القلاية فارغة من كل شيء. فقام ومضى الى جاره وأطلعه على كل شيء. لكن لما اطلّ من باب القلاية، لمح اغراضه المفقودة، اذ لم يكن السارق قد رتبّها في مكانها. لازم هذا البار الصمت، ولم يقل شيئاً يجرح به شعور الأخ. ثم قفل بعد ذلك عائداً الى قلايته كي يتيح للأخ الفرصة ان يرتب الاغراض في اماكنها.

وبعد يومين، او اكثر، عاد اليه من جديد ليحدثه عن امور لا علاقة لها بالمسروقات.

بيد ان الذين عرفوه عن كثب، علموا بحزنه وألمه، فقاموا يبحثون عن اللص في كل مكان حتى وجدوه، فسلّموه الى الشرطة، فطرح في السجن. كل هذا حصل، والناسك لم يكن يدري بشيء. لكن لما علم ان جاره في السجن، مضى الى رئيس الدير وتضرع اليه ان يعطيه بضعة خبزات، وقليلاً من البيض. فأعطاه الأب الرئيس ما اراد، لظنه ان عنده ضيوفاً، وعليه ان يقوم بواجب الضيافة.

وضع الناسك الطعام في سلة، ومضى الى المدينة ليزور جاره في السجن.

هذا لما رآه، انطرح عند قدميه وقال له:

سامحني يا اخي، لقد سُجنتُ بسبب الاساءة اليك. ثم اعطاه دليلاً بأن اراه احد كتبه. فقال له الناسك:

الله وحده يعرف يا اخي انني لم آت الى هنا لهذا الغرض. كذلك فإنني لم اكن افكر انك هنا بسببي. ولكن، من الآن، سأبذل ما بوسعي كي اخرجك. ثم قال له:

على كل حال، قم وتناول مما احضرته لك. فناوله الخبز والبيض، وتوارى عنه سعياً لاخراجه. وبنعمة الله، وُفّق اخيراً الى تحقيق ما اراد.

- قال المغبوط مكاريوس:

نبتعد عن الله، كلما فكّرنا باساءة الاخوة لنا. لكن عندما ننسى الاساءة، لا تعود الشياطين قادرة ان تتجاسر على تجربتنا.

- تشاجر اخ مع احد الاخوة، فقام ومضى الى الأب الروحي ليعترف له بخطيئته. ولما رآه قال له: فلان من الناس يمرمرني يا ابت، وعقلي يعذبني، وافكاري تحرّضني على الانتقام. فقال له الشيخ القديس:

اغلق على نفسك داخل قلايتك، ولا تكف عن الصلاة من اجله ليلاً نهاراً. بهذا فقط، يمكنك ان تنعتق من الهوى الذي يجيش في داخلك.

فعمل الأخ بما قاله له الشيخ. وبعد فترة، وجد هدوءه الداخلي.

- قال احد الشيوخ : اذا شُتمتَ، باركْ. واذا قُبلتْ بركتك، فهذا حسن للأثنين معاً. اما اذا رُفضت البركة، فتنال انت البركة من الله. اما ذاك، فتبقى له الشتيمة واللعنة.

- قال الأب مكاريوس:

الكلمة الحسنة تقدر ان تحوّل الشرير الى صالح.

وذات يوم، بينما كان احد تلاميذ الأب مكاريوس يسير في الطريق، صادف احد كهنة الوثن، وكان يسرع الخطى الى غايته.

فقال له بزلّة لسان:

لماذا تسرع يا شيطان ؟

فغضب الكاهن وضربه بعصا كان يحملها، فانكسرت على ظهره. اما التلميذ فسقط الى الارض بين حي وميت.

وبعد حين، اطل الأب مكاريوس يسير على الطريق، فلمح الكاهن الوثني، وبدا له مسرعاً كما لو انه كان يحاول ان يختبئ. فناداه بمحبة وقال له : بركة الرب عليك يا انسان.

فتوقف ذاك وقال:

وايَ خير رأيتَ فيَّ حتى كلمتني هكذا ؟

فقال له الأب مكاريوس:

اني اراك مسرعاً، واخشى انك لن تدرك مبتغاك، فعبثاً تتعب.

قال له الكاهن:

كلامك كالعسل في حلقي، وهذا علامة على انك رجل الله.

ثم تابع يقول:

لقد صادفتُ قبل لحظات شاباً شريراً، بادر الى شتمي بدون سبب، فكلت له الصاع صاعين. واظنه ميت الآن.

ففهم الأب مكاريوس ان الشيخ كان يتكلم عن تلميذه. ولما قام يبحث عنه، وجده بين حي وميت. فطلب من الكاهن الوثني ان يحمله معه الى قلايته. ولما بلغا القلاية، طلب الكاهن من الأب مكاريوس ان يسامحه لأنه اساء الى تلميذه. ورجاه ان يقبله عنده، لأنه يريد ان يصبح مسيحياً.

٤- في نكران الذات :

- قالوا عن الأب بفنوتيوس انه لم يكن يضع الخمرة في فمه، وانه كان يشرب الماء للضرورة فقط.

وذات يوم، بينما كان يسير في البرية، صادف مجموعة من اللصوص مطروحين على الارض بسبب السكر. فعرف زعيمُهم الناسك، وكان يعرف انه لا يحتسي الخمرة. فملأ الكأس بيده، ودفعها الى الناسك ليشربها، بينما راح يهدده بسيف امسك به في اليد اليسرى. وكان على الدوام يردد انه سيقتله اذا لم يشرب الكأس كله.

فقال له الشيخ بشجاعة:

سأشربه كله، ولكن لا خوفاً منك، بل ايماناً مني ان الله سيرحمك

بسببه، هنا، وفي الدهر الآتي. ولما قال هذا، وضع الكأس على فمه وأفرغه في جوفه.

فقال اللص:

سامحني يا ابت لسماجتي ورداءة تصرفي. واعدك انني منذ الآن لن اتعدى على احد. فردّد الآخرون الكلمات نفسها وقالوا:

لقد ضحى الأب بفنوتيوس بارادته حباً بالقريب، وذلك كي يربح جميع اللصوص الى المسيح.

- كان لأحد ضباط الجيش البيزنطي صداقة عظيمة تربطه بأحد الامراء الكبار. وكان هذا الاخير يدعو صديقه الضابط الى مائدته بين الحين والآخر. اما زوجة المضيف، فتملّكها -ذات يوم- هوى داخلي بسبب من حسن طلعة الضيف، فمرضت، وعجز الاطباء عن تشخيص مرضها. وكانوا يقولون لزوجها ان زوجته تعاني مرضاً نفسياً. فأرغمها الزوج ان تقول له الحقيقة كلها. فقالت له ما يلي:

انت بسبب محبتك، تحضر الى بيتك رجالاً شباباً. اما انا فبسبب ضعفي، اسقط في الفخاخ. والآن انا اتألم بسبب حسن طلعة ضيفك الشاب.

فلما سمع الضابط هذه الكلمة، هدأ، وكان هدوءه بسبب وقار صديقه الذي اطلعه على سر بيته. لكنه حزن لأنه تسبّب للبيت بالمشاكل. ثم قال لرفيقه: لا تحزن ، وارجو ان يوفقني الله لاصلاح الخطأ على عجل .

وفي صبيحة اليوم التالي، قام الشاب ومضى الى الحلاق طالباً منه ان يحلق له شعره وذقنه ورموشه. ثم تنكّر بعد ذلك، ومضى الى بيت صديقه. ولما دخل، طلب ان يرى الزوجة المريضة، فأخذوه الى غرفتها. ولما دخل، رأى زوجها بجوارها. وما ان اطل الضابط الشاب المتنكّر، حتى كشف عن رأسه وقال:

اليكم كيف سمح لي الله ان اكون. فلما رأت المرأة كم رأسه قبيح،

اشمأزت. ومن تلك اللحظة انعتقت من الهوى الذي كان يعذبها. اما ذلك الشاب (الضابط) ، فلم يعد يأتي الى ذلك البيت.

- ذات يوم، مرض احد شيوخ الاسقيط، واشتهى ان يأكل خبزة طازجة وساخنة. ولكن كيف له ان يحقق رغبته في تلك البرية القاحلة؟ فلما علم احد الرهبان الشباب برغبة الشيخ، وضع كل فتات الخبز المجفّف في كيس، وانطلق شطر الاسكندرية التي تبعد مسيرة يومين عن الصحراء . ثم عاد بعد ذلك الى البرية وهو يحمل رغيفين ساخنين رغبة منه في تحقيق امنية الشيخ. فسأله الاخوة باستغراب:

من اين اتيت بالخبزتين ؟

قال:

من الاسكندرية. قال هذه الكلمات بعفوية وبساطة.

فلما سمع الشيخ المحتضر هذه الكلمات، لم يشأ ان يأكل، بل قال :

كيف اتناول هذا الخبز؟ لقد بذل الاخ دمه في سبيل احضاره. فدعاه الجميع الى تناول خبزة واحدة فقط، وذلك كي لا تضيع تضحية الاخ سدى.

- بينما كان احد النساك القديسين يسير في الطريق، صادف انساناً بائساً لا يقوى على الصوم والصلاة. فأشفق عليه وصلى الى الله ان ينتقل الشيطان من ذلك الانسان ويدخل فيه، كي يرتاح الأخ.

استجاب الله لصلاته، وحقق له ما اراد. وهكذا، بدأ ابليس حربه على الناسك، وكانت حرباً شرسة وضارية. فراح الناسك يتشدد في صومه وصلاته بمقدار حرب ابليس الشرسة ضده. فكافأه الله على عمله وموقفه، واعتقه من ابليس بعد حين.

- لقد عاث الفندال في اوربا فساداً، ومع الوقت دمروا كل شيء. وكان لإيطاليا النصيب الاكبر من الدمار، فدمرت مدنها الجميلة، واقتيد سكانها عبيدا الى افريقيا.

وفي تلك الأثناء، انفق الاسقف بفلينوس كل اموال الكنيسة لافتداء العبيد. ورغم ذلك، لم يستطع ان يربح الجميع ويُرضيهم.

وذات يوم، قابل امرأة ارملة وفقيرة كان قلبها قد تفطّر حزناً على وحيدها الذي وقع في الأسر. هذه طلبت منه ان يتدخّل لاطلاق سراحه، فقد كان حزنها عظيماً لا يوصف. فأشفق عليها الاسقف بفلينوس وبكى معها. ثم قام يبحث في المطرانية عما يقدمه لها، فلم يجد.

وفجأة التمعت في رأسه فكرة، فقال لها:

أترين، لم يعد عندي ما اقدمه لأحد. ولكن لعلي استطيع ان افتدي ابنك وحيدك، بنفسي.

فلما سمعت المسكينة هذه الكلمات، ضحكت، لظنها ان المطران يمازحها. ثم طلب منها ان تتبعه.

توجّه الاسقف الى الجماعة التي تحتجز الشاب، وعرض عليها صفقته، وهي ان يسلمهم نفسه مقابل اخلاء سبيل الشاب. وهكذا كان.

اقتيد الاسقف بفلينوس مع اسرى كثيرين للعمل الشاق في مجاهل افريقيا. وهناك، كان الاسقف يقوم بالعمل المطلوب منه باخلاص وتفانٍ، فنال اعجاب سيده الذي توسّم فيه الحكمة والمحبة. ومع الوقت نمت بين الرجلين صداقة متينة.

واراد الله ان يكشف امر الاسقف القديس. وذات يوم، بينما كان الاسقف بفلينوس منطلقاً الى عمله، استوقفه سيده وصديقه، وسأله عن امره وماضيه. فلازم بفلينوس الصمت. ثم عاد وتكلم، دون ان يدخل في التفاصيل، بل اكتفى بالقول : انا عبد الله الذي تمّت مبادلته بابن الارملة الفقيرة قبل سنوات.

لم يكتفِ سيده بالجواب، بل اراد ان يقف على الحقيقة كلها. فباح له الاسقف بكل شيء. فأعجب الرجل بمحبة الاسقف. وقام للحال وانطرح

عند قدميه وقبّلهما. ثم امر الخدام فجأوا واعتنوا بأمره. بعد ذلك، حمّله هدايا وتوصيات، واخلى سبيله ليعود الى بلاده.

شكر الاسقف صديقه على صنيعه، وانطلق الموكب عائداً الى الوطن.

- عندما كان اللومبرديون يسيطرون على شمالي ايطاليا، وقع بين ايديهم احد الشمامسة اسيراً، فقرر الاعداء ان ينزلوا به اشد العذابات. فتوسط احد المؤمنين لدى الاعداء، كي يخلوا سبيل الشماس الاسير. لكن جهوده باءت بالفشل ولم تفلح. وكل ما استطاع عمله انه تمكن من اقناع الاعداء ان ينقلوا الشماس الى مكان مريح. لكن الاعداء توعّدوا الرجل انه في حال هروب الاسير، سيلقى القبض على الكفيل ويسلّم للموت.

وهكذا كان. وفي احدى الليالي العاصفة والممطرة، قام الكفيل تحت جنح الظلام، ومضى الى غرفة الشماس وايقظه، وطلب منه ان يهرب. وكان قد اعدّ له حصاناً قوياً لرحلته.

فقال له الشماس الذي كان الحكم بالموت قد صدر بحقه:

كيف اهرب وتموت انت؟ كيف أقبل ان تموت انت عني؟

وفي صبيحة اليوم التالي، تم استدعاء الاسير لينفّذ به حكم الموت. فلما دخل الجلاد الغرفة، لم يجد فيها احداً. للحال ارسل من القى القبض على الوكيل (الكفيل)، فسيق الى الموت بدلاً من الشماس.

ولما مثل امام الحاكم، قال له ذاك:

اعرف انك انسان حسن الاخلاق وطيب. ولكني اعرف ايضاً انك شجاع حتى تقوم بمثل هذا العمل. لذا اسألك، قل لي: بأية طريقة تريد ان تموت؟ فقال الاسير وببرودة:

اقتلني بالطريقة التي كان سيموت بها ذاك. للحال جاء القرار بالموت بقطع الرأس. فوقف الجلاد بسيفه ينتظر الامر للتنفيذ.

جثا الرجل على ركبتيه وراح يصلي الى الله ان يقبل عمله، بينما راحت نفسه تتهلل، لأنها بعد لحظات ستكون بجوار السيد.

امر الحاكم الجلاد بحركة من يده ان يرفع سيفه لينزله على رأس الاسير. ولما فعل، جمدت يداه في الهواء، ولم يستطع ان يتحرك. فقد انتابته موجة من الآلام المبّرحة، فبدأ يصرخ كالكلب المسعور. فارتعد الحاضرون وقالوا:

وماذا سنفعل الآن ؟ يبدو ان الله الى جانب هذا الرجل. ثم بدأوا يتوسلون الى السجين ان يفعل شيئاً. فقال للجلاد : يا اخي، انزل يديك، فانزلهما. فعاد الوضع كما كان عليه قبل حين. للحال، حلّوا قيوده واطلقوه. اما هو فرغب ان يعيش بينهم طوال حياته رسولاً للمسيح.

٥- في الصدقة :

عاش في القسطنطينية كاهن قديس يدعى مركيانوس. كان هذا كثير الفضائل وقد عُرف عنه حبه للصدقة.

لم يكن لهذا الكاهن شيء يخصه، ولا ثياب، او اثاث، او أي شيء آخر. فقد كان يتصدّق بكل ما يصل الى يديه.

وفي صبيحة يوم احد، بينما كان الاستعداد جارياً لتكريس كنيسة القيامة، وكانت هذه كنيسة رعيته. صادف هذا الكاهن، بينما كان في طريقه الى الكنيسة، انساناً فقيراً معدماً عارياً يرتجف من شدة البرد راح يمد يده ليستعطي. فمد الكاهن يده الى جيبه بحثاً عّما يقدمه له، فلم يجد. لكن قلبه كان يتفطّر حزناً عليه، فقرر التالي: سأعطيه ثيابي. قال هذا وهو يقول في نفسه:

اعطيه ثيابي اليوم، وارتدي بدلاً منها ثياب الخدمة للمشاركة في القداس الالهي. وهكذا فعل. دخل الكنيسة وخلع ثيابه، ولبس ثياب الخدمة. ثم خرج ودفع بثيابه الى المتسول الذي راح ينظر اليه مذهولاً من محبته.

في هذه الاثناء، وصل البطريرك الى الكنيسة يرافقه الكهنة والشمامسة. واستعد الجميع للبدء بالصلاة. لكن حصل في ذلك اليوم

امر غريب. فاثناء الخدمة كانت عينا الامبراطور مسمّرتين على الكاهن مركيانوس. وكان الاستغراب بادياً على وجوه الكهنة ايضاً. وراح الجميع يهمسون ويقولون: من أتى مركيانوس بالمال كي يرتدي البذلة الكهنوتية المذهّبة؟

وفي نهاية القداس، خرج مركيانوس من الباب الملوكي لمناولة الشعب، فسرت بين الحضور موجة عارمة من الدهشة والذهول.

في تلك الاثناء تقدّم احد الكهنة من البطريرك على عرشه، وقال له: الا يجدر يا صاحب الغبطة ان تكون الثياب التي يرتديها الكاهن مركيانوس، لملك عظيم؟ فنظر البطريرك الى الكاهن مركيانوس واشمأزت نفسه من الابهة التي كانت تلفّه. الا انه في قرارته، كان يعرف تواضع الرجل. لذا قرر ان يكلمه على حدة. وبعد انتهاء الخدمة، وخروج الناس من الكنيسة، استدعاه البطريرك وقال له:

اين وجدت هذه الثياب يا مركيانوس؟ (طرح عليه السؤال بقسوة وخشونة) ثم اردف يقول:

يخال للمرء انك واحد من بطانة الملك. ولكن الا ترى يا مركيانوس انه يجب على الكاهن ان يكون بسيطاً في لباسه لئلا يعثر الناس؟

فأجال الكاهن نظره في ارجاء الهيكل، فوقعت عيناه على ثيابه الكهنوتية الرثّة، ثم عاد ونظر الى البطريرك وقال:

وعن اية ثياب تتكلم يا صاحب الغبطة؟ اما اذا كنت تقصد هذه التي ارتديها الآن، فقد سبق لي ان اخذتها من يديك الطاهرتين عندما وضعت يدك على رأسي قبل خمس وعشرين سنة لتجعلني بنعمة الله كاهناً.

فثار غضب البطريرك لظنه ان الكاهن مركيانوس كان يسخر به. وبغتة، لاحظ البطريرك ان مركيانوس كان عارياً، فقال له:

وما الذي اراه الآن ؟ فأطلعه الكاهن على ما جرى. فقام البطريرك وعانقه وقال:

لو ان الجميع يحذون حذوك يا مركيانوس ولدي، لما كنا بحاجة الى وعاظ ومبشرين. انت تعلّم الناس بمثالك وسيرتك.

- قيل عن الأب مركيانوس نفسه انه كان يطوف احياء المدينة وأزقتها، في الليل، ليجمع الاموات ويغسلهم بيديه، ويُلبسهم ما يليق بانسانيتهم، ثم يحملهم الى الكنيسة ليصلي عليهم، ثم يواريهم الثرى بعد ان يقبّلهم.

وذات يوم حصل التالي : كان الميت الذي يغسله مركيانوس انساناً بائساً معدماً. وكالعادة، البسه ثيابه بعد ان غسله، وحمله الى الكنيسة للصلاة عليه قبل ان يواريه الثرى. لكنه استدرك فجأة، فقد نسي ان يقبّله كعادته. فتنهد وقال له:

هلمّ يا اخي نعطي بعضنا بعضاً قبلة المحبة في المسيح. فاستوى الميت ومد يديه وامسك بالكاهن وعانقه، ثم عاد واستلقى من جديد.

وحدث في تلك الاثناء ان كاهناً آخر كان يشاهد ما يجري خلسة. هذا عندما غادر الكنيسة، اخبر الجميع بما حصل.

- في ليلة من ليالي الشتاء الباردة، ارتدى الأب نسطرو معطفاً فوق ثيابه، وتوجه الى الكنيسة. وفي الطريق صادفه ناسك، فسأله مجرباً اياه: اذا رأيت فقيراً معدماً، وطلب ثيابك منك، فماذا تعطيه؟ أتعطيه ما يدرأ عنه البرد، ام تعطيه القميص الناعم الذي ترتديه؟

فقال الأب: بالطبع سأعطيه ما يُدخل الدفء الى جسده.

ثم طرح عليه سؤالاً آخر: واذا صادفك بعد ذلك، فقير آخر، وطلب منك ثيابك، فماذا تعطيه؟

اجابه الأب قائلاً: بالطبع سأعطيه ما عندي، ثم اعود الى قلايتي حتى يرسل الرب إلي ما يسترني به. قال هذا وهو يبدو شديد الثقة بالله.

- عاش ناسك مع تلميذه في قلاية واحدة قريبة من القرية. وحدث ان حلّت في تلك الكورة مجاعة عظيمة، فقضى كثيرون جوعاً. فقام كثيرون من الاحياء وتوجهوا الى قلاية الناسك، وكان رحوماً جداً، فأعطاهم كل

ما عنده. فلاحظ التلميذ انه لم يعد هناك في القلاية ولا خبزة واحدة، فقال للناسك وهو حزين:

يا ابت، لماذا لا نقسم الخبز الذي ههنا، بيني وبينك، فتتصدق مما هو لك. لأننا اذا لم نفعل هكذا، سنجوع نحن الاثنين. فقام الناسك وقسم الخبز الموجود الى حصتين عملاً برغبة تلميذه. وعاد من جديد يوزع الخبز على الجياع من الناس. فرأى الله عمق محبته، فأجذل له العطاء، وكان هو يتصدق اكثر.

في تلك الاثناء قام تلميذه وأكل واحدة من خبزاته، فلم يشبع. فقام وعاد الى الناسك وقال له:

يا ابت، هلم نأكل معاً. فأطاع الشيخ وفعل حسبما اراد تلميذه. وذات يوم قرع باب القلاية فقير معدم، ففتح له التلميذ الباب، فرأى امامه رجلاً يمد يده وهو يستعطي.

فقال التلميذ، كما لو كان يخاطب الشيخ:

يبدو انه ليس لنا ما نأكله. فجاءه صوت الشيخ من داخل يقول:

ابحث جيداً. فدخل التلميذ الى غرفة الطعام، لكنه عجز عن فتح الباب، لأن الخبز كان يملأها حتى السقف.

منذ تلك الساعة، صار التلميذ شديد الثقة بكلام الناسك. وبدأ يوزع ما عنده على الفقراء، بدون تردّد وخوف.

- كان هناك كاهن قديس اعتاد يوم الاحد بعد القداس ان يجمع فقراء الرعية ويوزع عليهم المال من صندوق المحتاجين.

وذات يوم، قصدته امرأة فقيرة كانت ترتدي ثياباً رثة، فحزن لها، واشفق عليها. وقام الى صندوق المحتاجين وهو يريد ان يعطيها كل ما فيه. وهكذا كان. فلما غادرت هذه، جاءت امرأة اخرى، وطرقت باب الكاهن تريد منه مالاً لأمر كانت بأمس الحاجة اليه. فأيقن الكاهن ان هذه ستعود

خائبة لأن الصندوق فارغ. ولكن لما مد يده الى الصندوق، وجد فيه قطعة من ذهب، فأخذها ودفعها للمرأة.

- توسل الأب ثيوذور الفرمي الى الأب بمفو وطلب منه كلمة ينتفع بها ويتذكرها طوال حياته. فقال له:

اجعل في قلبك رحمة لجميع الناس يا ثيوذور، فيرحمك الله.

- قال الأب اشعيا:

عندما تحسن الى فقير بائس، لا تدعوه الى مساعدتك في عمل يخصّك، لأنك بهذا تخسر اجرك الذي من الله.

- يقول القديس مكسيموس المعترف عن الصدقة ما يلي:

«والاستعداد للتعبير عن المحبة، لا يظهر بالمال فقط، بل ايضاً بكلمة الله». وهو نفسه قال:

«ان من تغرّب عن العالم حقاً، وساعد اخاه بمحبة، سوف ينعتق من الاهواء، ويصير مشاركاً للحب الالهي. لأن من يحب الله، يحب اخاه، ولا يحتفظ بشيء لنفسه، بل يدبّر كل شيء على نحو يرضي الله، فيتصدّق مما عنده لكل محتاج ومعوز».

- يقول احد الاباء القديسين :

ان من يرحم أخاه ، يرحمه كرحمته لنفسه. وهذه الرحمة ، من شأنها ان ترفع صاحبها الى جوار الله.

- وقال أب آخر :

هناك اناس يُحسنون، لكن ابليس يحضّهم على الدخول في التفاصيل، وذلك كي يُضيّع اجرهم .

- حدث مرة ان زرت صديقاً كاهناً كان يوزع الصدقة والاحسان على المساكين والمحتاجين في الرعية. وبينما كنت معه، دخلت علينا ارملة مسكينة طلبت منه بعض القمح، فقال لها:

أعطيني الكيس الذي بيدك. فدفعت به اليه.

فقال لها احد الحاضرين:

انه كيس كبير أيتها المباركة. اما هي، فاحمرّ وجهها خجلاً. و بعد ان اخذت ما ارادت، غادرت مرتاحة.

فقال الكاهن لصديقه:

قل لي، هل أنت من باع الكيس لهذه المرأة ؟

فقال الصديق:

كلا ، انما دفعته لها محبة واحساناً.

فقال الكاهن:

اذا كانت المسألة محبة واحساناً، فلماذا كلّمتها عن حجم الكيس فأحزنتها وأخجلتها؟

قال هذا ثم قال له:

أرجوك يا أخي، لا تنس قول الرسول الالهي: والله يحب المعطي المتهلل (٢ كور ٩ : ٧)

- ذات يوم، اطلع الأب تيموثاوس كاهن الاسقيط الشاب، الأب بيمن عن امرأة عرفها في الاسكندرية كانت تزني، الاّ أنها كانت تتصدق بمالها على المساكين .

فقال له الاب بيمن:

فليرحمها الله، وفي النهاية ستخلص.

وبعد أيام قدمت الى الاسقيط والدة الاب تيموثاوس كي ترى ابنها، فسألها ابنها عن المرأة الخاطئة، فقالت له:

انها تعيسة يا ولدي، فهي ما تزال تحيا في الرذيلة، الا انها ما تزال تتصدق بمالها على المساكين. فنقل الأب تيموثاوس الخبر الى الأب بيمن.

فقال له:

كن على يقين و ثقة يا ولدي ان محبتها وصدقتها ، ستخلّصانها في النهاية.

وبعد شهور، عادت والدة الأب تيموثاوس الى الاسقيط بحثاً عن عمل، واخبرت ابنها ان تلك الزانية رجتها ان تأتي معها لأنها تريد من الاباء ان يصلّوا من اجل نفسها. فقام الأب تيموثاوس وأخبر الأب بيمن بكل ما سمع. فطلب منه الأب بيمن أن يتوجه الى المدينة كي يحضر تلك المرأة. فأطاع. وبمعونة الله، تمكّن من اعادة المرأة البائسة الى حظيرة التوبة.

- انطلق أحد الضباط البيزنطيين للقيام بمهمة خاصة أُوكل امر تنفيذها إليه.

فلما عبر بجوار الاسقيط وهو على صهوة جواده، لمح فجأة جسداً عارياً مرمياً على الارض، فقال في نفسه:

لابد ان لصوصاً كمنوا لهذا الانسان فجرحوه واخذوا ماله وتركوه بين حي وميت. فنزل عن حصانه، وخلع معطفه وجعله على الجسد المثخن بالجراح. ثم حفر حفرة ودفنه بمعونة صديق له. وبعد ذلك عاد وصعد الى صهوة جواده وتابع الى وجهته. لكنه ادرك انه سيتأخر عن موعده، فالليل وشيك وقد يضطر ان يبيت في العراء.

وحدث ما لم يكن في الحسبان. فبينما هوعلى حصانه، سقط وانكسرت رجله، وراح يتلوى من شدة الألم.

وفي اليوم التالي ساءت حاله، واسودّت قدمه وصارت الامه لا تطاق. حتى ان كل من رآه، كان ينصحه ببتر ساقه. ولما حل مساء اليوم التالي، لم يعد هذا المسكين قادراً على احتمال الالم، فراح يبكي كالاطفال، ظناً منه ان لا امل له بالشفاء.

وفجأة، وبينما هو في فراشه، لاحظ وكأن باب الغرفة ينفتح من تلقاء ذاته، وهناك وقف رجل راح يحدثه ويقول له:

ما بك يا اخي؟ ولماذا تبكي؟ قال الغريب هذه الكلمات بحنو ورأفة ثم أردف يقول:

ماذا تريدني ان اعمل لك يا سيد؟

فقال الضابط والدموع تملأ عينيه:

غداً صباحاً سيبترون ساقي.

فقال له الرجل الواقف عند الباب:

أرني ما بك.

فمد الضابط رجله بصعوبة، والالم يعتصر قلبه. فأقترب الغريب، وراح يمسح بيده القدم المتورّمة وقال:

قف على قدميك يا اخي، وحاول ان تمشي.

فقال له الضابط:

ماذا تقول؟ انا لا استطيع ان اتحرك. ألم اقل لك ان هناك من سوف يبتر ساقي صباح الغد؟

فقال له الغريب :

ضع يديك على كتفي، وحاول ان تمشي. انت معافى ولا تشكو من شيء.

فمد الضابط يده وامسك الغريب، وحاول المريض ان يتوكأ عليه كي ينتصب على قدميه.

للحال شعر انه قادر ان يغادر فراشه. وما هي الاّ لحظات حتى شعر بالحيوية تدبّ اليه، فقد تعافى وطفق يثب من فرحته، فالالم فارقه، ولم يعد هناك ما يعيق حركته وحرية انتقاله .

فقال له الغريب:

الا ترى انك تعافيت؟ هلّم الآن وخذ لنفسك قسطاً من الراحة. ثم مد يده واعاده الى فراشه وتوجه الى الباب كمن يهم بالرحيل، فقال له الضابط:

وهل ستغادرني الآن يا سيدي؟ فقال ذاك : وماذا تريد مني؟

فقال الضابط:

استحلفك بالله ان تقول لي: من ارسلك الي الى ههنا؟

فقال له الغريب:

انظر الي جيداً، الا تعرف من انا؟

قال من كان طريح الفراش : كلا.

قال له الغريب:

لعلك تذكر هذا المعطف؟

فدهش الضابط لما سمع هذا الكلام. ولما عاد الى نفسه، تذكّر ان هذا معطفه.

فقال الغريب:

هذا هو المعطف الذي جعلته علي لما وجدتني مرمياً على قارعة الطريق. والرب ارسلني اليك كي اشفيك. ولما قال هذا، توارى عن الانظار.

وفي صباح اليوم التالي، وصل الاطباء، وبدأوا يُعدّون العدة لاجراء العملية للضابط. وبغتة لاحظوا انه يهمّ بالرحيل، فلم يصدّقوا ما رأوا. الا انهم اجبروا على تصديق ما جرى. ومنذ ذلك الحين، كان هذا الضابط شديد الحنو والرحمة على الاحياء والاموات.

- قال الأب دانيال كاهن الاسقيط للأخوة ذات يوم:

كنت ما ازال شاباً عندما اتيت الى البرية من اجل خلاص نفسي. وحطّ بي الرحال في طيبة العليا، وأقمت في قلاية صغيرة. وكنت، مرة كل شهر، انزل الى قرية مجاورة لأبيع عمل اليد، واشتري بثمنه خبزاتي. وكان في تلك البطاح الشاسعة رجل يعيش بمفرده يدعى افلوجيوس. وكان افلوجيوس هذا رحوماً ومحباً رغم فقره المدقع. وكان كلما باع عمل يده، يسرع الى الخباز ليشتري بثمنه بعض الخبزات، ثم يقف بجانب الطريق

ليوزعها على الجياع والمحتاجين. وافلوجيوس هذا، كان يأكل مرة واحدة عند المساء. واذا فضل عنه شيء، كان يرمي به الى الكلاب الجائعة التي تمر بقلايته. اما اصدقاؤه فهم النساك الذين يجتازون الدرب المحازي لقلايته وهم في الطريق الى المدينة كي يبيعوا عمل اليد. وانا الأب دانيال مررت بأفلوجيوس هذا مرات ومرات، وكانت تلفتني محبته وضيافته. وكنت في كل مرة اخاطب نفسي واقول: لو ان افلوجيوس هذا كان غنياً، لساعد جميع المحتاجين، فهو كريم جداً. وكنت دائماً اصلي الى الله كي يساعد هذا الناسك كي يتابع ما هو عليه من محبة ورحمة.

وهكذا، شرعت اكثر من الصيام، وكنت اصلي بحرارة الى الله من اجل هذا الناسك افلوجيوس.

ولشدة التعب والاعياء الذي اصابني، وقعت يوماً طريحاً على الارض لا اقوى على الحراك، واخذتني غفوة عميقة. وبينما انا على هذا الحال، شعرت ان شاباً دنا مني، وسألني بحنو ورأفة عن سبب تعبي، فقلت له:

لقد صليت الى الله انني لن اضع شيئاً في فمي حتى يستجيب لصلاتي ويغدق على افلوجيوس هذا، الهبات والخيرات، وذلك كي يتصدق بها على المساكين والفقراء.

فقال ذلك الشاب لي:

ليس حسناً ما تطلبه يا اخي، فكثرة الخيرات ستفسد نفس افلوجيوس.

فقلت له:

كلا يا سيدي، فأنا اعرف انه يأخذ الكثير ويتصدق به كله.

فقال لي الشاب:

وكيف تضمن لي ان وفرة الخيرات لن تؤذيه؟

قلت له:

نعم، انا اضمن ذلك. انت بارك خيراته، ثم اطلب نفسه مني.

وهنا بدا لي فجأة انني حُملت الى اورشليم، الى كنيسة القيامة، فرأيت افلوجيوس جالساً بجانب القبر المقدس. وبغتة، رأيت الذهب ينهمر عليه كالمطر، ليستقر في حضنه، بينما راح هو يجمعه. فأيقنت ان صلواتي الى الله قد استجيبت. ومن فرحي، استيقظت وانا امجد الله.

وذات يوم، قام افلوجيوس، وهو يحمل مطرقة لغاية في نفسه، وراح يضرب بها صخرة كبيرة، فلم يسمع شيئاً. ثم عاود الكرة وضربها من جديد، فانفلقت الصخرة، فرأى بداخلها ذهباً كثيراً. فدهش المسكين، فهو لم ير في حياته ذهباً بهذا المقدار. فحار في امره، ماذا يفعل بهذا الذهب. فالتفت يميناً ويساراً، فلم ير احداً، فخبأ الكنز، وشرع يفكر ويقول:

ما عساني افعل بهذا الذهب؟ اذا احتفظت به وانا ههنا، وعلم بي الوالي، سيزجّني في السجن، فأخسر الذهب وحريتي ايضاً. وهكذا قرر ان يغادر المكان الى حيث لا يعرف به احد.

فقام ووضع الذهب في كيس احضره من القلاية، واستأجر حماراً بحجة انه يحتاج اليه لنقل بعض الحجارة، ثم نزل الى النهر وركب سفينة حملته الى القسطنطينية.

وكان ذلك ايام يوستنيان الملك. وهناك ابتاع افلوجيوس بيتاً واقتنى لنفسه عبيداً، وارتدى اجمل الثياب، وصار مقرباً من الوجهاء، لا بل هو نفسه سمي وجيهاً.

في هذه الاثناء فقد الفقراء والمسافرون برحيل افلوجيوس وجهاً محباً وعطوفاً. ولم يكن احد منهم يعلم اين انتقل افلوجيوس العطوف.

ومضت سنتان على الحادثة. اما انا فكنت قد وجدت لنفسي من يأخذ عمل اليد، اذ لم اكن انزل الى المدينة. ولم اكن اعرف شيئاً عن افلوجيوس.

وذات ليلة رأيت في الحلم انني اسير داخل كنيسة القيامة، فراح ذهني يفكر بأفلوجيوس. وفجأة رأيت في الحلم افلوجيوس هذا يسير مقيداً وراء احد الرجال.

فقلت في نفسي:

الويل لي انا البائس الخاطئ. لقد طلبت الخيرات لأفلوجيوس، وكانت الكفالة انني ابذل نفسي عنه. الويل لي لقد خسرت نفسي.

ولما نهضت في الصباح، نزلت الى المدينة لأبيع عمل اليد. الا انني في الحقيقة كنت امتّي النفس بمقابلة افلوجيوس. فحل الظلام ولم اعد الى قلايتي. وهناك عند الطريق العام حيث كان افلوجيوس يلتقي بالمساكين، لم اعد اجد هناك من يضيفني. وفي النهاية قررت العودة الى القلاية بمفردي. فقرعت باب قلايته الذي كنت اراه في العادة مفتوحاً. فانفتح الباب، فرأيت امامي امرأة طاعنة في السن. فطلبتُ ان تستقبلني. ففعلتْ واعدّتْ لي شيئاً آكله، وقالت:

يا ابت انت شاب، ولا يحسن بك ان تنزل الى المدينة وتظل خارج قلايتك عند المساء. فالعالم مليء بالفخاخ التي تنتظر الشباب.

فقلت لها:

وماذا تريدين يا سيدتي ان اعمل؟ انا بحاجة ان ابيع عمل اليد لشراء خبزاتي. فقالت لي:

اذا كان ذلك ضرورياً، فلا تتأخر حتى تعود الى قلايتك. فليس في هذه الاماكن اناس محبون للضيافة يرحّبون بالنساك.

ثم قالت السيدة :

عاش ههنا منذ زمان بعيد انسان...

قالت هذا ثم تنهدت، وتابعت تقول:

في هذه القلاية... لكن الله بارك خيراته كما يقول الناس، فصار عظيماً وانتقل ليعيش في العاصمة (القسطنطينية).

هكذا يقول الناس يا ابت.

فقلت في نفسي:

يا ايها البائس انت المسؤول عن كل ما جرى ويجري. ولم اكن اقدر ان

انام في تلك الليلة، لأني كنت افكر بالوعد الذي قطعته وهو انني اضمن ان افلوجيوس هذا اذا اغتنى وضل، تُطلب نفسه مني.

وفي صبيحة اليوم التالي، نزلت الى النهر وركبت السفينة الى القسطنطينية. وهناك بدأت البحث عن افلوجيوس.

وكان الناس كلما نظروا الى ثيابي، عمدوا الى طردي فوراً.

وفي النهاية عرفت اين يمكنني ان اجد ضالتي. فلما وجدته كان في ثياب الملوك يحيط به الخدم. فتقدمت منه وتجاسرت على النطق امامه بكلمتين وقلت له: يا سيدي يجب ان اقول لك كلمتين: ربما تظن انني متسول يستعطي. قلت هذا لأن افلوجيوس لم يتعب كي يحدق في وجهي. الا أن خدامه طردوني. وهكذا بدأت اتردد على المكان وانا اصوم واصلي من الصباح حتى المساء. اما ذاك المتعجرف، فلم يكن ليكترث بي.

وفي النهاية، اضطررت ان اناديه باسمه حتى أصغى الي وادرك انني احد اصدقائه القدامى. واخبرته بقصتي...

فقال لي:

ألن تدفع الضمانة التي قطعتها على نفسك؟ بعد ذلك امر عبيده فألقوا القبض علي وربطوني من رقبتي واقتادوني. ثم سمعته يقول:

تعلّم جيداً كيف تقطع وعداً ولا تفيه. لا تعطِ وعداً يفوق قدرتك.

وهنا ادركت ان نهايتي وشيكة.

وفجأة سمعت صوتاً يقترب. فنظرت، فإذا بي ارى الملكة، ملكة السماء والارض. فصرخت امامها بأعلى صوتي وقلت:

ارحميني انا الخاطئ وخلصيني. فنظرت الي وقالت : وماذا تريد مني؟

اني اطلب العقاب بالنيابة عن افلوجيوس يا سيدتي.

فقالت لي : سأتوسط في الأمر.

ثم مشت الى الامام وركعت على ركبتيها وبسطت يديها وراحت تتضرع.

اما انا فلم اكن اسمع اية كلمة. ثم قالت لي:

انطلق وانا سأتدبر كيف اعيد افلوجيوس الى سابق عهده. اما انت فلا تعد بعد اليوم تقطع عهداً كهذا.

فركبت السفينة وعدت الى قلايتي. فسمعت بعد حين بنبأ موت الملك، وسمعت بنبأ اعدام عدد من الناس ما عدا افلوجيوس الذي استطاع ان ينجو بنفسه. فركب السفينة وعاد الى وطنه مصر، حيث عاد الى قلايته الاولى. وذات يوم نزلت الى القرية للعمل. ولما عدت عند المساء مع غروب الشمس، صادفت لدهشتي وعند مفرق الطرق، شيخاً رأيته يبحث عن الغرباء. فلما رآني دنا مني بتواضع، وطلب مني ان يستضيفني في قلايته. وعندما وصلنا الى القلاية، غسل رجلي واعطاني شيئاً آكله. فقلت له: كيف حالك يا ابت افلوجيوس ؟

فقال لي:

صلّ من اجلي يا ابت لأنه يعوزني الكثير كي اتمكن من متابعة حياتي. فنظر الي بتساؤل واستغراب بينما كنت انا افكر في حالته القديمة والحاضرة.

ثم قال لي:

ترى هل اعثرتك في يوم من الايام؟ فأطلعته على كل ما جرى.

لن انسى طوال حياتي تلك الدموع المدرارة التي انهمرت على خديه في ذلك اليوم. بعد ذلك اعترف امامي بكل خطاياه وبكل ما جرى له في القسطنطينية. وفي الصباح قال لي قبل ان اودعه:

ارجوك يا ابت، صل من اجلي كي يعطيني الرب القليل الذي اتصدق به على الفقراء.

امضى افلوجيوس حياته في تلك القلاية الوادعة وكان يتعب من اجل لقمته. وراح يبذل الكثير ايضاً للفقراء والمحتاجين. وانا على يقين الآن انه رقد في النهاية، بعد ان ارضى الله.

٦- في الضيافة :

هكذا يصف بالاذيوس استقبال الرهبان للغرباء في الاسقيط بحسب تقاليد مصر وطيبة: عندما اتينا من فلسطين الى مصر، قمنا اولاً بزيارة قلاية الأب ابوللو. وما ان علم الرهبان بقدومنا، حتى خرجوا جميعاً للترحيب بنا. وعندما اقتربوا منا، عملوا مطانية لنا وألقوا علينا التحية المقدسة. ومن جديد سار الكبار في المقدمة، يتبعهم الاخوة الرهبان ونحن كنا في وسط الحشود، حتى القلالي. وهناك، كان المتقدم بانتظارنا. فما ان لمحنا حتى عمل مطانيّة وقبّلنا قبلة المحبة. ثم توجهنا معاً الى قلايته حيث قمنا بالصلاة الاعتيادية. وبعد ذلك جلسنا. فقام هو نفسه يحمل الماء كي يغسل ارجلنا. ومن ثم قادنا بعد ذلك الى المائدة. فصلينا القطع الاعتيادية وجلسنا بهدوء لتناول الطعام.

هكذا هو ترتيب الاستقبال الذي يحظى به الرهبان والكهنة الذين يفدون الى الاسقيط. وكان الشيخ نفسه يقول لتلاميذه:

عندما يزوركم رهبان يا اولادي، اعملوا لهم مطانية، واسجدوا امامهم على نحو ما عمل ابونا ابراهيم. لأنكم من خلالهم تسجدون الى الله حسب القول المأثور: اذا رأيت اخاك فأنت ترى الله.

- عندما يقوم احد الاخوة بزيارتك، بادر الى حجب النوح عن وجهك. هذه هي النصيحة التي ردّدها احد الشيوخ على مسامع ابنائه. واجعل هذا النوح في اعماق قلبك الى ان يرحل الزائر عنك. بعد ذلك عُدّ الى النوح من جديد. فالشياطين عندما تراك وانت تحمل النوح، فإنها تخشى ان تدنو منك.

- شيخ آخر كان يردّد على مسمع الاخوة النصيحة التالية: عندما تترقب زيارة الاخوة لك، بادر الى الصلاة قبل ان يقرعوا بابك، وقل هكذا:

يا رب، احفظنا جميعاً من الدينونة والنميمة والافتراء. واجعل اخوتي يغادرون هذا المكان منتفعين وممتلئين سلاماً.

- كان آباء الاسقيط يوصون ابناءهم بالصوم طيلة اسبوع كامل دون ان يأكلوا شيئاً البتة، ودون ان يشربوا الماء. وحدث ان زار الأبَ موسى الحبشي بعضُ الاخوة قصدوه من مصر. فقام الأب موسى وأعدّ لهم قليلاً من العدس المسلوق ليأكلوا.

فلما رأى بعض الاخوة في القلالي المجاورة ان الدخان كان يتصاعد من قلاية الأب موسى، قالوا للشيوخ: ان موسى يحتقر وصية الآباء ويطبخ الطعام.

وفي صبيحة يوم الأحد، اجتمع جميع رهبان الاسقيط في الكنيسة، فقال الكاهن الذي يقيم الذبيحة الالهية للبار موسى، وهو عالم بفضائله، وعندما اقترب ليأخذ القربان بصوت يسمعه الجميع:

نعمّ لك يا موسى، لأنك انتهكت وصية الناس، وحفظت وصايا الله.

- مضى احد الرهبان المبتدئين الى الأب بيمن للاسترشاد، وكانت الزيارة في منتصف الصوم الاربعيني المقدس. وبعد ان باح له بمكنونات قلبه ونفسه، ارتاح، فقال للأب بيمن:

كنت على وشك الا اتي اليك لأنتفع.

فسأله البار وقال:

ولماذا يا ولدي ؟

قال الأخ: لقد همس لي فكري يقول:

لا تذهب، لأن بيمن لن يقبلك في زمان الصيام المقدس .

فقال له الأب بيمن:

نحن يا ولدي لا نغلق بابنا الخشبي اثناء الصيام. الا اننا ينبغي ان نغلق هذا. قال ذلك وهو يشير بأصبعه الى شفتيه.

- زار راهبان اجنبيان احد الشيوخ في يوم صيامي (لا يأكل فيه). فقبلهما الشيخ بفرح. وقام نحوهما بكامل واجب الضيافة. فتناول الطعام

معهما، وشرح لهما كيف ان للصوم اجره، لكن الذي يكسر صيامه حباً بالاخوة، فله اجر مضاعف. اما الأجر الاول، فلأنه قطع مشيئته. والثاني، فلأنه اراح الاخوة بحفظه ناموس المحبة.

- عندما يدعو رهبان الاسقيط البار مكاريوس للجلوس الى مائدة الطعام، كان هذا العظيم يُلبي الدعوة كي لا يُحزنهم. لكنه كان يضع لنفسه القانون التالي: ان كل كوب ماء يشربه، سيجعله ينقطع عن الماء طيلة يوم كامل. فالذين لم يكونوا يعرفون الأب مكاريوس، كانوا يدفعون له بالماء ليشرب، وذلك ليشكروه على قدومه اليهم. اما هذا فكان يشرب الماء بفرح، وذلك كي يقسو على نفسه في اليوم التالي. فلما لاحظ تلميذه جهاداته، قال للرهبان: أرجوكم يا اخوتي، وحباً بالمسيح، لا تعطوه شيئاً ليأكل او يشرب، لأنه في الغد سيعاقب نفسه.

- زار الأب سلوان، بصحبة تلميذه زخريا، احد الاديار. ولما حان وقت رحيله، الحّ عليه رهبان الدير ان يأكل (لأنه كان يوماً صيامياً).

اما سلوان فقبل، كي لا يُحزن احداً.

وبينما هما في الطريق، مرّا بنبع ماء صغير، وكان زخريا عطشاناً، فطلب من الشيخ ان يسمح له ان يشرب.

فقال له سلوان:

اليوم صيام يا ولدي.

فقال له تلميذه:

لكننا كسرنا الصيام في الدير الذي كنا فيه.

فقال له:

الطعام ذاك، كان من واجبات الضيافة، اما الآن فليس هناك ما يدعونا لكسر صيامنا. وتابع الاثنان مسيرتهما، دون ان يتوقفا.

- يقال ان العظيم صيصوي لم يكن يأكل خبزاً، بل كان يكتفي بالاعشاب.

وفي عيد الفصح من ذلك العام، دعاه بعض الاخوة الى مائدتهم كي يأكل معهم. فتردّد الأب في قبول دعوتهم، لأنه سبق ان وعد نفسه بالصيام. فحزن الاخوة لعدم تلبيته الدعوة، فقال لهم:

انا ملزم على واحد من الاثنين على المائدة: اما اتناول الخبز، او اجعل في صحني شيئاً مما تطبخون. فقال له الاخوة:

ليكن الخبز ما تأكله معنا. فأطاع، وجلس مكتفياً بخبزة صغيرة.

- اعتاد احد الاساقفة الورعين ان يطوف الاسقيط والاديار مرة في السنة. وذات يوم، وبعد عناء السير، طلب ان يرتاح قليلاً في قلاية احد الشيوخ. فقام تلميذ الشيخ ليغسل قدميه، كعادة الرهبان. لكن الشيخ لم يكن عنده الا خبز وملح يقدمه للاسقف، فقال الشيخ:

سامحني يا صاحب السيادة، فليس عندنا الا هذا نقدمه لك. فتعجب الاسقف من هذا الامساك العظيم، وقال للأخ ممازحاً:

عندما ازوركما في السنة القادمة، ارجو ان يكون الملح قد نفد عندكما.

- جلس رهبان الاسقيط لتناول الطعام معاً في احد اعياد السنة، فقال احد الاخوة للأخ المسؤول عن خدمة المائدة:

انا لا آكل طعاماً مطبوخاً، بل اكتفي بالقليل من الخبز والملح. فقال الخادم بصوت يسمعه الجميع وهو يتوجه الى معاونه:

الأخ هنا لا يأكل مطبوخاً، فأعطه بعض الملح. فقام احد الشيوخ وقال للأخ:

كان خيراً لك لو تناولت اللحم في قلايتك، من ان تسمع هذا الصوت في حضرة الاخوة.

- مضى احد الرهبان المبتدئين لزيارة احد الشيوخ في البرية، وكان قد قطع على نفسه عهداً الاّ يضع خبزاً في فمه. ولما وصل الى قلاية الشيخ، وجد فيها اناساً اخرين كانوا سبقوه لزيارة الشيخ.

فأعد الشيخ طعاماً مطبوخاً للغرباء. وعندما جلسوا الى المائدة، اخرج الراهب من جيبه كعكة صغيرة، وبدأ يتناولها. فرآه الشيخ، لكنه لم يقل له شيئاً. وبعد الطعام، اخذه على انفراد، وقال له:

عندما تكون الى المائدة مع الاخوة، حاول، قدر المستطاع، ان لا تُظهر صومك وتشدّدك. لأن من شأن المجد الباطل ان يحرمك اجرة اتعابك. فإذا حدث مرة ان قررت ان لا تكسر قانونك، ما عليك الا ان تلازم قلايتك فلا تستقبل فيها احداً.

- تعلّمنا الكثير من حكمة احد الشيوخ الذي قال لنا مرة:

عندما تكون مع الناس، حاول ان لا تُظهر نسكك. لا تقل مثلاً : شكراً انا لا آكل زيتاً، او سمكاً، او طعاماً مطبوخاً. ولكن امتنع عن احتساء الخمرة، وذلك كي تدرأ عنك حرب الجسد. واذا كان هناك انسان غير سوي، وسمح لنفسه ان ينتقدك، فلا تكترث له، ولا تبالي به.

- سأل احد الاخوة شيخاً وقال له : اذا حدث ان وُجدتُ مرة الى مائدة الاباء، فماذا افعل يا ابت؟

فقال له:

بادر الى الصلاة لا الى الصوم.

فقال الأخ:

وهل استطيع ان اصلي اذا كان الاخوة يتكلمون ؟

فقال الشيخ:

غَصْبُ النفس هو رفيق الراهب الحقيقي.

ومن لا يفعل هكذا، لا اراه يستطيع ان يبقى راهباً.

الفصل الثاني

في الرجاء بالله :

الرواية التالية مستقاة من حياة البار ثيوذوسيوس رئيس دير الشركة.

عندما تأسس دير القديس ثيوذوسيوس رئيس دير الشركة في فلسطين، كان على درجة كبيرة من الفقر بحيث انه لم يكن فيه الضروري لحياة الرهبان.

وذات يوم، لما حان وقت الطعام، وكان السبت العظيم المقدس، وكان الرهبان يتهيأون لاستقبال الفصح المجيد، بحثوا في كل مكان من الدير عما يؤكل، فلم يجدوا. وبحثوا عن قربانة من اجل المناولة، ولكن عبثاً. فقال الرهبان لرئيس الدير:

هذا الوضع يبلغ حدود الحرمان يا ابانا. اما هو، فكان يستمع لهم بهدوء كما لو ان القصة تتعلق بمكان غريب وبعيد لا علاقة له بديره. فقال الاخوة:

عبثاً نبحث عن تعزية يا ابانا. اما البار، فتظاهر وكأنه لم يسمع شيئاً مما قالوا. ثم قالوا له مجدداً:

وهل ضعفت القوة التي اعطت الناس المن في البرية، واشبعت بالخبزات الخمس، الآفاً من الناس؟

فتعجب الاخوة من هدوء البار ثيوذوسيوس، لكنهم لم يقولوا شيئاً.

ولما صارت الشمس في كبد السماء، قُرع باب الدير. ففتح الراهب المسؤول ليجد نفسه امام جملين محمّلين ينتظران التفريغ. فقال المكاري: بينما كنت متوجهاً الى دير مجاور لديركم، توقفتْ الجمال ولم تعد تتحرك. فقلت في نفسي: لعل الله يريدني ان افرغ حمولة الجمال

عندكم. وهكذا كان. فالحمولة التي افرغت في الدير، كانت تكفي لما بعد العنصرة، ولم يعد يعوزنا شيء لجهة اقامة الذبيحة الالهية.

فقال رهبان الدير:

عظيمة قوة الرجاء. ثم شكروا الرب الذي اعطاهم البار ثيوذوسيوس اباً ورئيساً.

واليكم الآن ما يقوله القديس افرام السرياني للراهب:

يا اخي، اذا حدث ان مرضتَ، لا تكتب لأقاربك ومعارفك واصدقائك كي يرسلوا لك الدواء والطعام. لأنك بهذا تتعلم ان تحتكم الى الحماية البشرية. وهذه الحماية هي ميّتة على كل حال. انما اجعل رجاءك كله على الرب. واصبر منتظراً رحمة الله التي تدبّر لك كل شؤونك. فالذي سمح، لمنفعتك الروحية، ان تصاب بالمرض، هو الذي - بكل يقين - يعتني بك. ويقول الكتاب انه لا يسمح لك ان تُجرّب فوق الطاقة. لذا بادر الى ارضاء من يُعنى بك في كل شيء.

ويقول القديس افرام نفسه:

اعرف اخاً عندما يمرض ويتألم، كان الاخوة يرغمونه على العمل. وكان يشعر بالتعب الجسدي الشديد، لكنه كان في قلايته فقط يبكي متضرعاً الى الله كي يهبه الصحة. وكان يقول في صلاته:

يا رب اعلم انك اعطيتني مرض الجسد لشفاء نفسي. ولكن كي لا اكون عالةً على اخوتي، اسألك متضرعاً يا ايها المحب البشر، ان تشفي نفسي وجسدي.

وكان كل يوم يصلي هكذا، ويعمل بكل قوته بدون تأفف. والله الذي كان يرى تقواه، وثبات رجائه، وهبه الصحة التي اراد.

يقول احد الشيوخ ان القديسين الذين جعلوا الله في قلوبهم، يفوزون بما هو ههنا، باللاهوى، اما التي هناك، فيرثونها، لأن هذه وتلك هي ملك لله. فلما كان الله لهم، فإنهم ينعمون بما هو لله.

اما الذين جعلوا العالم في قلوبهم، واعني بذلك الاهواء الاثيمة، فهؤلاء حتى ولو فازوا بكل العالم، فإنهم في الحقيقة لا يملكون شيئاً سوى الاهواء التي تستعبدهم.

يقول القديس افبرابيوس:

اذا كنت تؤمن حقيقة ان الله كلي القدرة، وصادق، فاجعل رجاءك فيه فقط، وكن على يقين انك سترث كل خيراته.

- قرر الأب موسى مرة ان يقيم في مغارة بعيدة. وبينما كان متجهاً اليها قال:

حسنة هي كل الخيرات، ولكن اين سأجد ماء في هذه البقعة القاحلة؟ فكان يردّد هذا القول مرات ومرات، وبدأت ثقته تتزعزع.

وفجأة سمع صوتاً خافتاً يقول:

تقدمْ بدون اهتمام، واتركْ الباقي لي.

فتشجّع وأقام في تلك المغارة. وبعد ردح من الزمن، قام ناسكان وتوجّها لزيارته، ولم يكن عنده قطرة من الماء يسلق بها العدس من اجل واجب الضيافة. فاضطرب، وراح يذهب ويجيء داخل المغارة وهو يتضرع الى الله كي يعطيه ماء.

وفجأة شاهد سحابة تتحرك في السماء حتى وقفت فوق المغارة وانزلت كل حمولتها من المطر، فملأ كل اوعيته.

اما الناسكان فلم يكونا يعلمان بما جرى، فقالا له:

كنا نراك في الصباح تروح وتجيء والقلق يعلو وجهك، فماذا كان بك؟

قال لهما:

كنت في جدال مع الله. فقد ذكّرته انه وعدني بالاهتمام بي، فلم يكن عندي قطرة ماء. وقد اجبرت الله ان يرسل الي ما كنت بأمسّ الحاجة له.

- اعتاد احد المسيحيين ان يزور شيوخ الاسقيط بانتظام كي ينتفع من تعليمهم وارشاداتهم. وذات يوم صادف شيخاً مريضاً، فاشفق عليه واراد ان يترك له كل ما عنده من المال من اجل حاجاته.

لكن الشيخ ابى ان يأخذه، وقال:

احتفظ به يا اخي لأنك ستكون بحاجة اليه. فأنا مريض منذ ستين سنة، والى الآن لا يعوزني شيء. فالذي يعتني بنا على الدوام، يرسل لي ما انا بحاجة اليه. أوتأتي الآن كي تطرد المحسن الي ؟ قال الشيخ هذا وهو لا يريد بأي شكل من الاشكال ان يقبل المال من الزائر المحب.

- قال الأب سلوان:

انا عبد لمجد الله. والله يحميني ويقول لي:

اعمل ما هو مطلوب منك وانا اعولك. اما كيف، فهذا لا يعنيني. لذا فأنا اعمل واعيش من اجرتي وتعبي. واجرتي هي رحمة الله.

- كان عند احد القرويين المسيحيين بستان صغير كان يزرعه. وكان يحتفظ من ثماره بما يحتاج اليه كي يعيش فقيراً. اما الباقي فكان يوزعه على الفقراء.

وذات يوم اراد ابليس ان يمنعه من عمل الخير، فأخذ يبذر الزؤان في نفسه وذهنه ويقول:

وفّرْ بعض المال لشيخوختك، فقد تمرض ولا يكون عندك ما تعول نفسك به. فراقته الفكرة. فقام يوّفر مما كان يوزعه على الفقراء. ومع الوقت، ملأ صندوقاً ذهباً. فقام وطمره في حفرة جعلها في البستان وذلك مراعاة منه لشيخوخته.

وفجأة حل به مرض شديد وأنتنتْ قدمه. فقام ونقب الحفرة واخرج المال لينفقه على الدواء والاطباء، ولكن عبثاً. وساءت حالة قدمه وقرر الاطباء ان يبتروها.

وقبل يوم واحد من موعد العملية، حمل الصندوق الى فراشه وراح يعدّه

المرة تلو الاخرى، وكان يفكر انه سيدفع كل مدّخراته للاطباء كي يبتروا له ساقه. فبدأ يندم لأنه جعل كل رجائه بماله لا بالله. فتضرع الى الله من كل قلبه كي يسامحه على ما فعل. وبينما كان يصلي، وهو يبكي، وقف امامه الملاك الطاهر، وقال له:

ان الاموال التي وفّرتها من الصدقة على الفقراء، هل كانت نافعة لك في محنتك؟ قال الملاك هذا الكلام بنبرة قاسية.

فقال الرجل:

كلا يا سيدي، انا اعرف اني اخطأت. ولكن اذا سامحتني، فلن اعود الى الخطأ نفسه بعد اليوم، فالرجاء بالله هو الأكيد والثابت. قال الرجل هذه الكلمات والألم يعتصر قلبه.

فدنا منه الملاك ولمس قدمه فتعافت .

وعند الصباح، جاءه الاطباء مع كل معداتهم، فوجدوه معافى سليما، وكان قد انطلق باكراً كي يعمل في حقله من جديد.

الفصل الثالث

١- في الإيمان :

- كان البار بنيامين الناسك في جبل النطرون، شديد الايمان بالله. فقد امضى سبعين سنة في الصحراء عاكفاً على الصلاة والنسك، فأعطاه الله مواهب روحية عظيمة. وكان يطرد الارواح الشريرة ويشفي كل الامراض.

وقبل شهور من رقاده، حلّ به مرض رهيب، فكان جسده ينتن، وكان المشهد مريعاً. وكان الاخوة الذين يزورونه يُشيحون وجوههم فلا ينظرون اليه، لأنهم كانوا يشعرون بشيء من الحزن من جراء النظر اليه. اما هو فكان بدل ان يتأفف منهم، يعزّيهم ويقول:

صلوا يا اخوتي كي لا يمرض الانسان الداخلي، فالجسد لا يمكنه ان يسيء للنفس، وليس بمقدوره ان يلحق بها الضرر. والملفت للانتباه انه حتى ساعته الاخيرة، كان يشفي كل المرضى الذين يؤمونه في القلاية.

- مضى احد الرهبان للاعتراف لدى احد الشيوخ، وكلّمه عن امور كثيرة. ومما قاله، كان السؤال التالي:

لماذا اجد نفسي يا ابت كثير الميل الى الكسل ؟

فقال له الشيخ:

يعوزك الايمان كي ترى الله في كل شيء. لهذا فأنت تتكاسل وتتوانى عن خلاصك.

- تجمّع بعض الاخوة في الاسقيط حول بعض الشيوخ ليسمعوا منهم كلمة روحية.

فطرح احد الأخوة السؤال التالي:

لماذا لا تنجذب النفس الى وعود الله، بل يكون شوقها الى اباطيل العالم؟

فقال أحد الشيوخ:

لأنه ليس عند النفس ايمان بالله. فالنفس التي تذوق الخيرات السماوية بالايمان، لا يمكنها ان تنجذب نحو اباطيل العالم.

- يقول القديس اسحاق السرياني:

يعاني الجبان من مرضين نفسيين : قلة الايمان، ومحبة الجسد. فمن يجاهد كي يغلب هذين الشرين الكبيرين، لا بد انه متمتع بايمان عظيم بالله، ومستعد ان يقبل كل السيئات التي يرسلها ذاك .

والشجاعة العظيمة، وازدراء الاخطار، يتولّدان، اما من ايمان عظيم بالله، او من قساوة قلب الانسان. لكن قساوة القلب يعقبها الكبرياء، اما الايمان فيعقبه التواضع.

- ذات يوم ارسل الأب دوروثيوس الطيبي تلميذه كي يحضر بعض الماء من البئر. فلما كان التلميذ يرفع الحبل، وجد افعى سامة، فترك جرته ومضى الى الشيخ، وقال له:

يا ابت لقد انتهينا، فالماء مسمم، وقد رأيت افعى داخل البئر. فقال له الشيخ: حتى ولو ملأ الشيطان البئر بالافاعي، فلن تموت من العطش.

قال هذا وهو يُشيح نظره عن تلميذه الجبان.

بعد ذلك قام هو نفسه الى البئر يحمل جرته، وعاد منه يحمل الماء. ثم رسم اشارة الصليب وشرب هو اولاً. وبعدها دفع الماء الى تلميذه كي يشرب.

واخيراً قال لتلميذه:

حيث يكون الصليب، لا مكان لشرور العدو.

- عندما كان الراهب لوط شاباً وقليل الخبرة في الحياة الروحية، كان ابوه الشيخ يوسف يقول له:

لن تصبح راهباً صالحاً الا اذا كنت تحفظ في قلبك جذوة الايمان، وهذه وحدها تنير قلبك كي تحتقر الامجاد والراحة. فالجذوة هذه ستجعلك تقطع مشيئتك، وتحفظ كل الوصايا الالهية.

قال احد الآباء النساك:

المسيحي المؤمن يسير في طريق الله مرغماً نفسه على تجنب الشرور، نحو عمل الخير. ومثل هذا هو انسان معترف.

٢- في الصبر :

انطلق احد الرهبان في الجهادات الروحية بحماسة عظيمة، فحلّت به التجربة التالية: ذات يوم عندما كان يهمّ بالصلاة، اصابته قشعريرة، وآلام حادة في الرأس، وحمى. فراح يقول لنفسه:

انا مريض ولا شك اني سأموت.

لذا علي ان ابذل كل ما بوسعي، كي انهي صلاتي واستعد لصوت الرب. بهذه الافكار كان يغصب نفسه كي ينهي صلاته كل يوم. وكان يمرض من جديد عندما تقترب ساعة الصلاة، فكان يستحضر ذكر الموت، ويرغم نفسه كي لا يتوانى عن واجباته. فلما رأى الله صبره، اعتقه من التجربة التي كانت تعذبه.

- مضى احد الشيوخ لزيارة الأب اشيل، فرآه يبصق دماً. فسأله: وماذا اصابك يا اخي ؟

فقال رجل الصبر:

لقد حل بي ما تراه انت الآن. انها كلمة الأخ التي ازعجتني قبل حين. وقد جاهدتُ كثيراً كي لا اجيبه بكلمة. وتضرعتُ الى الله ان ينتزع المرارة

من نفسي. وها قد تحولتِ المرارة الى دم دفعته الى خارج مع كل الحزن الذي في قلبي.

- جاع احد الشيوخ في الصباح، فقال لنفسه:

الا يأكل الرهبان في الصباح؟ ثم قال:

لماذا لا انتظر حتى الساعة الثالثة (٩ صباحاً). وعند التاسعة صباحاً، ارجأ الاكل حتى الثانية عشرة. وعند الثانية عشرة، رطّب خبزاته وقال لفكره:

لنقمْ ببعض الصبر، ريثما تحين الساعة الثالثة بعد الظهر. وعند غروب الشمس، قام للصلاة والجلوس الى مائدة الطعام، فرأى قوة الشيطان -الذي كان منذ الصباح يجرّبه بالجوع- تخرج من فمه كالدخان. للحال انعتق من شهوة الأكل. وبطبيعة الحال لم يأكل.

- الزمَ احدُ الشيوخ الكبار نفسَه ان لا يشرب الماء طيلة اربعين يوماً. ولم يكتف بذلك، بل عندما كان الحر يلهب احشاءه، والعطش يجففها، كان يغسل كوب الماء ويملأه ماء من النبع ثم يجعله امامه. فسأله احد النساك الذين يقيمون في الجوار:

ولماذا تفعل هذا يا ابت ؟

قال له البطل الشجاع:

اني افعل ذلك، كي اروّض نفسي على الصبر.

- قال احد النساك الكبار لتلاميذه:

نحن لا نتقدم اليوم في الفضيلة، ولن نصل الى قامة الاباء القدماء، لأننا لا نملك الصبر لاتمام العمل الذي نبدأه. فنحن نطلب المواهب بدون تعب، لهذا ننزلق سريعاً الى الشر. وتارة، وبدون سبب، نبدّل مكان اقامتنا كما لو كنا نود ان نجد مكاناً لا وجود للشيطان فيه.

- وهو نفسه قال مرة :

ان من يجاهد بقوة، ثم ما يلبث ان يعود الى التواني، ثم يعود من جديد الى الجهاد بقوة، ثم يعود الى الفتور، لا يمكنه ان يحوز الصبر.

ومثل هذا الانسان، لا تتوقع منه البتة ان يحوز الصبر يوماً او يتقدم.

- سمعت القصة التالية من الأب كرونيوس تلميذ الأب انطونيوس الكبير عن الأب بولس البسيط :

كان بولس هذا قروياً بسيطاً. ولما تقدّم في الايام، تزوج امرأة شابة وجميلة، لكن سيرتها كانت غريبة عن الايمان والفضيلة، وكانت تخونه مع قروي من ابناء الحي، ولم يكن بولس ليشك بها في يوم من الأيام. وذات يوم انفضح امرها، وعلم هو بذلك، لكنه لم يتصرف كما كان سيفعل اي زوج في مكانه. فقال للزوجة الفاسقة والابتسامة تعلو وجهه: حسناً، والله شاهد على ما اقول، لا يهمني شيء مما حصل. فأنا لن اعرف امرأة بعد اليوم. وسوف اشق طريقاً خاصاً بي. قال هذا وغادر المنزل متوجهاً الى الصحراء.

وبعد مسيرة ايام، في قلب الصحراء، وتحت لهيب الشمس المحرقة، وصل الى جبل القديس انطونيوس، ولم يجد صعوبة في التعرف على قلايته. فلما وصل، قرع باب القلاية بلطف شديد. فقام انطونيوس وفتح له الباب. ففتح بولس فمه، وبكلمتين فقط، اخبره القصة بكاملها، وقال له:

اريد ان اصبح راهباً.

لكن انطونيوس قال له:

جاء قرارك متأخراً كثيراً. فأنت في سن، لا يسمح لك ان تصبح راهباً، سيما في مثل هذه الصحراء القاحلة. قمْ وعدْ الى بيتك، واعمل كي تعيش وانت تشكر الرب.

فرجاه بولس ان يحتفظ به عنده، وقال له:

اعدك بأن افعل كل ما تطلبه مني.

فقال له انطونيوس:

اقول لك للمرة الثانية: انك عجوز، ولا تستطيع ان تحتمل اتعاب الصحراء. لكن اذا كنت تُلح علي، فاذهب الى دير تكون حياته اقل شظفاً وأقل قساوة مما هي عندي. وكما ترى انا انسك لوحدي، وآكل مرة كل خمسة ايام دون أن اشبع، فقط آكل كي اظل على قيد الحياة.

بهذه الكلمات وغيرها حاول انطونيوس ان يريح الزائر المتألم. اما ذاك فلم يكف عن الكلام، وراح في كل مرة يُصر بالحاح راجياً انطونيوس ان يستبقيه عنده. ولما ادرك انطونيوس انه لم يستطع ان يثني بولس عن موقفه، دخل الى قلايته واغلق الباب تاركاً الشيخ بولس في العراء علّه يرغمه على الرحيل.

ومرت ايام ثلاثة وانطونيوس في الداخل، وبولس في العراء ينتظر وهو يجلس على صخرة. وفي النهاية فتح له انطونيوس الباب، ولشدة دهشته لاحظ ان بولس لم يبارح مكانه ثلاثة ايام لا يتحرك. فأعجب به وقدّره، لكنه لم يظهر له حقيقة شعوره، بل قال له:

عدْ الى بيتك يا مبارك، ولا تعدْ تزعجني بعد اليوم، فأنا لا استطيع ان اقبلك معي. لكن الأخ القروي صار شديد العزيمة وثابت القرار، فقال للقديس انطونيوس:

لن اغادر هذا المكان. اما ان تقبلني في قلايتك، او ابقى ههنا حتى تلتهمني وحوش البرية. ولم يعد القديس انطونيوس يحتاج الى ما يبرهن له صدق الأخ القروي، فقد ثبت له بأم العين، ان الرجل صمد خارج القلاية ثلاثة ايام لا يأكل ولا يشرب. فخاف الأب انطونيوس ان يموت الرجل من الجوع، او ان يصيبه مكروه فيعذبه ضميره. فقال له:

ادخل، فدخل. فأجلسه في ركن من اركان القلاية، واعطاه بعض الخوص كي يحيك الحبال.

وراح الرجل يقوم بعمل اليد صائماً وواقفاً على قدميه لا يكل ولا يمل. ولم يكن قد سبق له ان مارس مثل هذا العمل. وفي النهاية، قال له الأب انطونيوس:

يا لها من حياكة رديئة لا دقّة فيها. في الحقيقة انك لا تصلح لشيء. فلماذا تجلس ههنا ؟ قم واغرب عن وجهي، ومارس عملاً آخر.

اما بولس فلم يفتح فاه، ولم يبرر عمله. بل طلب بهدوء لو ان انطونيوس يمنحه فرصة اخرى لعمل افضل.

اما القديس انطونيوس الذي سخر منه، ولم يمتدحه على عمله، فراح يراقبه من بعيد، الى ان تيقّن من فضيلته. فهو لم يتأفف، ولم يتذمر، ولم يضق صدره ذرعاً من ملاحظات انطونيوس. وهكذا حاز بولس في النهاية على اعجاب انطونيوس به.

ولما غابت الشمس، قرر ان يطرح عليه سؤالاً كان يجول بفكره، فقال له: اتود ان تتناول خبزة لسد جوعك يا جدي؟ قال هذه العبارة بتودد وممازحة.

فقال الأخ بولس:

اذا كنت تسمح بذلك يا ابت.

ففكر انطونيوس في نفسه وقال:

له بضعة ايام لم يضع في فمه شيئاً، ومع ذلك لم يظهر جانب التأفف والجوع. فقال له : اعدّ لنا المائدة.

فقام بولس ليعد المائدة.

فوضع انطونيوس بضعة خبزات، واحدة له وثلاثاً لبولس.

وقبل ان يبدأ الطعام، قام القديس انطونيوس وشرع يصلي ببطء شديد، وذلك ليتابع اختبار بولس. فتلى اثني عشر مزموراً، وكان يراقب بولس خلسة. الا ان ذاك راح يصلي بعمق شديد.

وعندما جلسا لتناول الطعام، كان الليل قد ارخى سدوله.

تناول انطونيوس خبزته بسرعة، وراح ينتظر بولس. فتناول بولس خبزة واحدة مكتفياً بها.

فقال انطونيوس:

كُلْ يا جدي الخبزات الاخرى.

فقال الأخ بولس:

اذا اكلتَ انت، سوف آكل انا.

فقال انطونيوس:

واحدة تكفيني، لأني راهب.

فقال بولس:

وانا ايضاً تكفيني واحدة، لأني اريد ان اصبح راهباً مثلك.

وبعد العشاء، راح انطونيوس يتلو مجموعة من المزامير. ثم اضاف اليها مجموعة من الصلوات. وبعد ذلك توجّه كلاهما الى ركن من القلاية لبعض الراحة. وعند منتصف الليل، قاما لمتابعة الصلاة حتى الصباح.

ولما لاحظ انطونيوس ان بولس كان يضارعه في كل شيء، رغم اختباراته له، قال لبولس:

اعتقد يا اخي انك بدأت تفهم الآن كيف اعيش في قلايتي. فإذا كنت ترى نفسك قادراً على هذه السيرة، يمكنك ان تعيش معي.

فقال بولس:

لا اعرف يا اخي ان كان عندك ما تكشفه لي. فمما رأيتُ، اعتقد انني قادر ان اعيش معك بسهولة. فأعطاه انطونيوس بعض الخوص. وبعد ذلك اوعز اليه ان يعيش بمفرده في قلاية مجاورة كي يختبر تجارب ابليس فيشتد عوده ويصبح اهلاً للجهادات الروحية.

فقام بولس وتوجه الى قلاية اخرى ليبدأ جهادات حقيقية هي فوق قدرة اللحم والدم على الاحتمال. وفي النهاية استطاع بصبره وتواضعه ان يبلغ درجات عالية من الفضيلة، وان ينال من الله مواهب عظيمة، فيشفي امراض النفس والجسد، ويطرد الارواح الشريرة.

وذات يوم احضر بعض الناس شاباً كان يعذبه الشيطان، الى قلاية الأب انطونيوس، وطلبوا اليه ان يشفيه. فأرسلهم انطونيوس الى الأب بولس، وقال لهم:

ذاك عنده النعمة من الله ليطرد الارواح الشريرة. ولكي لا يصدّهم بولس، قام انطونيوس نفسه واقتاد الشاب الى قلاية بولس، وقال له:

يا ابانا بولس، اعتق خليقة الله هذا من سلطة الشيطان، ليمجدك طيلة حياته. بعد ذلك، وقف بولس وقال لأنطونيوس:

لماذا لم تستطع انت ان تشفيه يا ابت؟

فأجاب انطونيوس، وكأنه يحاول ان يبرر نفسه، وقال:

ليس عندي متسع من الوقت. قال هذا، وغادر على عجل.

فتطلع بولس الى الشاب المعذّب الذي كان امامه، ووقف وتوجه نحوه، وراح يخاطب الشيطان فيه قائلاً:

الأب انطونيوس يأمرك ان تخرج من هذا الانسان ولا تعود تدخل فيه. فثار غضب ابليس وبدأ يصرخ ويلعن ويشتم انطونيوس. اما بولس فأمسك بمعطف كان قد اعطاه له انطونيوس، وراح يضرب به ظهر الشاب بلطف ويقول:

ابت انطونيوس يأمرك ان تخرج منه. ثم رفع يديه الى السماء وقال:

يا رب، انت تعرف كيف اتخذتُ قراري في ان اصبح راهباً. لذا فإني لن اغادر الصخرة التي اقف عليها الآن حتى تعتق جبلتك من سلطان ابليس. فأثمرت صلاته، لأن ابليس بدأ يصرخ وكأن قوة عظيمة كانت تجلده، ثم قال:

سأغادر الشاب، لأن صلاة بولس غلبتني. بهذه الكلمات انعتق الشاب من سلطان ابليس، وعاد سوياً.

- والأب افرام السرياني ينصح الآباء الروحيين ان لا يصدّوا الطاعنين في السن عندما يبدون اللهفة والرغبة في ان يعيشوا رهباناً، فيقول:

لا تحتقروا الشيوخ عندما يتوقون الى اتعاب النسك. الرب نفسه لم يحتقر الذي تعب عند الساعة الحادية عشرة. ومن يدري، قد يكون بعض هؤلاء آنية مختارة.

- شعر احد الشباب انه يتوق الى الرهبنة، فترك العالم ودخل الى عمق الصحراء بحثاً عن اب روحي يخضع له ويطيعه ويسترشد عليه. وحط به الرحال في تلك الصحراء الواسعة عند قلاية يعلوها برج، فقال في نفسه: ان من اجده داخل هذه القلاية، سأقيم عنده واخدمه طوال حياتي. فلما وصل، قرع الباب، ففتح له شيخ جليل طاعن في السن، وقال له:

ماذا تريد مني يا اخي؟ فقال الشاب:

كنت في مسيرة طويلة، وقد وصلت اليك.

وكان الليل قد ارخى سدوله، فاضطر الشيخ ان يستقبل الأخ خوفاً عليه من وحوش البرية. وبعد ان دخلا، قال له الشيخ:

هل تبحث عن شيخ تسترشد عليه؟

ثم قدم له شيئاً يأكله.

قال الأخ:

كلا، انما اتيت لكي اعيش معك.

فاهتز الشيخ لسماع هذه الكلمات، وقال في نفسه:

وهذا كان ينقصني الآن. ثم بادر تواً الى القول للشاب سيما انه كان قد عاش ردحاً من الزمن يساكن امرأة الاثم والخطيئة:

يا اخي اذا كنت تريدني ان اسدي لك النصح، قم وابحث عن دير تقيم فيه. فأنا لا استطيع ان ابقيك عندي لأني اساكن امرأة.

قال الأخ : هذا لا يهمني يا ابت، فقد وعدت الرب وانا في طريقي اليك، انني سأقيم بقربك اخدمك حتى الموت. وهكذا كان. وعاش الأخ في خدمة الشيخ بكل خدمة وتفانٍ.

وذات يوم،قال الشيخ للمرأة:

لا تكفينا خطيئتنا، بل زيد عليها مجيء هذا الشاب الينا. لنهجر القلاية وننتقل الى اخرى.

وعند جنح الظلام، قاما وغادرا المكان خلسة. ولم يكونا قد ابتعدا، عندما لمحا الشاب يجري وراءهما للحاق بهما. وعندما وصل، قالا له: حتى متى انت وراءنا؟ قالا هذا وهما مضطربان. ثم قالا:

احتفظ بالقلاية وخلصّ نفسك. ولكن اتركنا لشأننا.

فقال الشاب:

لم آت من اجل القلاية، بل اتيت الى ههنا لخدمتك يا ابت. فقد وعدت الله بذلك. لذلك فإني سأتبعك حيث تمضي.

اعادت كلمات الأخ الانسحاق الى قلب الشيخ، لأن طهارة الشاب بيّنت له اعوجاجه وخطيئته. فقام وطرد المرأة من حياته، وعاد الى قلايته انساناً جديداً. اما المرأة فتابت، وغيّرت سيرتها. وهكذا، استطاع الأخ بصبره ان يربح للمسيح خروفين : الشيخ والمرأة بآن.

- خرج الأب نثنائيل الى البرية فتى شاباً قليل الخبرة في الحياة الرهبانية. فوجد قلاية قديمة اقام فيها بداعي حماسته وغيرته، وبدأ الجهاد بمفرده. وكان يقضي اسابيع كاملة دون ان يأكل او يشرب شيئاً. وفي النهاية، قرر ان يترك القلاية ليقيم في مكان ابعد كي يكون على مقربة من قلالي الشيوخ.

وفي الليلة الاولى التي امضاها في قلايته الجديدة، لاحظ صوتاً لم يكن يألفه من قبل كان يصدر من سقف القلاية. فخرج ليرى ما الامر، فوجد نفسه بغتة امام رجل في زي عسكري قديم كان يمسك بيده عصا لعلها كانت مصدر الضجيج الذي سمعه الراهب. فقال الراهب للغريب:

ومن انت يا اخي؟ لماذا لا تتركني اعيش بهدوء في مثل هذه الساعة؟

فقال الغريب:

ألم تعرفني بعد يا ابت؟ انا الذي حرّضك على ترك قلايتك الاولى، وها انا استعد لأخرجك من هذه ايضاً.

فقال نثنائيل:

الويل لك يا نثنائيل لقد اصبحت موضع سخرية واضحوكة للشياطين.

وفي صبيحة اليوم التالي، قام بدون تردّد وعاد الى قلايته الاولى التي كان قد تركها، فأقام فيها الى نهاية حياته محتملاً الاتعاب بصبر مع التجارب وكل هجمات العدو.

- ذات يوم، سخر ابليس من الأب مكاريوس الاسكندري، واراد ان يخرجه من قلايته ليعود الى العالم، فقال له:

لما كنت تتمتع بهذه المواهب كلها، من الله، وتشفي امراض جميع الناس، فلماذا لا تذهب الى روما حيث تبدو اكثر نفعاً للناس؟

فأدرك رجل الله زؤان المجد الباطل، وعمد الى استئصاله تواً. وذات يوم ازعجته افكاره كثيراً جداً، فقام واستلقى عند باب قلايته، وقال وهو يصارع ابليس:

جرّني بعنف اذا كان عندك قدرة وسلطان على ذلك. فأنا بارادتي لن ابارح هذه القلاية.

ومرة اخرى حاربته افكار متعبة للغاية، فقام وحمل كيساً من الرمل راح يطوف به في تلك البطاح حتى طلعت شمس الصباح. فصادفه الأب ثيوفيلس، فقال له:

ولماذا تحمل هذه الرمال يا ابت؟

اجابه الأب:

انني اسخر ممن يحاول ان يسخر مني (أي ابليس). لقد وجدت راحتي في البرية، وها هو الآن يحاول ان ينتزعني من ههنا، ويحرّضني على الرحيل.

وهكذا، استطاع هذا الأب بصبره وجهاده ان يبعد عنه الافكار المزعجة.

- سقط احد الرهبان المبتدئين في الكسل والتواني، فقام وذهب الى الأب مكاريوس الناسك ليعترف له بخطيئته، وقال له:

ان فكري يحرّضني على مغادرة قلايتي، لأنني حيث انا، لا اقدر أن أسدي خدمة لأحد. فأرشده الأب مكاريوس، وقال له:

عندما يهمس لك فكرك بهذه الكلمات، بادره، وقل له:

سأبقى ههنا طوال حياتي حباً بالمسيح. لا بل سأقبّل كل يوم جدران القلاية الاربعة.

- قال احد الشيوخ لأحد الرهبان المبتدئين:

اذا اخفقت يا اخي في انجاز عمل بدأته في قلايتك، فلا تدع ابليس يسخر منك بحجة أنك ستفلح في مكان آخر.

- واجه احد الرهبان عشرات التجارب في المكان الذي بدأ جهاده فيه. وذات يوم خرج عن طوره، وعيل صبره، فقرر مغادرة المكان بحثاً عن هدوئه في موضع آخر .

ولما كان يهم بربط شريط حذائه استعداداً للرحيل، وجد امامه انساناً آخر راح بدوره يربط حذاءه استعداداً للرحيل.

فسأله : ومن انت؟

قال : انا هو من يسعى لاخراجك من ههنا.

فقال الراهب:

ولماذا تفعل ما افعله انا؟

فقال : كي ارافقك الى حيث تمضي.

فأدرك الأخ حقيقة المسألة، وقرر البقاء في قلايته مجاهداً بصبر الى ان غلب كل تجاربه بنعمة الله.

- قال احد الشيوخ :

الشجرة التي تُنقل من مكان الى آخر، لا تأتي بثمر. كذلك فالراهب الذي يفقد صبره، ويغيّر مكان سكناه، لا يمكنه ان يتقدم في الفضيلة .

- اعترف احد الرهبان الى رئيس الدير بأن افكاره تزعجه و تحرّضه على الرحيل، وقد سئم التجارب.

فأعطاه الشيخ النصيحة التالية:

اغلق على نفسك داخل قلايتك، ولا تجعل جسدك يبارح المكان. اما فكرك، فاتركه يفعل ما يشاء، ولا تبالي به.

- قال احد الشيوخ:

قلاية الراهب هي اتون الفتية الثلاثة الذي فيه وجدوا ابن الله. كذلك فإن القلاية هي عامود النار الذي منه خاطب الله موسى.

- قال احد الرهبان:

لقد عذّبني فكري طيلة تسع سنوات وهو يحرّضني كي اغادر الدير. فكان كل مساء يجمع هذا الراهب امتعته ويقول لنفسه:

غدا سأغادر.

وعند طلوع الشمس كان يقول:

ولماذا لا اصبر قليلاً، حباً بالمسيح، على ان اغادر صباح غد؟

وهكذا جاهد جهاد الدم طيلة تسع سنوات ضد افكاره، فغلبها، لأن الله اعتقه منها.

- وراهب آخر حاربه فكره وكان يحرّضه على ترك الدير، لكنه كان يصدّه بشجاعة. وذات يوم حاربه بقوة تفوق قدرة البشر، فقام وامسك بورقة وقلم وجعل يدوّن عليها كل الاسباب التي دفعته الى ترك الدير. وفي اسفل الصفحة بدا وكأنه على رضوخ للتجربة، فكتب يقول: يا رب، بنعمتك اعدك بالصبر على كل هذه التجارب. وباسمك سأقبل واصبر على كل تجربة ومكروه.

ثم انهى الكتابة، بأن جعل اسمه في اسفل الصفحة. ثم خبأ الورقة داخل حزامه. وكان كل مرة يوعز له فكره بالرحيل، يقوم ويمد يده الى الورقة التي في جيبه فيخرجها ويفضّها ويقرأ: باسم الرب يسوع المسيح، قررت ان ابقى واجاهد ضد هذه التجارب. وكان يقول لنفسه:

انتبه لنفسك، لأن الوعد الذي قطعته، لم يكن مع نفسك، بل مع المسيح الكلي القدرة. وهكذا كانت نفسه تهدأ، وكان ينتصر على التجارب الاكثر ضراوة وعنفاً.

وذات يوم، رآه بعض الاخوة وهو يطوي الورقة التي دوّنها بيده، فتساءلوا وهم يشكّون بامره. ولكن مع الوقت فهموا ما كان يحصل له، ولم يعودوا يشكّون به. الا ان واحداً منهم، مضى الى الشيخ وقال له:

يا ابت، ان فلاناً من الاخوة هو ساحر، لأنني رأيته يخفي في حزامه كل الاعيبه وشعوذاته. وأنا لا استطيع ان اقبل ذلك. يكفيني ما اراه منه الى الآن. فإما ان تطرده من الدير، او ان عدداً من الاخوة سيتركون الدير الى غير رجعة، بسببه.

لكن الشيخ كان يعرف الراهب جيداً، ففهم الفخ الذي كان قد نصبه ابليس لهذا الراهب واخوته، فقال للجميع:

يا اولادي، صلّوا لهذا الراهب. وانا ايضاً سوف اصلي من اجله.

وبعد ثلاثة ايام نتخذ القرار الاخير بشأنه.

وفي تلك الليلة، بينما كان الأخ ينام بهدوء، انسلّ رئيس الدير الى

قلايته، ومد يده الى حزامه، واخذ الورقة، وطالعها جيداً، ثم اعادها الى مكانها.

وبعد مرور ثلاثة ايام، دعا جميع الاخوة، فضلاً عن الراهب المتّهم، وقال للأخ صاحب الورقة:

ولماذا اراك تُعثر اخوتك؟ (قال هذا وكأنه لم يعد يطيق رؤيته). اما الأخ فسقط على الارض عند قدمي الشيخ، وقال بصوت خافت جداً:

سامحني يا ابت لقد اخطأت. صلّ لأجلي كي يرحمني الرب.

ثم توجّه الشيخ نحو الاخوة وقال:

وماذا عندكم ضد هذا الأخ؟

قالوا:

انه ساحر، فهو يخبئ ورقة في حزامه.

فنظر اليه الشيخ وكأنه غير راض عنه، وقال له:

اخرج ورقتك وأظهر الاعيبك يا اخي.

فتسارع الاخوة محاولين ان ينتزعوا الورقة من حزام الأخ.

فحاول الأخ ان يمانعهم، فانقطع الحزام وسقطت الورقة الى الارض. فمد الشيخ يده وحمل الورقة واعطاها للشماس الواقف الى جانبه، وأمره ان يقرأها بصوت مسموع من منبر الكنيسة.

فبدأ الجميع يسمعون فحوى الرسالة. ولما وصل القارئ الى الجملة الاخيرة: باسم ربنا يسوع المسيح سأبقى اجاهد في هذا الدير، لم يعد الاخوة يعرفون ما سيفعلون لشدة خجلهم.

فتقدموا من الشيخ، وطلبوا السماح والغفران. ثم قاموا الى الأخ واعتذروا منه وبدأوا ينظرون اليه على انه قديس. أما هو فقد سبق له حقاً ان بلغ القداسة هذه بصبره وطول اناته.

- قال احد الشيوخ:

نحن كل يوم نحدّق الى صليب الرب ونتأمل في آلامه، ولكن لماذا لا نُبدي الصبر بازاء اصغر احتقار يلحقنا من الاخوة ؟

- وقال شيخ آخر: قابلتُ ذات يوم راهباً فقيراً تعوزه اكثر الضروريات للحياة، اعني بذلك اللباس والطعام. وكان شتاء، والبرد قارص لا يحتمل. وكان لدى هذا الراهب بساط مثقوب راح يستلقي على نصفه ويغطي جسمه بالنصف الآخر. والنتيجة كانت انه كان يتعذب طيلة ليالي الشتاء، فكان ينام وهو يرتجف من شدة البرد.

وذات يوم سمعه الشيخ وهو يحدّث نفسه ويشجعها ويقول:

اشكرك يا الهي على الخيرات التي منحتنيها. فكثيرون من اترابي في هذه اللحظة، مقيدون بالسلاسل، ومطروحون في اعماق السجون لا يستطيعون ان يقوموا بأية حركة. اما انا فأبسط قدمي وساقي وارتاح كملك.

- كان الأب اشعيا المتوحّد يردّد ويقول وهو يرشد احد الاخوة:

يا اخي: حذار من الضجر، لأنه قادر ان يبدّد اتعابك الروحية. واذا كنت تجاهد لتقطع دابر احد الاهواء في نفسك، لكنك لا تُفلح، فاضرع الى الله طالباً منه المعونة. وقل من كل نفسك : يا رب يسوع المسيح، لا استطيع بمفردي ان اغلب هذا الهوى. ساعدني انا الخاطئ. وبالصلاة تجد راحة لا محالة.

- وهو نفسه كان يعطي الرهبان هذه النصيحة المفيدة فيقول:

لا تعتادوا على التطواف في قلالي الاخوة، بل لازموا قلاليكم بمخافة الله، واجعلوا اذهانكم منكبّة على الصلاة ودراسة الكلمة. ولتكن ايديكم ممدودة ومنشغلة بعمل اليد. تجنّبوا كثرة الانشغالات. لا تجلسوا وتتفحّصوا ما يفعله الاخوة، حتى ولو كانوا يعملون اكثر او اقل منكم.

- عندما كان القديس انطونيوس الكبير شاباً قليل الخبرة، وقصير الباع في النسك والجهاد، سقط في الضجر. فكان يجاهد بمفرده في

اعماق الصحراء، ولم يكن له من يرشده، حتى ان افكاره بدأت تقلقه. الا انه لم يفقد الثقة بالله. بل كان يركع ويصلي الى الله ويقول:

يا رب، اريد ان اخلص، لكن افكاري لا تتركني. ليس لدي معين سواك، فعلّمني ماذا ينبغي ان افعل، ولا تتركني. فكانت الصلاة تريحه. وللحال كان يأخذ الجواب على سؤاله.

وذات يوم لما نهض، لمح في ركن القلاية الآخر، انطونيوس آخر مثله يشبهه جلس يحيك الحبال. فنهض وسار اليه، فرآه يترك عمل اليد ليصلي ويداه مرفوعتان الى السماء. ثم بعد ذلك، عاد وجلس يتابع العمل. ومن جديد نهض للصلاة. واخيراً التفت الشبيه الى انطونيوس وقال له: اعمل هكذا فتخلص. ولما قال هذا، توارى عنه. فأدرك انطونيوس ان الله ارسل ملاكه ليعلّم انطونيوس. فتشجّع وقام الى الجهاد من جديد بصبر وحرارة.

- سأل راهب احد الشيوخ وقال له:

لماذا يضربني الضجر يا ابت عندما الازم قلايتي مغلقاً على نفسي؟

فقال الشيخ:

يبدو انك لم تبدأ الهذيذ بعد، ولم تفكر بالراحة الابدية التي للابرار. كما ولم تفكر بالعقاب الابدي الذي يجنيه المتوانون. فإذا كنت تفكر هكذا بانتظام، لا يمكن ان تفقد صبرك، كما ولا يمكن ان تسقط في الضجر، حتى ولو امتلأت قلايتك بالدود، وارتفع حتى رقبتك.

- ذات يوم وضع راهب مجاهد شرطاً على نفسه ان لا يبارح قلايته منذ اليوم الاول للصوم الاربعيني المقدس وحتى يوم القيامة.

ومنذ اليوم الاول، راح ابليس يملأ قلايته بالبق على الجدران والسقف. وحتى الخبزات الجافة غطّتها هذه الطفيليات المزعجة.

لكن الأخ ابدى مقاومة عظيمة ضد هذه التجربة، وقال في نفسه: حتى لو اكلني البق لن اغادر القلاية.

وعلى هذه الحالة امضى ثلاثة اسابيع. وفي صبيحة اليوم الاول من الاسبوع الرابع، لمح في قلايته اعداداً هائلة من الذباب تنقضّ على البق وتطرده الى خارج. وهكذا انعتق الأخ من التجربة المزعجة.

- قال احد الرهبان المبتدئين للأب بيمن وهو يعترف له:

عندما الازم قلايتي وانا لوحدي، افقد صبري وأقع في الكسل. فماذا اعمل كي اصلح سيرتي واتخلص من حالتي هذه؟

قال له الأب بيمن:

جاهد كي لا تحتقر احداً من الاخوة. لا تتكلم ضد احد. ولا تفترِ على احد، فتملأك نعمة الله. وهكذا ترتاح وتجد سلامك وهدوءك داخل قلايتك.

- قال احد النساك لنفسه بينما كان شيطان الضجر يعذبه ويحرّضه على ترك القلاية والعودة الى مخالطة البشر:

لماذا تفقد صبرك ايها المجنون فتتنقّل هنا وهناك هائماً على وجهك؟ يكفي هذا دليلاً انك لا تصلح لشيء حسن. على الاقل قم الى تمجيد الله، ولا تُعثر احداً، ولا تُحزن احداً من الناس، وهم لا يعثرونك ولا يحزنوك. فكّر مِنْ كم من الشرور اعتقك الله في قلايتك. وقل لنفسك ان لا تسمع وشايات ضد احد، ولا ترى صوراً رديئة. والله قدير وحنون، وسوف يعتقك من اعظم التجارب.

بهذه الكلمات، تعلّم الناسك الكثير، فكان يقاوم هجمات العدو. ولما رأى الله صبره، اعتقه من الضجر بالكلية.

- سأل بعض الاخوة شيخاً عظيماً وقالوا له:

كيف له ان يحتفظ بصبره امام اعظم التجارب؟

فأجابهم قائلاً:

كل يوم يمر يا ابنائي، اجلس منتظراً موتي بكل يقين.

- نرى في سيرة العظيم باخوميوس مؤسس الرهبنة المشتركة انه هو نفسه كان يعمل ليساعد الاخوة. لكنه لما شاخ، مرض. وذات يوم بينما كان يعمل، ضربته قشعريرة ثم حمى، فأحضر له تلاميذه شيئاً يستلقي عليه. فانزعج باخوميوس من هذه العناية به. فنادى تلميذه ثيوذورس وقال له:

خذ هذا من هنا، وأتني بالبساط لاستلقي عليه كالاخوة. فقال له:

ولماذا يا ابت تفعل هكذا؟

فقال له باخوميوس:

الأني المتقدم بينكم، اتمتع براحة غير مألوفة؟ اني مثلكم لا اكثر.

- عاش الأب عمون زماناً طويلاً وهو طريح الفراش من مرض قضّه. واثناء مرضه لم يسمح لنظره ولا مرة واحدة ان يقع على القلاية المجاورة التي يعيش فيها تلميذه ويحتفظ ببعض الاطعمة التي تأتي من محبة الاخوة. وعندما كان تلميذه يأتيه بالطعام، لم يحاول الشيخ عمون ولو مرة واحدة ان ينظر ليرى ما هو وهكذا، كان يحمي نفسه من الشراهة. كذلك لم يطلب في يوم من الايام ان يأكل شيئاً كان يشتهيه، بل كان بمنتهى الشكر يقبل ما يأتيه به تلميذه. وكان يتناول كل شيء بشكرٍ سواء أكان يروقه ام لا.

- مرض الأب لونجينوس مرة، فتعجب الاخوة من الطريقة التي كان بها يربي نفسه. فقد كان يقول:

متْ يا لونجينوس، فأنت لن تأكل مرة قبل موعد الطعام.

- ذات يوم ارتقى احد النساك الكبار في الاسقيط، الى الدرجة الاسقفية. فحاول ان يعيش في العالم على نحو ما كان يسلك في القلاية، لكنه لم يفلح. فكان يقول لله في صلاته والدموع تنهمر من عينيه:

ألعلك بسبب هذه الدرجة (أي الاسقفية)، حجبتَ نعمتك عني؟

عندئذ كشف الله له انه عندما كان يجاهد في البرية، كانت النعمة تؤازره. ولكن بعد انتقاله الى العالم، صارت تعزية الناس سنداً له.

- تعرّض ناسك كبير الى امراض مؤلمة للغاية. ثم بعد حين تعافى سنة كاملة لم يعرف فيها طعم المرض، فشرع يقول لله بدموع:

لماذا هجرتني يا الله ولم تعد تفتقدني بالامراض؟

- يعطي الأب بيمن القيمة ذاتها للناسك الصالح، وللمريض الصبور، وللأخ الذي يقوم بخدمة اخوته من كل القلب.

- ذات يوم، مرض احد الشيوخ، ولم يكن له من يعتني به. فكان يُعدّ لقمته بصعوبة فائقة، وكان يشكر الله لأنه سمح بذلك. ومر شهر كامل لم يقرع بابه احد، ولم يكلمه احد. فرأى الله صبره، فأرسل له ملاكاً صالحاً يخدمه. في تلك الاثناء، فكّر بعض الاخوة بهذا الناسك العجوز، فقاموا وتوجّهوا الى قلايته ليروا ما به. وما ان قرع هؤلاء الباب، حتى غاب الملاك. فنادى الشيخ بما اوتي من قوة، وقال:

اسألكم يا اخوتي بمحبة المسيح ان لا تدخلوا.

الاّ ان هؤلاء فتحوا الباب عنوة ودخلوا ليروا ما به، وليفهموا منه السبب وراء كلماته، فقال لهم:

شهراً كاملاً لم يأت احد ليسأل عني، فأرسل الله ملاكه ليعينني. الا انكم بمجيئكم طردتموه من قلايتي. ولما قال هذا، رقد بسلام.

- قال احد الشيوخ الحكماء:

اذا حلّ بك مرض، فاصبر عليه ولا تتأفف. فاذا كانت ارادة الله ان يتعذب جسدك، فلماذا تتكلم؟ أليس هو من يعتني بك؟ ترى هل تستطيع ان تعيش برهة واحدة بدون عنايته؟ فاصبْر، وصلّ الى الله، كي يهبك ما هو ضروري لخلاص نفسك. لأن هذا هو ما يطلبه الله منك.

- قال احد الشيوخ:

عندما يعبّر الاخوة عن محبتهم لك في المرض، فيغدقون عليك الهبات، بادر الى شكرهم، وصلّ من اجلهم.

- سأل الأب مرقس البار ارسانيوس وقال له:

لماذا يغادر الافاضل والورعون هذا العالم في ضيقات وشدائد ؟

فأجابه البار وقال:

ان الضيقات للذين يقبلونها بصبر، هي ملح يجفف الخطايا فيجعل اصحابها يرتفعون انقياء الى السماء.

- نتعلم من بلاديوس الكثير عن الجهادات العظيمة، وعن صبر النساك في زمانه. ورواياته حية، لأنه رآها بأم العين، فقد كلّم الآباء القديسين عندما كان يطوف اديار ومناسك فلسطين وافريقيا.

- يقول بالاديوس بأن مكاريوس الأسكندري او المديني كما هو معروف، اراد ان يتميز عن مكاريوس المصري، فقام بجهادات مختلفة. فعندما كان يسمع عن جهادات احد النساك، كان يبذل كل ما بوسعه كي يقتدي به. فاستطاع بغيرته الروحية هذه، ان يفوق الجميع .

وذات يوم علم ان رهبان القديس باخوميوس لا يأكلون طعاماً مطبوخاً طيلة الصوم الأربعيني المقدس، فقام هذا، و قطع عهداً على نفسه ان لا يأكل مطبوخاً طيلة سبعة اعوام. فكان يتناول النباتات اذا توفرت له.

وقالوا له ذات يوم بأن ناسكاً يكتفي بقطعة خبز صغيرة في اليوم. فقام وكسر خبزاته محوّلاً اياها الى قطع صغيرة جداً وراح يأكل واحدة منها في اليوم.

وكثيراً ما كان يقول ممازحاً:

الجوع كان يرغمني ان املأ اهرائي، فلم اكن اعرف اين سأضع خبزاتي...

وذات يوم، اراد ان يغلب النعاس، فأمضى عشرين يوماً خارج سقف القلاية، فكانت شمس افريقيا اللاهبة تكويه في النهار، اما في الليل، فكانت البرودة تنعشه. لكنه كان يعود بعد كل هذا، ليخضع لناموس الطبيعة.

وذات يوم لدغته حشرة كبيرة، ففكر في قتلها، لكنه عاد الى نفسه وقرر أن لا يعاقبها، فغادر قلايته الى اعماق الصحراء كي توجعه الحشرات.

ولما عاد الى الاسقيط لم يكن احد يعرفه الا من صوته، لأن بشرته كانت قد انتفخت من لدغ الحشرات .

ولما كان يسمع ان رهبان باخوميوس كانوا يحيون سيرة روحية رصينة، قرر ان يزورهم ليرى احوالهم بأم العين. فارتدى ثياباً دنيوية ليتنكر، ومضى اليهم قاطعاً المسافة باسبوعين. ولما دخل الدير، طلب ان يرى الأب الرئيس. فاخذوه الى الأب باخوميوس، فعمل له مطانية، ورجاه ان يقبله في الدير كي يجعله راهباً. فنظر اليه الأب باخوميوس جيداً دون ان يقول له ما كان يجول بفكره.

قال له باخوميوس:

انت يا رجل الله قد هدرت قواك في شيخوختك، فكيف ستستطيع ان تحتمل اعباء السيرة الرهبانية؟ فالشباب ههنا، قدموا الى الدير في ربيع العمر، لذا فقد الفوا شظف العيش عندنا. ولكن لا يبدو لي انك تستطيع ان تألف خشونة الحياة التي هنا. لأنك ستتعب على عجل وتعود الى العالم، وتبدأ الافتراء على الدير ورهبانه. وبهذا تؤذي نفسك، وتؤذي الذين يصدّقون كلماتك.

بهذه وغيرها من الكلمات، اخبره الأب باخوميوس انه يجب عليه الرحيل وأن يترك الرهبان وشأنهم. لكن مكاريوس لم يفعل، بل بقي سبعة ايام واقفاً خارج باب الدير لا يأكل ولا يشرب شيئاً. وكان يتوسل اليهم كي

يقبلوه. فلما علم باخوميوس بحالة هذا الزائر، دعاه اليه كي يعيد على مسمعه الكلمات نفسها، وقال له:

قلت لك انك عجوز ولا تستطيع ان تحتمل الرهبنة. فقال مكاريوس:

جرّبني يا ابت. وكان يلح عليه كي يقبله. ثم راح يقول:

جرّبني اذا كنت اصوم واعمل مثلكم، والا فَمُر بطردي من الدير على الفور. فرضخ الأب باخوميوس بعد كثرة الالحاح، واستبقاه للاختبار، لكنه ارسله ليعيش بين المبتدئين.

وكان في الدير في ذلك الوقت قرابة الف واربعمئة راهب كانوا موزعين الى فئات حسب القوانين التي كان باخوميوس قد وضعها. وكانت الصلاة في المرتبة الاولى، اما عمل اليد فكان يأتي في المرتبة الثانية.

وبعد شهر تقريباً، بدأ الرهبان يستعدون للصوم الاربعيني المقدس. فلاحظ الأب مكاريوس ان الرهبان كانوا يقومون بأعمال روحية مختلفة. فكان المبتدئون يأكلون مرة في اليوم، اما المتقدمون، فمرة كل يومين. اما الكاملون، فكانوا يأكلون مرة كل اسبوع. وهذا كان يحصل بعيد غروب الشمس. وكثيرون منهم كانوا يقضون الليل للصلاة وهم منتصبون. وكان كل واحد يجاهد حسب قواه الجسدية والروحية.

وهنا بلّل البار مكاريوس الخوص وأعدّه للحياكة. وبعد حين بدأ عمله. لم يضع في فمه شيئاً طيلة الصوم الاربعيني المقدس. كذلك لم يكن يشرب ماءً، ولم يجلس الى كرسي، ولم يخلد الى فراش. ومن الاحد الى الاحد التالي، كان يتناول قطعة صغيرة من النباتات كي لا يجربه شيطان المجد الباطل بأنه صوّام كبير. واثناء الصوم لم يكن يتكلم البتة، بل كان صامتاً ومتنبهاً لعمل اليد دون ان يتوقف ذهنه عن الصلاة لحظة واحدة.

ولم يمضِ زمن، حتى ادرك رهبان الاب باخوميوس نسكه العجيب. لقد تساءلوا في البداية، لكنهم خجلوا من انفسهم بعد حين كيف ان شيخاً طاعناً في السن، ابن الامس في السيرة الرهبانية، يتفوق عليهم. ففكروا

وفكروا دون ان يجدوا حلاً. وفي النهاية مضوا الى الاب باخوميوس، وقالوا له:

أأتيت بهذا النحيل الينا كي تخجلنا؟ اما تطرده من الدير، او اننا نغادر هذا المكان جميعاً.

ولما علم باخوميوس بسلوك الشيخ مكاريوس وجهاده، أيقن ان هناك سراً في قلب مكاريوس. فصلى الى الله كي يكشف له الأمر. وبعد هذا، قام باخوميوس وتوجه الى حيث كان مكاريوس واقفاً، فأمسكه بيده وجاء به الى الكنيسة وهو يضع يديه حول كتفيه. ثم قبلّه وقال له باعجاب: تعال، ولا تعد تتخفى ايها الشيخ . اشكر الله الذي كشفك لي كي انتفع من سيرتك. انا مديون لك بالكثير لانك ادخلت التواضع الى نفوس أبنائي الروحيين مظهراً لهم ما هو النسك الحقيقي. لقد علّمتنا ما يكفي. ويمكنك الآن ان تعود من حيث اتيت مرتاحاً ومطمئناً. فقط نرجوك ان لا تكفّ عن الصلاة من اجلنا.

فشكر الشيخ مكاريوس الشيخ باخوميوس ومحبته له، وقفل عائداً الى قلايته.

ويقول بلاديوس:

- لقد اخبرني مكاريوس نفسه، هذا الملاك الارضي، انه استطاع مرة ان يبعد ذهنه عن العالميات لينشغل بالله وبالسماويات طيلة خمسة ايام.

ولكي يحقق ذلك، اغلق على نفسه داخل القلاية، ثم اقفل الباب الخارجي كي لا يزعجه احد، ووقف للصلاة ويداه ممدودتان، وقال لذهنه:

اصعد الى السماء واستمتع بما هناك، فترى الملائكة ورؤساء الملائكة وكل القوى غير المنظورة التي فوق، الشاروبيم والسارافيم، وفوق الجميع، الخالق الاله نفسه. ولا تنحدر من هذا العلو الشاهق الى الدنيويات والفاسدات.

وظل ذهنه يومين كاملين مشدوداً الى هذه الثيوريا الالهية. واثناء ذلك كان ابليس يزمجر علّه يتمكن من عرقلته. وقد استطاع ان يضرم ناراً في ارجاء القلاية أتت في دقائق على كل ما فيها، بما في ذلك البساط الرث والمهترئ الذي كان يستلقي عليه. وهكذا اضطر هذا البار ان يقطع معايناته ليس بسبب النار التي اضرمها ابليس، بل بسبب الاخطار التي يمكن ان تنجم عن سمو العقل وارتفاعه الى فوق.

- ذات يوم، مضى احد النساك من جبل فرمي، الى البار مكاريوس واعترف له بمكنوناته، وقال له:

انا حزين جداً يا ابت.

فقال له الأب مكاريوس:

ولماذا يا اخي؟

قال الناسك:

علمت ان امرأة تقيم بجوار المدينة تعيش في نسك شديد، فهي لا تتناول سوى بعض النباتات وذلك يومي السبت والأحد، وتصلي كل يوم سبعمئة مرة (على الارجح ان الرقم يشير الى صلاة الرب يسوع، المعرّب). فلما سمعتها يا ابت، شعرت انني يائس. وفكرت ان عندي قدرة جسدية على الاحتمال، اكثر من المرأة، الا اني لا استطيع ان اصوم هكذا، لا بل لا اقوى على الصلاة اكثر من ٣٠٠ مرة.

فأجابه الشيخ مكاريوس وقال له:

يا اخي: انا اعيش في الصحراء منذ ٦٠ عاماً، ولا اصلي اكثر من مئة مرة في اليوم، وهو ما حدّده لي الآباء. واعمل وأكدّ كي اشتري خبزاتي. لا بل احاول جاهداً كي انفع الاخوة الذين يزورونني للاسترشاد.

في الحقيقة انني اقوم بالقليل كما ترى، لكن ضميري لا يؤنبني بحجة انني كسول. اما انت، فيبدو ان ضميرك يؤنبك رغم انك تصلي اكثر من

٣٠٠ مرة في اليوم. انتبه لعلك لا تؤدي صلاتك كما يجب. ولكن لا تشغل نفسك بكمية الصلاة، بل بنوعيتها.

- قال تلميذ الأب دوروثيوس عن ابيه الشيخ الذي عاش في نسك شديد: كان يجمع الحجارة طيلة النهار ويعمل تحت الشمس، وذلك كي يشيّد القلالي للاخوة الذين لا يستطيعون ذلك بمفردهم.

وذات يوم، قال له احد ابنائه وهو حزين من اجله:

يا ابت، انت تقتل نفسك بعملك هكذا.

اما الشيخ فقال له:

اذا لم اقتل انا نفسي، سيقتلني ذاك.

- وهو نفسه كان يتناول خبزته (التعبير رهباني وهو عبارة عن الوجبة التي يتناولها الراهب مرة في اليوم او مرتين في الاسبوع، او حتى مرة في الاسبوع) بعد غروب الشمس، وكان يشرب قليلاً من الماء فقط. اما عمل اليد فكان لا يتوقف، وذلك كي يتمكن هذا البار من اعالة نفسه. وكان ينام قليلاً فقط وهو جالس، وهذا كان يكفيه لإراحة جسمه. وكثيراً ما كانت الخبزة تسقط من فمه عندما كان يتناولها بعد غروب الشمس.

- وذات يوم مرض بسبب شدة النسك، فرجاه تلميذه ان يستلقي قليلاً، فقال لتلميذه:

اذا كنت تستطيع ان تقنع الملائكة ان يناموا، يمكنك ان تقنع دوروثاوس بذلك.

- يقول الأب دانيال تلميذ الأب ارسانيوس:

لقد دعا الأب ارسانيوس ذات مساء الى قلايته ناسكين جليلين هما الأب زويلو والأب اسكندر، وقال لهما وهو يريد ان يعلّم نفسه التواضع:

ان الشياطين تحثّني على النوم، لذا اسألكما ان تسهرا معي هذه الليلة كي تقولا لي كم ينبغي ان انام. وعند المساء جلس الشيخان واحد عن يمينه والآخر عن يساره، ولم يقولا كلمة، بل كانوا يصلّون.

ثم قالا في اليوم التالي:

نحن خلدنا الى النوم قليلاً، اما هو فظل صاحياً ومنتصباً. وعند الصباح رأيناه يتنفس الصعداء ويقول:

نعست، فنمت. بهذا المقدار كان البار قوياً امام النوم حتى انه كان ينام عندما يشاء. ولما كان ينام لساعة، كان ينهض فجأة ويقول لنفسه:

هلمّ ايها العبد البّطال، لقد اخذت قسطك من النوم.

وكان هو نفسه يقول:

اذا كان الراهب مجاهداً، يكفيه ساعة من النوم كل يوم.

- قال الذين حالفهم الحظ ان يتعرفوا على الأب بيصارون:

امضى حياته حراً من كل اهتمام دنيوي، فكان كطيور السماء. لم يكن عنده شيء يخصّه لوحده، مهما كان ضرورياً. لم يكن عنده قميص ثانٍ كما قال الكتاب. وثيابه كانت عتيقة وبالية، ولم يكن احد يرضى ان يأخذها. لم يكن عنده قلاية. ولم يكن ليقيم تحت سقف. كان يلجأ الى الكهوف عند الحر والبرد. واذا قاده الدرب الى دير، كان يجلس عند بابه يبكي كأنه مطرود. وكان يسأله الذين لم يكونوا يعرفونه: لماذا انت حزين يا اخي؟

فكان يجيب:

انا حزين لأني فقدت ثروتي وكرامتي الاولى وامجادي. هكذا كان يجيب سائليه في العادة.

ولم يكن احد يقوى على اقناعه بالدخول الى الدير لضيافته والترحيب به كما هي العادة. وكان الاخوة يخرجون اليه وهم يحملون الطعام ويقولون له:

ضع شيئاً في فمك وليكن رجاؤك على الله وهو يعيد لك ما فقدته. فكانوا يعزّونه ظانين انه متشرد حقاً.

اما هو فكان يقول:

لست اهلاً ان اقتني ما فقدته. كان يقول هذا وهو يتنهد. ومهما عشت، لن اكف عن البحث عما فقدته.

ومن هذه كانوا يفهمون انه كان يقصد الخيرات السماوية.

- وقال بعض الاخوة عنه انه ظل واقفاً طيلة (٤٠) يوماً فوق كومة من الحطب كي يغلب النعاس. فهو لم يكن يوماً قد استلقى على ظهره للنوم. وكان يكفيه النوم وهو منتصب، او جالس على حجر.

- وذات يوم وصل صياد الى جبل القديس انطونيوس، فدُهش لدى رؤية الأب يمازح الاخوة، فوقف وراح يراقبهم. فأدرك الأب سبب حيرته، فقال له:

يا صياد، مدّ قوسك.

فأطاع الصياد ومدّ قوسه.

فقال انطونيوس : مدّه اكثر.

فقال : فعلت.

فقال : واكثر.

فقال ذاك : يستحيل ان امدّه اكثر، لأنه اوشك ان ينكسر.

ثم قال الأب الناسك:

الشيء نفسه يحصل لنا نحن النساك. فإذا اردنا ان نتجاوز حدود طاقتنا الجسدية والنفسية، ننكسر. لهذا السبب فإننا نتساهل.

- مضى صديق الأب بيمن، ويدعى يوسف، للقاء صديقه الأب بيمن، فوجده واقفاً في الماء يريح قدميه بعد ان ظل واقفاً لأيام. فبدا الأمر غريباً لهذا الناسك المتشدد، وقال له: وكيف افلح كثيرون في استخدام جسدهم؟

فأجابه الأب وقال:

نحن لم نتعلم ان نكون قاتلي جسد، بل مروّضي الشهوات.

- يقال ان الأب نطراس تلميذ البار سلوان، كان كثير التساهل مع نفسه عندما نسك في جبل سينا. فقد كان يتجنّب اموراً كثيرة. لكن عندما اصبح اسقفاً على فاراس، بدأ يقسو على نفسه كثيراً. فاستغرب تلميذه، وتجاسر مرة وسأله:

لماذا يا ابت لم تقم بهذه الممارسات عندما كنت في الجبل؟

فقال الاسقف:

هناك صحراء يا ولدي مع هدوء وفقر. فكنت اعطي نفسي بعض الراحة كي لا يمرض الجسد، فاضطر ان اطلب ما لا استطيع ان اجده هناك. لكن في المدينة، هناك اسباب كثيرة للخطيئة، لذا من الضرورة بمكان اللجوء الى الحزم والتشدد. وفي حالة المرض، عندي من يهتم بي. لذا ينبغي لي ههنا ان اجاهد، كي لا افقد الراهب ويبقى الاسقف.

- هنيئاً للراهب الذي يصبر على الاتعاب والتجارب وهو يشكر الله. هذا ما اعتاد الأب كوبريس ان يقوله على الدوام.

- وذات يوم مرض الأب كوبريس مرضاً شديداً، فتعجب الاخوة من صبره واحتماله. فلم يكن يقبل ولو لمرة واحدة ان يحققوا له واحدة من الرغبات الانسانية. وكانت الصلاة لا تتوقف على شفتيه.

- امضى احد الأخوة تسع سنوات في حرب مع الافكار. فكان كل يوم يبكي ويقول وهو يلوم نفسه:

انا السبب في كل ما اصابني وحل بي. سوف افقد نفسي. فكان يجاهد كثيرا ولم يكن ليقع في الشر و الخطيئة. وفي النهاية توقّف جهاده فوقع في اليأس، فقال في نفسه:

لقد فقدت نفسي فلماذا اعيش تائها على غير هدى في الصحراء؟ فلأعد الى العالم. فقام وسار في الدرب الى المدينة . وفي الطريق، سمع صوتا يقول له:

يا بائس انك تسير الى المدينة لتفقد الاكليل الذي كنت طيلة تسع سنوات تحيكه بصبرك. عدْ الى البريّة لكي تنتهي من حياكة الاكليل. فكانت هذه الكلمات تعزية لنفس الأخ. فتشجع وعاد الى البرية، فأراحه الله من تفكيره.

- قال احد الشيوخ الحكماء:

اذا كان الله يحتملنا رغم خطايانا، فكم ستؤآزرنا محبته وحنانه، اذا كنا نجاهد من اجل الخير؟

- قال الأب انطونيوس:

الله لا يسمح با لتجارب العظيمة ان تنزل على الناس اليوم، فهم ضعفاء، ولا يمتلكون الصبر الذي كان للقدماء.

- عاش ناسك في قلاية تبعد ١٢ ميلاً عن نبع كان يشرب منه رهبان الاسقيط. وهكذا كان يتكبّد كل هذه المشقة كي يشرب. وذات يوم وبينما كان الطقس محرقاً لاهباً، فقد صبره، وقال لنفسه:

هل من الضرورة بمكان ان اتعب بهذا المقدار؟ سوف لن اقيم بجوار النبع. ولما قال هذا، شعر بانسان يسير وراءه ويقول:

عد، إلى قلايتك ولا تبارحها. فقال الناسك : ومن انت؟ (قال ذلك باستغراب وتعجب).

اجابه ذاك:

انا ملاك مرسل من الله كي احصي خطواتك واعطيك اتعاب صبرك. قال الملاك هذا واختفى. فتشدّد الناسك بكلمات الملاك، ولم يغيّر مكان سكناه، بل توغّل في عمق الصحراء كي تطول المسافة بينه وبين النبع.

- قيل عن الأب خاريمون ان القلاية التي كان ينسك فيها كانت تبعد اربعين ميلاً عن كنيسة الاسقيط. والمسافة نفسها كانت تفصله عن النهر الذي يستقي منه الاخوة.

اما الامور التي كان يحتاج اليها لعمل اليد، فكان الحصول عليها يقضي ان يسير اثني عشر ميلاً. فكان الناسك يذهب حيناً، ويبقى حيناً آخر من اجل عمل اليد. اما الذهاب الى الكنيسة، فلم ينقطع عنه في الآحاد، لا في الصيف ولا في الشتاء.

الفصل الرابع

في التوبة :

- يحدّثنا الأب يوحنا عن شاب اجتذبته مغريات العالم وأغوته حتى انه غرق في اوحال الشطارة (نسبة للأبن الشاطر). وذات يوم عاد الى نفسه، وكالأبن الشاطر، سار على طريق العوده الى بيت ابيه. فترك العالم كي يجد خلاصه في البرية بعيداً عن كل الخطايا. ولما وصل الى هناك، وجد قبراً فأقام فيه. وبمحض ارادته اغلق على نفسه في هذا السجن، وراح يبكي نفسه الجريحة، بمرارة.

ففرحت الملائكة بما كان يعمله هذا الشاب. الا ان روح الزنى رأت ان الأمور اوشكت ان تُفلت من يدها، فقامت بالهجوم للحيلولة دون وصول الشاب الى شاطىء الامان. فهاجمت القبر عند منتصف الليل، وراحت تقول له بغضب: اين انت ايها الغبي؟ لماذا تنكرت لنا بعد هذه الصداقة التي جمعتنا؟ لقد ذقت كل شيء، وفي النهاية قررت ان تصبح قديساً؟ لقد تأخرت في طلب التعقل و الرحمة. هلم خارجاً ايها المعتوه. فالبنات ينتظرنك خارجاً. هلم خارجاً ايها البائس، فليس لك امل بالخلاص، لأنك سرعان ما تجد موتك و العذاب الابدي. وآلمته بشرورها جداً كي تحضّه على اليأس والقنوط. لكن ذلك الشجاع كان قد عقد العزم ان يموت من ان يحيا في حمأة الاثام. وكان يطلب العون الالهي بحرارة، محتقراً كل الخيالات الشيطانية.

وفي المساء التالي، زاره ابليس وكانت لهجته اكثر توعداً وتهديداً، وقال للشاب:

اذا قررت ان لا تخرج، فلن تفلت من يدي.

لكن الشاب لم يسمع له. فبدأ ابليس يضربه حتى سقط مغمى عليه.

ولما كان الشاب قد انقطع عن بيت ذويه. فإن اهله استغربوا غيابه، وانتاب القلق نفوسهم، فقاموا يبحثون عنه في كل مكان. وفي النهاية وجدوه في حالة يرثى لها داخل ذلك القبر القديم. فألحوا عليه بالعودة معهم الى البيت. لكنه ابى. فلم يفلحوا في اقناعه بالعدول عن موقفه والعودة معهم الى البيت.

وذات يوم، وبعيد منتصف الليل، هاجمته الشياطين بعنف وضراوة، لكنها لم تنل منه، لأنه لم يُعط لها سلطان عليه. بل ظل الشاب ثابتاً في موقعه، وآثر ان يفقد الحياة الدنيوية على ان يلوث نفسه وجسده بجرثومة الخطايا، سيما بعد ان بدأ مسيرة التوبة.

فأدرك ابليس انه هُزم، فقال هو واعوانه : لقد هزمنا، لقد هزمنا. ثم تواروا عن الانظار ولم يعودوا يتجاسرون ان يجربوا الشاب.

فانعتق الشاب من التجربة ولبث في القبر حتى نهاية حياته. وشاء الله ان يعلّي اسمه، فوهبه نعمة صنع العجائب، وذلك لتظهر قوة التوبة فيه. ونجد في اخبار بالاذيوس ورواياته احداثاً كثيرة كهذه ذات قيمة عالية، فضلاً عن امثلة نافعة ومفيدة يمكن ان يعوّل عليها لاصلاح الماضي الاثيم.

- يحتاج البار الى نباهة ويقظة كي لا يسلبه ابليس ثمار فضيلته. ولكن أي جهاد يحتاج اليه من يتوق الى درب القداسة؟ ومع ذلك، مهما عمل الانسان، فلا شيء ينفعه الا اذا عانق النعمة الالهية وطلبها.

يقول بالاذيوس:

تعجبت وبقيت مذهولاً الى حين بلغني نبأ العظيم موسى الحبشي الذي دخل البرية الافريقية مقلعاً عن اللصوصية ليصبح راهباً. وهذه باختصار سيرة نموذجية ومثالية.

كان الأب موسى الحبشي عبداً اشتراه سيده. الا انه لم يكن حسن السيرة لديه، فرماه في الشارع وتخلى عن خدمته. فانضوى في زمرة من

اللصوص. كان موسى هذا قوي البنية، وذا بشرة داكنة. واستطاع في وقت قصير جداً ان يصبح زعيماً على اللصوص. واليكم عنه الرواية التالية:

ذات يوم، وبعيد منتصف الليل، قام موسى الحبشي بمهاجمة قطيع من الماشية، لكنه ارتدّ على اعقابه بسبب نباح الكلاب التي كانت منتشرة بين القطيع. فغضب كثيراً، وقرر ان يقتل الراعي نفسه. فعبر النيل وهو يضع ثيابه فوق رأسه، بينما راح يمسك سكينه الضخمة بين فكّيه. ولما عبر إلى الضفة الثانية، بحث عن الرجل، فلم يجده، لأنه كان قد توارى عن الانظار. ولكي يثأر لنفسه، قتل كل القطيع. ولما ارتوت نفسه من سفك الدماء، قام وقيّد عدداً من الاغنام وجرّها الى ضفة النهر، ونزل الى الماء، وسبح الى الضفة الثانية. وهناك اضرم ناراً وذبحها وشوى لحمانها، وأكلها وهو يحتسي خمساً وعشرين ليتراً من النبيذ. وبعد ذلك، قام وسار خمسين ميلاً حتى وصل الى مخبأه.

وذات يومٍ وبعد ان قام بعمل مشين، توجّه هذا الوحش ذو الهيئة البشرية الى البرية، وذلك كي يتوارى عن الانظار في اماكن يقطنها المتوحدون. ومصادقة موسى لهؤلاء، ومحبتهم له، هدّأت مع الايام، غرائزه الهمجية. والله الذي لا يشاء موت الخاطئ الى ان يعود ويحيا، كان يكلّل هذه النفس بنعمته الالهية. ومع الوقت شعر هذا اللص الكبير بدفء التوبة، فقام يطلب خلاص نفسه. ومن عرف، من القديسين بأمره، كان يصلي لعودة هذا الضال الذي تحوّلت سيرته جذرياً بحيث ان نفسه بلغت قامات من الفضيلة تضارع سيرة كبار اباء البرية. فصار هذا الانسان مثالاً للفضيلة والقداسة، ونموذجاً حياً لذوي الطباع الشرسة الذين يتوقون ان تلمس نعمة المعزي نفوسهم وتحوّلهم.

وذات يوم، اقتحم قلايته اربعة لصوص، كانوا من خيرة اصدقائه، وذلك ليسرقوا ما تصل اليه ايديهم، دون ان يفكر احدهم من الذي كان يعيش داخل تلك القلاية. ولما وقعت عيونهم عليه، ذُهلوا. اما هو فاستطاع بسهولة فائقة ان يمسك بهم ويقيدهم ويقتادهم الى الشيوخ.

ولما وصل بهم الى هناك، قال للشيوخ : ماذا تريدون ان افعل بهؤلاء الذين ارادوا ان يسرقوا قلايتي؟ أنا لم اعد ارغب بمعاقبة احد من الناس؟

فنصحه الآباء ان يحل قيودهم ويطلقهم. لكن اللصوص ابوا ان يرحلوا. فقد اذهلهم موقف موسى. فقرروا ان يعيشوا معه ويخدموه، علّهم بذلك يجدون خلاص نفوسهم.

وأُهّل القديس موسى الحبشي الى الدرجة الكهنوتية بسبب فضيلته. ويقال انه عند موته كان يجمع حوله سبعين تلميذاً. والكنيسة الارثوذكسية تكرمه اكرامها للأبرار، وتعيّد له في ٢٨ آب من كل سنة.

- سأل شاب ضابط في الجيش اباه الروحي أثناء الاعتراف وقال له: وهل يقبل الله بسهولة توبة الانسان؟ فقال له الأب الروحي: يا بني، اذا حدث ان تمزّق طرف قميصك، هل ترميه على انه خرقة بالية؟

قال الشاب : كلا يا ابت، بل احاول ان اصلحه قدر الامكان.

فقال الشيخ :

اذا كنت تحزن على ثيابك فلا ترميها، فكيف لا يحزن الله على خليقته؟ فهو سيبادر على عجل، وقدر المستطاع، لاصلاحها.

فلما سمع الشاب هذا الكلام، ارتاح وغادر منتفعاً.

- مضى احد الرهبان المبتدئين حزيناً الى الأب بيمن وقال له:

سقطت في خطيئة عظيمة يا ابت، واعتقد انني بحاجة الى ثلاث سنوات كي اتوب.

فقال الشيخ بيمن:

طويلة هي مدة هذه التوبة. لما لا تكون لثلاثة شهور؟ لا بل اعتقد ان ثلاثة شهور هي في ذاتها مدة طويلة. لذا دعني اقول لك صراحة: اذا كنت ترغب بالتوبة، وتنوي من كل قلبك الا تعود الى هذه الخطيئة، فإن الله المحب، يقبل توبتك بعد ثلاثة ايام.

- وسأل اخ آخر الأب بيمن وقال له:

وهل يقبل الله ان يغفر خطايا الانسان بسهولة؟

كيف لا يا ولدي، قال الأب الشيخ. ألم يقل السيد لبطرس بأن يغفر لأخيه ٧٠ مرة سبع مرات (متى ١٨:٢٢)؟

- وسأل اخ آخر الأب بيمن وقال له:

وما هي التوبة؟ ارجوك اشرحها لي.

قال الشيخ : انها ان لا تقع في الخطيئة نفسها.

- اعترف احد الأخوة للأب صيصوي وقال :

سقطت في خطيئة عظيمة يا ابت، فماذا افعل؟ قال الشيخ بوداعة وهدوء:

انهض من جديد .فقال الأخ:

لقد نهضت، الا انني عدت فسقطت. (قال هذا وهو حزين). فقال الشيخ:

وما الذي يحول دون نهوضك من جديد؟ فقال الأخ:

والى متى اعاود الكرة المرة تلو الاخرى؟ قال الشيخ:

الى ان تحين ساعة موتك فتنهض او تسقط. ألم يقل الكتاب: حيث اجدك هناك ادينك؟ ثم اردف يقول:

صلّ يا ولدي كي تكون عند نهاية حياتك تائباً وفي سيرة مرضية لله .

- اعترف احد الاخوة لأحد الشيوخ و الحزن يعتصر قلبه، فقال:

ان افكاري تحاربني وتحرضني على العودة الى العالم. لذا فاني اهيم على وجهي واعيش تائهاً في هذه البرية لا اعمل شيئاً. ولست متأكداً من خلاصي.

أجابه الشيخ:

حتى ولو كنا نقصّر في عملنا في العالم يا ولدي، فمن النافع جداً ان

نترك عظامنا في البرية من ان نعود من جديد الى عبودية مصر في العالم.

- كان لراهب بار وفاضل اخت تعيش في المدينة بالبذخ والخلاعة. وكانت هذه تجتذب الكثيرين من الشباب الى حبائلها. وكان رهبان الاسقيط يطلبون من الأخ ان يقوم ويذهب الى المدينة علّه يثني اخته عن غيها وضلالها. اما هو فتردّد في البداية، لأنه كان يخشى الاخطار التي يتعرض لها الرهبان في العالم. ولكن عاد وأطاع وقرر ان يقوم بهذه المهمة.

فقام وذهب الى المدينة. ولما قرب من البيت، علم به الجيران، فأخبروا اخته بأن اخاها قادم اليها. فهللت لسماع النبأ، فهي لم تر اخاها منذ سنوات. فقامت وابعدت البنات صاحباتها، وانطلقت حافية القدمين الى الشارع لاستقبال اخيها.

فلما رآها تسرع نحوه، راح يبكي من كل قلبه، وقال لها: الا تخجلي من نفسك يا اختي؟ قال ذلك والحزن يعتصر قلبه. الا تخجلي من نفسك لأنك توقعين بالشباب في حبائلك؟ فكرّي بما ينتظرك بعد الموت.

فتحركت احشاء الاخت بسبب طهارة اخيها وموقفه ودموعه ومعاتبته، وقالت له:

وهل لي خلاص؟ قالت هذه الكلمات والقلق بادٍ على وجهها.

قال الأخ:

بكل تأكيد. ولكن يكفي ان تريدي انت.

ثم التفتت اليه وقالت له : خذني معك، ولا تدعني لوحدي ههنا اصارع امواج الخطيئة.

فقال الراهب بحزم:

انتعلي حذاءك، وغطي رأسك واتبعيني.

فقامت أخته وسارت وراءه وهي فرحة.

فانشرح الراهب من ثباتها، واقتادها تواً خارج المدينة، ومنها توجّها معاً الى البرية بحثاً عن ديرٍ نسائي معروف. وبينما كانا يسيران، لمحا من بعيد قافلة تسير باتجاههما، فقال الراهب: رويدك يا اختي. لنختبئ وراء الصخور، لأن الرجال الذين لا يعرفون انك اختي، قد يتشككون ويعثرون. فوافقته، وقفزت عبر الطريق لتختفي وراء الصخور. وبعد مرور القافلة، ناداها الراهب لمتابعة السير الى قلب الصحراء. لكن بدا له وكأنها لم تسمع صوته. فعاود الكرة، ولكن بدون جدوى. فقام وتوجّه الى مكان اختبائها، وناداها من جديد. ولكن عبثاً. ولما اقترب منها، وجدها جثة هامدة، فهزّها بيده، فلم تتحرك. فأدرك انها ماتت. ولاحظ ان التراب كان قد غطى جسمها، وحجارة الطريق كانت قد احدثت جروحاً في قدميها.

ولم يشعر الراهب بالراحة لهذا الموت الفجائي عندما عاد الى قلايته. فكان الشك ينتابه على الدوام، وراح يقول في نفسه: لعلها لن تحظى بالخلاص، فموتها المفاجئ باغتها بحيث انها لم تبدأ التوبة.

فقام واطلع الشيوخ على ما جرى، وما حدث، لأخته، وكيف ماتت. فحدّد هؤلاء للرهبان صوماً وصلاة تُرفع عن روحها.

الا ان الله اظهر لأحد النساك ان توبتها قُبلت، وأنها ترتع مع الابرار بسبب نكرانها لنفسها. فهي قد احتقرت ليس فقط كافة الامور المادية، بل جسدها نفسه ايضاً.

- توسل احد الأخوة الى احد الشيوخ الكبار ان يفسر له ما يعنيه المرنم عندما يقول: وليس له خلاص بالهه (مزمور ٣:٢). قال الشيخ: انه - اي المرنم - يعني افكار اليأس التي يغرسها الشرير في ذهن الانسان. لهؤلاء يقول الشرير ان ليس لهم خلاص لأنهم اخطأوا ولم يهرعوا الى الله بالتوبة. وهكذا فابليس يحاول ان يجتذب هؤلاء، كي يرميهم في جب

اليأس. الا ان النفس التي تتوق الى خلاصها، تجاهد بما أوتيت من قوة، كي تنأى بنفسها عن هذه الافكار.

– روى بعض الشيوخ القصة التالية: قام في تخوم مدينة سالونيك دير نسائي كبير. وذات يوم ارسلت الأم الرئيسة احدى الراهبات الى المدينة من اجل غرض يحتاج اليه الدير. اما تلك، وبتحريض من ابليس، سقطت في خطيئة عظيمة، فيأست من جراء سقوطها، وقررت ان لا تعود الى الدير، فبقيت في العالم، وانجرفت في سيرة الخلاعة. الا انها عادت الى نفسها وقررت ان تتوب بشجاعة، فقامت وسلكت طريق العودة. ولا نعلم لماذا لم يسمح الله ان تستكمل توبتها. فما ان وصلت الى بوابة الدير حتى سقطت وماتت.

فتأثرت اخواتها الراهبات، والآباء الذين كانوا ينسكون في الجوار. وكان الجميع يعتقدون ان الله لم يقبل توبتها. الا ان احد النساك، وكان يعيش على سفح احد الجبال المجاورة، انكشف له اثناء الصلاة، وفي اللحظة التي سقطت فيها الراهبة وماتت، ما يلي : نزل ملائكة من السماء وحملوا نفسها. الا ان حشوداً من الشياطين راحت تتزاحم كي تمسك بها. وجرت حرب عظيمة بين الارواح الصالحة والارواح الشريرة. وفي النهاية انتصر ملاك الخير وارتفعت روحها الى السماء. وهكذا اكدّ الملاك، لذلك الناسك، ان تلك الراهبة نالت الخلاص. ولكن كيف تُفهم توبتها طالما انها عند العودة لم تتمكن من دخول الدير فالموت باغتها على حين غرة؟

لقد رأى الله ارادتها وحسن نيتها، فقبل توبتها. وهكذا، ولّتْ الشياطين مهزومة، بينما حملت الملائكة نفسها الى السموات.

– اذا اراد المرء، يمكنه من الصباح وحتى غروب الشمس ان يلتصق بالقداسة. هذا ما كان القديس انطونيوس الكبير يردّده على مسامع تلاميذه عندما كان يكلمهم عن قوة التوبة.

– في ايام ازدهار النسك والرهبنة في مصر، عاشت في الاسكندرية فتاة يتيمة تدعى طايسا. هذه مات والداها فخلفا لها ميراثاً من التقوى

والمحبة نحو الفقراء والغرباء، فضلاً عن منزل كبير، والكثير من المال تعيش به.

وكان عند هذه الصبية محبة عظيمة للنساك، وقد جعلت بيتها مضافة حباً بالمجاهدين. وعندما كانوا ينزلون الى المدينة ليبيعوا عمل اليد، كانت تستضيفهم من كل قلبها. ومع الوقت انفقت ما عندها، وبدأ العوز ينشب براثنه فيها. وهنا ظهر الاشرار والفاسدون الذين عمدوا الى استغلال حالتها، وتمكّنوا بفضل شرورهم ان يجتذبوها الى المفاسد الدنيوية. فلما علم اباء البرية الذين احبوا طايسا، بما جرى، قرروا ان يقوموا بما في وسعهم من اجل خلاصها، وقالوا :

هذه كانت تُبدي لنا كل محبة وخدمة وضيافة عندما كانت احوالها جيدة، اما الآن فإن نفسها في خطر، وينبغي ان نقوم بعمل ما لنردّ لها الدين. فأوكلوا للأب يوحنا الكولوفي ان يقوم بهذه المهمة. في البداية، تردّد، فقد بدت له المهمة صعبة وعسيرة التحقيق. ولكن لما ادرك ان تردّده يعني خروجاً على طاعة الآباء، عاد وقبل بما اوكل اليه. فقام ونزل الى المدينة متوجهاً الى منزلها. ولما وصل، طلب من الخادمة ان تقوده اليها. لكن هذه زجرته وشتمته وحاولت ان تطرده قائلة : لقد اكلتم خيراتها في الماضي، فكيف تأتون الآن لإزعاجها؟

لكن الأب يوحنا لم ييأس. بل اصرّ على رغبته برؤية طايسا، وقال لها: اريد مقابلتها لأمر هام ونافع لها. فرضخت الخادمة لطلبه والحاحه، ومضت لتعلم سيدتها بمجيئه اليها. فقالت لها السيدة:

هؤلاء الرهبان يصطادون السمك في البحر الاحمر، وفي العادة يلتقطون لآلئ ثمينة، لذا، دعيه يدخل. اما هي فقامت الى المرآة، وراحت تمعن النظر في نفسها يميناً وشمالاً، ثم رتّبت شعرها، ولبست احلى ما عندها، وعطّرت جسدها واستلقت على الاريكة بانتظار هذا الزائر. فعبر الأب يوحنا الردهة الاولى. ولما وصل الى غرفتها، طرق الباب ودخل وراح

يجيل النظر فيها. ثم قال لها : قولي لي، كيف اساء المسيح اليك يا طايسا حتى انقلب قلبك ضده؟

ثم توقف عن الكلام فجأة، فقد خنق الحزن صوته، وانهمرت الدموع من عينيه. اما هي فاهتزت لِما رأت وسمعت، وقالت وهي تسأله:

ولماذا تبكي يا ابت ؟

قال لها : وكيف لا ابكي يا ابنتي وانا ارى ابليس يلعب بك كما يشاء ؟

فاضطربت طايسا، واجتاحت جسدها قشعريرة هزّت كيانها. وقالت للشيخ:

لقد اتيتَ متأخراً. لقد فات الأوان، ولم يعد في نفسي شيء صحيح وسليم. لقد غرقت نفسي في اوحال المفاسد. وكانت تهم بالبوح بأمر آخر، لكن ظهر ما جعلها تُحجم عن الكلام. اما الشيخ فراح ينظر اليها ويداه معقودتان فوق صدره، بينما ذهنه راح يصلي بقوة من اجل خلاصها. وهنا قالت له طايسا: وهل ما يزال هناك متسع من الوقت للخلاص يا ابت؟

قال الشيخ:

نعم يا ابنتي، فالتوبة هي التي تأتي بالخلاص.

قال لها : اتبعيني.

فقامت الصبية ومشت وراءه. اما هو فكان يتعجب كيف انها لم تكن لتبالي ببيتها وممتلكاتها. ولما خرجا، توجّها شطر الصحراء. ولكن الليل كان قد ارخى سدوله. فأعدّ الشيخ مكاناً لطايسا تنام فيه، وقال لها : ننام هنا حتى الصباح فالطريق طويلة امامنا.

اما هو. فابتعد قليلاً. وصلى واستلقى على التراب متوسّداً صخرة قريبة. ورقد قليلاً ثم افاق عند منتصف الليل، ليتابع صلاته. وفجأة رأى امامه مشهداً عجيباً. لقد رأى طريقاً صاعدة من الارض الى السماء. كان الدرب من نور وقد اخذ يرتقي من المكان الذي كانت طايسا نائمة فيه. ثم رأى ملائكة الله تحمل نفساً طاهرة كحمامة بيضاء الى عرش الله.

انتفض الشيخ وانتصب على ساقيه وراح ينظر الى حيث كانت طايسا نائمة. فناداها لايقاظها، فلم تسمع. هزّها بيدها، ولكن عبثاً فقد انبسطت امامه جثة هامدة. لقد رحلت وانتقلت الى الاخدار السماوية.

تأثر الشيخ لما رأى. وفجأة سمع صوتاً خافتاً يقول:

قليل من انسحاق القلب يكفي يا بني كي تجد النفس خلاصها.

- ذات يوم مضى الأب بولس البسيط لزيارة احد الاديار. وكان ذلك اليوم احد. فاجتمع الجميع في الكنيسة لاقامة القداس الالهي. دخل الأب بولس الكنيسة ووقف في ركن من اركانها، بحيث انه كان يرى كل شيء دون ان يراه احد. وكان الله قد وهبه نعمة معرفة احوال النفوس. وكانت وجوه جميع الاخوة عامرة بالفرح. فشكر الأب بولس الله من كل قلبه.

وفجأة دخل احد الرهبان وقد بدا مختلفاً عن الآخرين، وكان وجهه معبساً ومتجهماً ولم يكن على محيّاه شيء من العلامات التي بدت على وجوه الاخوة الاخرين. فرأى الأب بولس ان الشياطين كانت تتبعه، وكان كل واحد منها يحاول ان يشدّه الى جهته. اما ذاك المسكين فبدا ضائعاً يسير على غير هدى. الا ان ملاكه كان الى جانبه يراقبه، ليحول دون اقتراب اي شيء من الراهب. فتنهد الشيخ بولس، وراح يبكي من اجل الأخ المعذب.

ولما انتهى القداس الالهي، بدأ الاخوة يغادرون الكنيسة. وكان الأب بولس ينظر اليهم فرداً فرداً. فرأى وجوههم اشد ضياء من قبل. فلبث هو في مكانه ينتظر ذاك الراهب الذي صلى من اجله كثيراً اثناء القداس. يا لعظم ما رآه بولس! كان وجه الأخ مضيئاً جداً، فالارواح الشريرة فارقته. وكان الملاك الحارس يحميه بجناحيه. وهكذا فقد بدا هذا سعيداً ومنشرحاً. فقام بولس وغادر الكنيسة وهو يمجد الله.

وبعد حين، دعا الأب بولس الأخ وحثّه على البوح بحالته النفسية عندما كان يهمّ بالدخول الى الكنيسة. لكن الأخ تردّد ان يبوح بما في

مكنوناته، لكنه عاد وقال: حتى يوم امس كنتُ رازحاً تحت الكسل والتواني، وكانت الاهواء والافكار الشريرة تستبد بي، فلم اكن قادراً ان انتبه لسيرتي. لكن الله رحمني اليوم. وسمعت الله يكلمني من خلال الانبياء ويقول: استحمّوا وصيروا انقياء واطرحوا الشرور من نفوسكم... (اشعيا ١: ١٦-١٨). فانسحق قلبي، ولفحته مسحة من توبة. فبكيت وتضرعت الى الله الآب السماوي ان يجعلني على نحو ما ورد على لسان النبي. وقطعت وعداً على نفسي ان اقلع عن التواني وان اعمل بجد لاصلاح سيرتي. بهذه الافكار غادرت الكنيسة يا ابت وانا عازم على الثبات على هذا الوعد. فتعجب الأب بولس والاخوة وشكروا الله من كل قلوبهم. في الحقيقة ان للتوبة قيمة عظيمة.

- يقول القديس مرقس الناسك:

ما هي خطيئة الموت (١ يوحنا ٥:١٦)؟ انها الخطيئة التي لا نتوب عنها. والله نفسه لا يغفر لنا اذا كنا لا نتوب. كثيرون من الناس يشعرون بالحزن على خطاياهم، لكنهم يقبلون اسباب هذه الخطايا بفرح.

- انسان شاب اجتذبته الشرور الى الهاوية، فسقط في خطيئة عظيمة. لكنه لم يتخل عن الجهاد. فقد كان بعد كل سقطة، يبكي بمرارة ويصلي الى الله ويقول: يا رب، خلصني، سواء كنت اريد او لا اريد. انا تراب واتمرغ في اوحال الخطايا. لكن عندك انت القوة كي تساعدني. انا لست انساناً صالحاً يا الهي ولست اهلاً ان اذوق صلاحك. لكن اظهر لي رحمتك يا محب البشر وخلصني على نحو عجائبي، فأنا رغم كل حقارتي اتوق الى صلاحك. وكان الشاب في كل مرة يقول هذه الكلمات بانسحاق قلب حتى عندما كانت تستبد به الاهواء.

وذات يوم، وبعد ان هزمته الافكار الشريرة، ولم يقوَ على مقاومتها، ركع وصلى الى الله وهو يقول الكلمات عينها بينما راحت الدموع تنهمر من عينيه. فارتعد ابليس من رجائه الثابت بالله وقال له:

يا احمق، الا تخجل من نفسك؟ كيف تصلي وتذكر اسم الله على شفتيك؟ الا تعلم انه ليس لك رجاء بالخلاص؟

لكن الشاب لم يرتعد بل ظل ممسكاً بالرجاء، وقال لأبليس:

مهما تفعل، سأظل احاربك بالتوبة والصلاة حتى تيأس وتكف عن محاربتي بالخطيئة.

فقال ابليس:

لن احاربك بعد الآن كي لا يتزايد جزاء صبرك. قال هذا وتوارى عنه.

منذ تلك اللحظة توقفت الحرب ضد الشاب، اما هو فظل يواظب على الصلاة وكان يبكي بمرارة من اجل الخطايا التي اقترفها.

وذات يوم قال له ابليس:

نعمّ لك لأن عندك الانسحاق. قال هذا كي يرميه بالكبرياء.

اما الشاب فراح يقول باحتقار:

ملعون مثل هذا الخير. الله لا يرضيه ان يفقد الانسان نقاوة نفسه بالاعمال السيئة ثم يعود بعد ذلك ليبكي امامه.

- عاش في برية مصر انسان تميّز بالفضيلة و الخدمة. و ذات يوم قدم الى الدير انسان من المدينة يصطحب معه كل افراد عائلته. و كان ابليس قد جاء به كي يجعل هذا الانسان يسقط في الخطيئة، وكان له ما اراد. لكن هذا الراهب تاب وقام واعترف بخطيئته امام احد النساك. وكان عند هذا الناسك صندوق، فطلب الاخ من الناسك ان يعطيه اياه كي يسكن فيه حتى الموت كفارة عن خطيئته. فوافق الناسك. و كان الشيخ يعطيه قطعة خبز عند المساء و ذلك عبر فتحة جعلها في الصندوق.

ومرت الايام ونسي الناس هذا الراهب، ونسوا الخطيئة التي ارتكبها فاعثر الجميع.

- نزل راهب الى المدينة ليبيع عمل اليد. وفي الطريق، صادف فتاة جميلة هي ابنة احد كهنة البعل، فتوانى عن الجهاد واستبدت به الشهوة ونسي وعوده التي قطعها امام المسيح بان يكون عفيفاً. فقام وطلبها من ابيها للزواج.

فقال كاهن البعل:

لا استطيع ان اعدك بشيء قبل ان اسأل الهي الذي اعبده. ثم تركه ومضى.

وبعد حين عاد يقول له:

عليك ان تنكر الاسكيم الرهباني والمعمودية. فقال الراهب البائس:

سأنكر الامرين معاً. قال هذا لأن الشهوة كانت قد أعمت عينيه. للحال رأى أن حمامة ناصعة البياض خرجت من فمه و طارت في الأفق البعيد .

لكن والد الصبية، لم يقبل بزفاف ابنته من ذلك الراهب، بحجة ان الهه يطالب الراهب بترك اله المسيحيين .

فلما سمع هذه الكلمات اهتز و اضطرب و قال :

يا لي من احمق. فأنا أنكر الله الذي لا يمكن لأحد أن ينكر أعمال يديه. فبكى بمرارة كما فعل بطرس بعد انكاره ليسوع. وهكذا، قام وقفل عائداً الى البرية. وما ان وصل حتى توجّه الى احد الشيوخ وباح له بما حصل معرباً له عن توبة عميقة.

فلما استمع له الشيخ، فرح، وعزّاه، و فرض عليه عقوبة رهبانية هي التالية:

امضِ الى تلك المغارة و ادخلها و لا تخرج منها. لازم الصلاة. وكُلْ قطعة صغيرة من الخبز مرة واحدة كل ثلاثة ايام. واضرعْ الى الله بدموعٍ كي يرحمك. وما سوف تفعله انت سأفعله انا ايضاً أملاً ان يظهر لنا الله قبوله لتوبتك.

فقام الاخ عملاً بنصيحة الشيخ ومضى الى المغارة ودخلها وأغلق على نفسه وهو يصوم ويصلي. وكان الشيخ في قلايته يصلي ويقول:

أرجوك يا سيدي - قالها بألم - اذكر أخي، و أظهر توبته.

فاستجاب الرّب لتنهدات الشيخ و الراهب معاً.

وبعد اسبوع قام الشيخ وتوجّه الى المغارة ليرى الأخ. ولما رآه قال له:

تابع جهاداتك يا أخي و ليكن رجاؤك على رحمة الله. ثم تركه وعاد ادراجه إلى قلايته.

وبعد أسبوع التقى الشيخ والأخ، فركع الاخ امامه للاعتراف وقال له:

يا ابت، لقد رأيت الحمامة تعود و تستقر فوق رأسي .

فقال الشيخ:

تابع جهاداتك يا أخي.

و في الاسبوع الثالث مضى الشيخ الى الراهب ، فوجده يبكي من الفرح.

فسأله : ماذا جرى لك؟

فقال الأخ:

رأيت الحمامة تستقر على رأسي، فمددت يدي كي أمسك بها ، فطارت و دخلت فمي من جديد. فقال الشيخ:

الله يُعَلمنا يا ولدي أنه قَبِلَ توبتك. قم وعد الى قلايتك وانتبه لنفسك. فأبدى الأخ رغبة بالعيش بجوار ذلك الشيخ. وراح يجاهد تحت ارشاداته حتى نهاية حياته.

- قال أحد الشيوخ: الناس اليوم يقولون: غداً نتوب .

- قيل عن أحد الاخوة انه عندما كانت أفكاره تقول له: تب غداً ، كان ذلك الحكيم يقول: اليوم سأظهر أعمال توبتي من اجل الغد. لتكن مشيئة الله.

- طرح أحد الاخوة سؤالاً على الأب بيمن قال فيه: كان هناك، انسانان: واحد راهب، وآخر من العالم. وكان الشيطان يحارب الراهب. فقال الراهب في نفسه:

عندما استيقظ في الصباح سأخلع عني ثوب الراهب وأعود الى العالم. اما الذي من العالم فكان يقول: اريد ان احقق رغبة قديمة. في الصباح الباكر سأترك العالم وانطلق الى البرية. ولكن مات الاثنان في تلك الليلة قبل ان يحققا الوعد الذي قطعاه على نفسيهما. قال الأخ: وما مصير الاثنين؟ قال الأب بيمن:

لقد مات الراهب وهو راهب. وكذلك الحال مع الذي من العالم. الاثنان معاً لم يتمكّنا من تغيير حالتهما.

- اليكم ما نقرأه في نسكيات المعلم العظيم القديس اسحاق السرياني: بنفس السبل التي بها فقدت الخير، حاول ان تقتنيه. هل انت مدين للمسيح بذهب؟ هو لا يطلب منك اللآلئ. هل فقدت تعقّلك ورصانتك؟ انه لا يطالبك بالاحسان، بل بطهارة الجسد. هل تحتقر وصية المحبة، لأن هوى الجسد يغلبك؟ لأي سبب تحارب النعاس بالسهرانات وتتعب جسدك بالصيام؟ ان هذه لا تنفعك، لكنها تشفي من الحسد. ان كل مرض في النفس والجسد يحتاج الى أدوية خاصة به تؤول الى الشفاء المطلوب.

- مضى شاب ورع الى الاماكن المقدسة كي يصبح كاهناً. ولما وصل، قام بالسجدات المختلفة، وامضى بضعة ايام في جبل الزيتون للصلاة، فغمر نفسَه انسحاقٌ عظيم وعشق الهي. ثم عاد بعد ذلك الى اورشليم، واعترف بكل خطاياه امام البطريرك، ورجاه ان يفرض عليه قانوناً صارماً. الا ان البطريرك الذي لم يكن يرى سبباً يدعوه الى تأديب الأخ، اعرب له عن اعجابه بتواضعه، وقال له:

ليس من العدل ان اعاقبك يا ولدي، طالما ان الله غفر خطاياك.

الا ان الشاب كان يرى نفسه خاطئاً كبيراً، فقام وجعل لنفسه كوخاً على جبل الزيتون، واغلق على نفسه، وربط رجليه ورقبته بسلاسل. فقال له البعض: ومن ألبسك السلاسل يا اخي؟

فكان يقول لهم:

الرئيس فرضها علي بسبب جرائمي.

وكان كثيرون قد اعتقدوا انه قاتل. اما الشاب فظل يحتمل ثقل الحديد على رقبته وفي رجليه، الى ان افتقده ملاك طاهر مرة، وقال له:

لا حاجة لك الى هذه بعد اليوم، لأن خطاياك جميعها غفرت لك.

للحال سقطت السلسلتان وتحرر الأخ.

ومن جديد رآه بعض المغرضين، فقالوا يجربونه: ومن فك سلسلتيك؟

فقال لهم: انه نفسه من حل خطاياي. وبعد ايام رقد بسلام.

- وشاب آخر قرر أن يتوب بعد ان سمع عظة بعد الانجيل. فقام وصنع قلاية في البرية وراح يصلي كل يوم، وهو يبكي خطاياه، اذ لم يكن هناك ما يعزّي نفسه به.

وذات يوم، وبعد منتصف الليل، ظهر له يسوع مجللاً بالنور السماوي، ووقف بقربه وقال له: ما بك يا انسان؟ لماذا تبكي بألم؟ قال له ذلك بصوت لطيف وناعم.

قال الشاب : اني ابكي يا رب لأنني سقطت.

فقال له يسوع : انهض.

فقال الأخ : لا استطيع النهوض بمفردي.

فمد ملك المحبة يده الطاهرة وأعانه على النهوض. الا ان ذاك راح يبكي من جديد.

فقال له المسيح : ولماذا تبكي الآن؟

فقال له: ابكي لأني اتألم. فأنا قد احزنتك يا سيدي. فقد بددت غنى مواهبك التي اعطيتني بالبذخ والشطارة.

فوضع السيد يده على رأس الشاب، وقال له بوداعة فائقة وحنو: اذا كنت تتألم لأنك احزنتني، فأنا قد نسيت ماضيك وخطاياك. فرفع الشاب

عينيه ليشكر السيد الذي كان قد اختفى. ولكن في الموضع الذي كان يقف فيه، ظهر صليب نوراني مضيء. فقام الشاب الذي قد انعتق من ثقل خطاياه، وسجد له وقبّله.

بعد هذه الرؤيا عاد الشاب الى المدينة كي يكون كارزاً بالرب بعد أن مسّت قلبه التوبة، وشرع يقود كثيرين الى المسيح.

- قال احد الشيوخ : اذا كنت تنهض من سقطتك بفعل توبة نقية، فلا تكف عن الحزن من اجلها، بل واظب على التنهد حتى نهاية حياتك، والا فأنت في خطر الوقوع في الخطايا من جديد. فالحزن المرضي لله يبهج النفس ويحميها من الزلل.

- يخبرنا الأب دانيال تلميذ الأب ارسانيوس ان اباه كان يغيّر ماء الخوص مرة واحدة في السنة. واذا كانت تنقص، كان يزيدها حسب الحاجة. ومع الوقت صارت رائحة المكان لا تطاق، ولم يعد احد يقدر ان يقترب من هناك.

فسأل الشيوخ الأب ارسانيوس:

وكيف تحتمل هذه النتانة يا ابانا؟ ولماذا لا تغيّر ماء الخوص بين الحين والآخر؟ فقال لهم: عندما كنت في العالم كنت اتنشق روائح وعطورات زكية. وينبغي الآن ان احتمل قليلاً من التعب والصبر علّني انساها.

- عاش اثنان كانا ينسكان معاً. وذات يوم وقعا في الكسل والتواني. فبدل ان يجاهدا لاصلاح سيرتهما، قاما وتركا البرية وعادا الى العالم. وهناك خبرا كل صنوف الرذائل والبذخ والشطارة. ولكن مع الايام سئما هذه السيرة، وَمَقَتا الخطيئة، وقالا فيما بينهما وهما يتوقان الى التوبة:

ماذا جنينا من جرّاء احتقار السيرة الملائكية ومن جراء مجيئنا الى ههنا؟

لقد افسدنا نفوسنا واجسادنا، وبدّدنا الحياة الابدية. هلّم نعد الى البرية لنبدأ بالتوبة الحقيقية من جديد. وهكذا كان. فعندما وصلا،

اعترفا بخطاياهما بتوبة وندامة، وقبلا تأديب الآباء بأن يلازما قلايتيهما سنة كاملة لا يكلمان احداً ويأكلان قطعة خبز صغيرة بعد غروب الشمس.

وعندما انقضت السنة، مضى الآباء اليهما ليحلّوهما من التأديب. فهذان اللذان كانا في سن متشابه، وكانا على تشابه في الوجه، ظهرا للآباء وكأنهما مختلفان. فقد بدا الاول نحيلاً، اما الثاني فكان اكثر فرحاً. فتساءل الاباء: من اين اتت هذه الاختلافات بينهما طالما ان قصاصاً واحداً اعطي للاثنين؟ فقال الاول: كنت افكر في الليل والنهار بخطاياي، وبالعقاب الابدي الذي ينتظرني بسببها. كان الهم والقلق يقضّان مضجعي. لقد ذبل لحمي، والتصق جلدي بعظامي. اما الثاني فأجاب بتواضع: كنت اشكر الله كل يوم، من كل قلبي، فهو لم يدعني اموت بدون توبة، لأنتهي في العذاب الابدي، بل ضمّني الى حضنه الابوي كما فعل الأب الحنون مع الابن الشاطر. وهذه الافكار ملأت نفسي بالشكر والعرفان، وغمرت كياني بالفرح.

وبعد ان سمع الآباء كل هذه، قالوا : ان توبة الاثنين مرضية لله.

- مضى شاب أُثقل قلبُه بالخطايا، الى ابيه الروحيّ ليعترف له. ولما مثل امامه قال: يا ابت، ان افكاري تعذبني. فهي تحثني على ترك الجهاد بعد توبتي والتصاقي بالمسيح. ولست قادراً ان اتخلّص من كل ضعفاتي. فقال الأب:

انت تذكرّني بأمور جرت مع احد اصدقائي قبل سنوات. ولكن تعال واجلسْ الى جانبي يا ولدي كي اطلعك على قصة صديقي ذاك.

فقام الشاب وجلس بجواره واذنه متلهفة لسماع تفاصيل الرواية من الأب. فقال الأب:

كان لأحد اصدقائي حقل عند الطرف الاقصى من القرية. وكان هذا الحقل مهملاً لم يُزرع منذ سنوات. وكانت الاعشاب البرية والاشواك قد نمت فيه بشكل كثيف.

وذات يوم فكّر صديقي ان يزرع حقله المهجور. ولكن لا بد له قبل ذلك ان يرفع الاعشاب القديمة ويفلح الارض. فأرسل ابنه الاكبر للقيام بهذه المهمة. ولكن عندما رأى الشاب هذه الاشواك والاعشاب، شعر باليأس لأن المهمة صعبة وشاقة. فراح يقول في نفسه:

لا يبدو لي انني استطيع ان اعدّ الحقل للزرع الجديد، فكيف سأستطيع ان ارفع هذه الاشواك؟ وهكذا تمكن ان يقنع نفسه انه من المستحيل ان يقوم بهذه المهمة. فاستلقى تحت شجرة ونام.

ولما استيقظ كانت الشمس قد ارتفعت الى كبد السماء. فنظر الى الحقل، فرأى كم من العمل ينتظره فيه حتى يصلحه، فارتعش. لكنه ظل في مكانه لا يحرك ساكناً حتى المساء. وفعل الشيء نفسه في اليوم التالي، وما بعده. وكان كلما نظر الى الحقل انتابه شعور عارم ورغبة بالنوم. ومن جديد كان ينام ثم يعود ويستيقظ. ومع ذلك لم يكن ليقوم بأي عمل لاستصلاح الحقل وزراعته.

ولما رآه والده بعد حين، قال له والغضب يتأكله: مرت ايام وايام، دون ان تقوم بعمل لتنظيف الحقل من الاعشاب والاشواك. فقال الابن : في كل مرة امضي الى الحقل وارى ما هو الحال عليه، تمل نفسي. والى الآن لم استطع ان اتخذ قراراً ببدء العمل فيه.

فقال الأب:

لو انك قررت ان تنقي جزءاً من الارض كل يوم، لكنت الآن على وشك الانتهاء.

فخجل الابن من نفسه، وأخذ كلمة ابيه على محمل الجد وقام للعمل.

ثم قال الشيخ:

افعل انت ايضاً مثله يا ولدي، وقم الى العمل، وعندما تعود، اخبرني اذا كان الامر صعباً ان تستأصلَ بالصبر اهواء نفسك. فمضى الشاب وهو

يحمل في داخله قوة جديدة من جراء هذا الاعتراف. وقرر ان يتابع الجهاد المغبوط طوال حياته.

٢- ذكر الموت :

قال الأب اغاثون : اذا استحضر المسيحي في كل لحظة الدينونة الرهيبة التي تعقب الموت، فإنه لن يخطئ بسهولة.

- كان ناسك ينسك في برية الاردن لسنوات دون ان يجربه ابليس. فأعطاه ذلك شجاعة كي يقول لنفسه ان ابليس لا يتجاسر ان يحارب المجاهدين. وراح يتردد على الكسالى والمتوانين.

وذات يوم ظهر له ابليس وشكا له قائلاً:

ماذا عملت لك يا ابت حتى انك ما تزال تتكلم ضدي وتحتقرني؟ هل سبق ان جرّبتك؟

فقال الناسك:

اغرب عن وجهي ايها الروح الشرير. فقام الى عصاه وهمّ بضرب ابليس. وقال له: ليس لك الحق ان تجرّب عبيد المسيح. اذهب الى المتوانين، الذين بسبب كسلهم يدعونك اليهم.

فقال ابليس:

اهكذا تفكر بي؟ قال تلك الكلمات بخبث ومكر. ثم تابع ابليس يقول: او تظن انني لن اجد الفرصة كي اطيح بك في الاربعين سنة التي بقيت من عمرك؟ ولما قال هذا اختفى في الهواء مخلّفاً وراءه ضحكاً وقهقهة. ومنذ ذلك الحين تبلبلت افكار الشيخ. وراح يقول في نفسه: بقي لي اربعون سنة. انها فترة طويلة.

وبعد حين قال: ولماذا لا اذهب الى العالم لأزور اقاربي ومعارفي؟ ولماذا لا اعطي جسدي الذي اضناه النسك، قليلاً من الراحة اعود بعدها الى الجهاد من جديد؟ انها اربعون سنة امامي. لماذا لا استفيد منها؟

وذات صباح، قرر ان يذهب الى العالم، فحمل عصاه ومشى الى المدينة.

لكن الله الكلي الرحمة والحنان، حزن لموقفه، فأرسل ملاكه كي يعرقل رحلته بعد كثرة الجهادات والاتعاب في البرية.

وفي الطريق، استوقفه الملاك الصالح وقال له : الى اين تمضي يا ابت؟

قال الشيخ وقد بدا في عجلة من امره: الى العالم.

فقال له الملاك: يا مباركاً من الله، افي نهاية حياتك قبلت ان يسخر منك ابليس؟

قم وعد الى قلايتك وابكِ سخف نفسك قبل ان يفوتك الاوان. فخجل الشيخ من نفسه، وقام وعاد الى قلايته. وبعد ثلاثة ايام رقد.

- قال احد الشيوخ لبعض الرهبان الشباب الذين جاؤه لينتفعوا منه:

ان من يضع الموت نصب عينيه، يغلب صغر النفس.

وهو نفسه كان يؤكد لهم : لقد احضرت ذكر الموت الى نفسي بعدد المرات التي اخطأت فيها.

- قال احد الشيوخ : قبل ان تباشر أي عمل، اطرح على نفسك السؤال التالي: اذا افتقدني الله في هذه اللحظة، فماذا اقول:

انتبه واسمع جيداً ما يقوله لك ذهنك وضميرك.

ان عمّال الفضيلة ينبغي ان يكونوا مستعدين للموت في كل لحظة.

وعندما ترقد لتنام، او عندما تستيقظ في الصباح، عندما تجلس لتتناول طعامك، او عندما تهمّ بمغادرة المكان الى عمل ما، كل حين، ابدأ بالقول لنفسك هكذا : اذا دعاني الرب الآن، ترى هل انا مستعد لتلبية النداء؟

فاسمع جيداً لما يقوله لك ضميرك، ولا تتململ عندما تمثل امامه. وقلبك سيوجس لك ان الله يرحمك كل حين.

- عندما مرض الأب ارسانيوس الكبير وادرك ان نهاية حياته باتت وشيكة، بدأ يبكي.

فسأله بعض تلاميذه، وقالوا له : وهل تخاف الموت يا ابانا؟

فقال لهم: ان هذا الخوف يا اولادي،لم يفارقني طوال حياتي. فمنذ ان اصبحت راهباً، لم اغلق فم الله عندما كان يكلمني.

- قال الشيخ اشعيا المتوحد : ثلاثة يصعب على المرء اقتناؤها يا احبائي:

- النوح

- الدموع

- وذكر الموت

وهذه الثلاثة قادرة ان تمسك بباقة الفضائل كلها .

اما فيما يتعلق بذكر الموت، فيقول:

ان من يدرّب نفسه كل يوم على القول:

اليوم هو اخر ايام حياتي ،لا يمكن ان يخطأ امام الله طوعا.

اما الذي يظن ان حياته ما تزال طويلة على الارض، فإنه قد ينسى الدينونة العتيدة، فيبقى في عبودية الخطيئة.

- يقول الأب افاغريوس:

لا تنس الدينونة العتيدة. لا تنس انك ستخرج يوماً من العالم الارضي. واذا فعلت هكذا، فان نفسك لا تخطئ.

- ويقول أب آخر :

اجمع ذهنك جيدا ايها المسيحي. وتذكر ساعة موتك. استحضر امام عينيك صورة جسدك الترابي. وحاول على الدوام ان تشعر بألم انفصال النفس عن الجسد. تأمل في تفاهة العالم المادي. واطلق فكرك في رحاب قصاص جهنم. فكّر في اية حالة سيكون الناس هناك. فكر بالخوف

والرعدة والتنهد والعذابات المريرة. فكر باليأس العميق الذي ينتظر الناس. فكّر بالقصاصات العظيمة التي ستصيب الناس بعد الدينونة الاخيرة .

اجعل في ذهنك يوم القيامة العامة الرهيبة حيث سيقف الجميع امام الديان. فكّر بتلك المحكمة الرهيبة وبالخطأة البائسين الذين هناك .

واذ تتأمل بكل هذه. فإنك تغلب هذه الافكار الشريرة، والاعمال الخبيثة، وتصبح اهلا للفضيلة .

- قال الأب ايليا : ثلاثة تهزّني يا اخوتي.

١- انفصال النفس عن الجسد

٢- مثولي امام الديان الذي لا يحابي الوجوه

٣- والقرار الذي يأخذه القاضي ضدي.

- يقول احد الشيوخ : لو كان بالامكان، بعد القيامة، وفي المجيء الثاني الرهيب، ان تخرج النفوس من الاجساد، لمات جميع الناس هلعاً. لأنه كيف يستطيع المرء ان يحتمل رؤية السموات تتمزق والله يَغْتَلِن بغضب ضد الخطأة، ورؤية طغمات الملائكة مع كل الخليقة في مكان واحد؟

لنفكر بهذه كل حين. ولنحيا بدون ريب ساعة حدوث كل هذه. وبهذا فقط نصبح اهلاً لتقديم الحساب عن اعمالنا في اية ساعة يدعونا الله.

- قام شاب يريد ان يكرّس حياته للمسيح، فترك امور العالم وتوجّه الى طور سيناء ونسك هناك. ولما وصل الى جبل سيناء، وجد قلاية مهجورة فدخلها واقام فيها، واصلحها، وعقد العزم ان يبقى فيها طوال حياته.

وذات يوم وجد فوق باب القلاية الخشبي كتابة لا بد ان من اقام في القلاية قبله هو من تركها وراءه.

وكان كل صباح بعد الصلاة يلقي نظرة على هذه الكتابة كما لو كان امامه من كتبها، وكان يقول: اين انت يا رجل طالما انك تقول لي انا هنا

وما ازال اشهد. اني اشعر بوجودك لكني لا اجد اليد التي وضعت هذه الكلمات الحكيمة. ولما رقد، قام الاخوة في الجوار وتوجهوا الى القلاية ليأخذوا كتب الشيخ بركة لهم، الا انهم لم يجدوا شيئاً فيها، ما عدا ورقة كتب عليها: سامحوني يا اخوتي وابائي لأن فكري كان مشغولاً بالموت على الدوام، فلم تعط لي الفرصة كي ادوّن اي شيء.

- يقال عن ناسك عاش في رايثو انه لم يغادر قلايته على الاطلاق. وكثيراً ما رآه الاخوة يتوقف عن عمل اليد ويُطرق رأسه الى الارض. وكان يتحرك ببطء وهو مطرق الرأس، وكان يقول : ترى ماذا سيحدث؟

وكان يُمضي بعض الوقت صامتاً يجفف دموعه التي كانت تنهمر بغزارة من عينيه، ومن ثم يعاود الكرة من جديد.

وسأله ذات يوم بعض الاخوة قائلين له:

بماذا تفكر يا ابانا حتى انك تبدو حزيناً ومتمرمراً؟

اجابهم قائلاً:

افكر ان اليوم هو آخر ايام عمري. واحسرتاه لم اشغل نفسي بما يكفي من اجل خروجي.

- اذا اضطرمتْ في نفسك - كشمعة مضاءة - شهوةُ ملكوت السموات، فكن على يقين انك سريعاً ما تصبح وارثاً لها. هذا ما قاله لنا الأب بروخيوس.

- قال احد الشيوخ:

لا تعجب يا اخي (مخاطباً احد الرهبان) عندما يقال لك انك انسان وينبغي ان تجاهد كي تصبح ملاكاً. فكر كيف ان الله الكلي القدرة، وعد المجاهدين بمجد يفوق مجد الملائكة.

- قال بعض التلاميذ لأبيهم الشيخ وهو ناسك طاعن في السن:

ارحْ جسدك المتعب يا ابانا.

فأجابهم وقال:

اعتقد يا اولادي ان رئيس الآباء ابراهيم عندما رأى العطايا الالهية التي يستصعب الذهن البشري امتلاكها، تاب، وشرع يجاهد اكثر في حياته الارضية. هذا ما قاله الأب الشيخ.

- انه يدعو للاعجاب ما نقرأه عن النهاية المغبوطة لنفوس القديسين الذين كانوا انواراً ساطعة في هذه الدنيا وقد تركوا انوارهم فيها لينطلقوا بعد ذلك في رحاب الابدية.

- عندما علم النساك في جبل القديس انطونيوس ان الاب صيصوي اوشك ان يغادرهم، اجتمعوا في قلايته لأخذ بركته. وكان تقديرهم له يفوق حدود الوصف. وكانوا يلقبونه بـ لؤلؤة البرية. كانت سيرة صيصوي هذا، جهاداً من اجل القداسة. والآن عند موته سطع بريق قداسته في ملئه .

في هيئته كان ينعم بهدوء سلامي. وعندما شعر حوله بالمجاهدين والاخوة والاصحاب وهو العظيم في الجهاد، كان على شفتيه ما يود قوله. فأدمعت عيون الحاضرين، وكانوا يقفون حوله بورع. ساد في المكان صمت مطبق. وكان الجميع ينتظرون كلمة اخيرة من قديس عظيم، كلمة تحفظهم وتكون وديعة مقدسة في قلوبهم. اما ذاك فراح يلوذ بالصمت وهو لا ينظر الا الى السماء.

وبغتة سمعه الحاضرون يقول: جاء ابي.

فسرتْ بين الجميع قشعريرة. وللحظة شاهد الجميع بأم العين يد القديس انطونيوس تمتد لتحمل هذا العظيم.

ثم رأى البعض طغمة الرسل والانبياء. وهنا اضاء وجه القديس وراح يتمتم كما لو كان يكلم احداً يراه امامه. فقال له الحاضرون: ومن تكلم يا ابانا؟

قال لهم: الملائكة تريد ان تحملني لكني اضرع واصلي ان ابقى قليلاً كي اتوب. قال هذا والدموع تملأ عينيه. فقالوا له:

لكن لا حاجة لك الى التوبة يا ابانا بعد اليوم.

لا حاجة لك الى التوبة، لأنك كنت تعيش فيها طوال حياتك.

فقال لهم:

لا ادري يا اخوتي. لعلّي لم ابدأ بعد.

ولما قال هذا، اضاء وجهه بنور سماوي.

فالمتحلقون حوله تعجبوا من الخوف. اما هو فراح يقول:

ربي والهي المجد لك. هذه كانت كلماته الاخيرة. بعد ذلك طارت نفسه الى الاخدار السماوية. فقد رأى المسيح الذي كان يعبده من كل قلبه طوال حياته. وغمرت القلاية سكينة سماوية يتعذر وصفها. وعبق المكان بشذى الروح. والجميع كانوا شهوداً على مجيء ملك السموات كي يطلب هذا الاناء المختار.

- ذات يوم نزل احد النساك الى المدينة كي يبيع عمل اليد، فتعب من المسير، فجلس على عتبة بيت مجاور كان بقرب الطريق. وبغتة رأى الناسك الذي كان يستريح، مجموعة من الفرسان المتّشحين بالسواد.

ولما اقتربوا، نزلوا عند الباب وتوجهوا الى البيت. ففهم الشيخ ما يجري، فقام وتبعهم حتى وصل الى غرفة كان فيها مريض يحتضر. ولما رآهم المريض صرخ: يا الهي خلصني.

اما هؤلاء فسخروا منه، وقالوا:

أعند غروب حياتك تذكر الله؟ لقد فات الاوان. لماذا لم تذكره في مطلع حياتك؟ اما الآن فأنت ملك لنا. ولما قالوا هذا ضربوه، ورحلوا.

بقي الناسك في مكانه حزيناً لهول ما رأى. ولما عاد، اطلع الاخوة على ما جرى، لمنفعتهم، لأن الله كشف له ذلك.

- قرر شاب ان يكرس حياته لله، فتبع سيرة آباء البرية.

بيد ان امه لم تتركه، وبذلت ما بوسعها لعرقلته.

اما هو فراح يقول لها:

انت تخطئين الى الله لأنك تعرقلين مسيرتي نحوه. وانا اريد ان امضي لخلاص نفسي.

وفي النهاية تمكن من اقناعها. وقام وتوجّه الى البرية، فوجد قلاية فدخلها وبدأ ينسك بمفرده.

وبعد حين بلغه نبأ وفاة امه التي لم تكن ذات سيرة مسيحية على الاطلاق.

في البداية بدأ الشاب جهاده بحماسة عظيمة، ولكن مع الوقت بدأ يفقد حماسته الاولى، وملّت نفسه الوحدة، فأهمل واجباته وفرائضه. وفي النهاية لم يعد يولي خلاصه الاهتمام الكافي.

وذات يوم مرض وأشرف على الموت. فرأى احد الاخوة انه كان حزيناً جداً، فقد رأى ان نفسه تنفصل بعنف عن الجسد ويلقى بها في هاوية مظلمة، ورأى امه في اسفل الهاوية، فقالت له:

وانت ايضاً يا ولدي، حُكم عليك بالمجيء الى هذا المكان؟ فأين هي الكلمات التي كنت تقولها لي بأنك تريد خلاص نفسك؟ لقد اصبحت راهباً، ونفسك لم تقدر ان تخلصها.

فخجل من نفسه ماذا عساه يقول لأمه. وتمنى لو تنشقّ اعماق الجحيم وتبتلعه. وفي تلك اللحظة العصيبة التي كان يمر فيها، سمع صوتاً يقول: اعيدوه. يجب ان نعطيه الوقت لاصلاح سيرته.

فعاد الى نفسه، واطلع اخاه الراهب عما رأى وسمع.

وبعد أيام شفي من مرضه وتجدّد داخلياً. فقام وحبس نفسه داخل القلاية وراح يبكي بمرارة وهو يتوب عن التواني العظيم الذي مر به.

فقال له الشيوخ:

لا تفعل هكذا يا اخانا، لأنك ستمرض من جديد لشدة حزنك .

فقال لهم:

كيف لا ابكي وانا اذكر ما قالته لي امي؟ وهكذا، تمكن هذا الانسان، بنعمة الله ان يبلغ القداسة.

- ذات يوم زار العظيم باخوميوس احد الأديار التي كان قد اسسها هو نفسه. وفجأة بلغه ان احد الاخوة مريض ويريد رؤيته. فقام وانطلق، ليقينه ان امراً عظيماً يجري. واصطحب معه عدداً من الرهبان.

ولم يكن قد اجتاز منتصف الطريق، عندما وقف فجأة، فالجو كان يعبق بالالحان الكنسية. رفع رجل الله عينيه الى فوق، فرأى نفس الأخ ترتفع، بينما راح الملائكة ينشدون ويرتلون.

اما الرهبان الذين كانوا يرافقونه، فلم يكونوا يرون شيئاً، بل كانوا يشاهدون الشيخ يقف وسط الطريق وهو ينظر الى السماء.

ثم قال له الشيوخ:

لنسرع يا ابانا كي لا نضطر ان نبيت ههنا. لأنه يجب ان نكون عند الأخ المريض قبل ان يموت.

فقال لهم:

ان اخانا يسير الآن في الدرب المغبوط.

- بينما كان القديس مكاريوس يسير في البرية، رأى جمجمة على يمين الطريق، فهزّها بعصاه وخاطبها كما لوكانت انساناً امامه، وقال لها: من انت؟

فقالت الجمجمة: انا كاهن البعل في مصر. وانت مكاريوس على ما اظن.

ثم قالت الجمجمة: عندما تصلي، اذكرنا في صلواتك، لأن الصلوات تريحنا.

ووجد البار الفرصة سانحة كي يسأل عن عذابات الجحيم وعن الراحة التي يمكن ان يحوزها السجناء هناك.

فقالت الجمجمة: كما تبعد السماء عن الارض، هكذا هي نار العذابات. فنحن في الوسط، ولا يستطيع الواحد منا ان يرى الآخر لأننا محدودون ومقيدون بحيث لا يستطيع الواحد منّا ان يرى شيئاً. ولكن اذا صلى واحد من ساكني الارض من اجلنا، عندئذ يتمكن احدنا ان يعاين رفيقه ويتعزى.

ملعونة هي الساعة التي فيها يولد في العالم انسان خاطئ ويائس. كان خيراً له لو لم يولد كما قال يسوع عن يهوذا.

ثم عاد البار وسأل الجمجمة:

وهل هناك مكان للعذاب اعظم واكبر؟

نعم، تحتنا تماماً.

فسأل البار: ومن يمضي الى هناك؟

نحن الذين لم نعرف الله الحقيقي نجد بعض الرحمة. اما الذين عرفوه، الا انهم بأعمالهم انكروه، فهم يتعذّبون على نحو لا يُحتمل ولا يُطاق. ولما اخذ البار هذه المعلومات، قام ودفن الجمجمة وتابع طريقه وهو يبكي وينوح من اجل الخطأة الذين لم يتوبوا، سيما المسيحيين منهم.

- بينما كان الأب سلوان يصلي مع تلاميذه، اختطف لكنه ظل راكعاً يحني رأسه الى الارض. ولما نهض، رآه تلاميذه يبكي.

فقالوا له:

لما انت حزين يا ابانا؟

فاضطر البار ان يعلن لهم ان ذهنه، أثناء الصلاة، تجاوز حدود العالم المادي، ووصل الى الدينونة، فرأى رهباناً كثيرين يدانون ويرمون في جهنم، بينما كان كثيرون من اهل العالم يرفعون الى السموات. فدينونة الذين تركوا العالم لتكريس انفسهم لله وعبادته، احزنت البار، فكان ينوح من اجلهم طيلة حياته، ولم تكن دموعه لتجف بسببهم. ولم

يكن ليريد ان يغادر قلايته. ولكن عندما كان يُجبر على ذلك، كان يغطي رأسه كي لا يرى العالم الذي حوله.

- قرّر شقيقان ان ينسكا معاً. فقاما وتوجها الى البرية واقاما قلاية لكل منهما. ووضعا لنفسيهما قوانين صارمة مفادها انهما لن يغادرا القلاية ولن يرى احدهما الآخر كي لا يتشتت ذهنهما في الدنيويات. بل سيعكفان على عمل اليد بهدوء، ويصليان على الدوام، ويجاهدان من اجل ملكوت السموات.

وبعد سنوات، مرض الاصغر بينهما. فلما علم به النساك المجاورون، قاموا لزيارته فشاهدوه مخطوفاً. فسألوه بعد ان عاد من الاختطاف: وماذا رأيت؟

قال: كانت الملائكة تصعدني واخي الى السماء. اما ملائكة الهلاك، فكانت تحاول ان تعرقل صعودنا. ومع ذلك، كنا نعبر بدون غم وانزعاج.

ولما انزعجت الشياطين، بدأت تصرخ وتقول: عظيمة هي قوة العفة...

ولما كان الأخ يسرد هذه الانباء للآباء، رقد.

فقام هؤلاء ليبلغوا الأخ الآخر بأن اخاه الذي ينسك بجواره رقد، فوجدوه جثة هامدة.

- القصة التالية نقلتها الى ابيها الروحي عذراء كرّست نفسها لله. فقام الأب الروحي ودوّنها كما سمعها من فم ابنته الروحية وذلك عبرة ومنفعة للآخرين، كي تستفيدَ قلوبهم.

قالت الفتاة: ان والدي اللذين جاءا بي الى العالم، لم يكن لهما طباع متفقة، بل كانت اتجاهات كل منهما في الحياة مختلفة.

كان ابي انساناً صالحاً وديعاً متواضعاً ليناً رحوماً عاقلاً وعفيفاً وحالته الصحية حساسة جداً. ومما اذكر، انني كنت في اغلب الاحيان اراه مريضاً طريح الفراش نحيلاً وضعيفاً. الا انه كان يحتمل كل ذلك

بصبر. ولم يسمع احد في يوم من الايام انه كان يتأفف من مرضه وعذاباته. وكان يمتلك حقولاً، فكان يوزع ارباحها وثمارها على الفقراء، والباقي كان يتركه ليعول به عائلته، اعني بها امي وانا، فضلاً عنه.

الى ذلك، كان ابي يتمتع بالصمت. فلم يكن يكلّم احداً. وكثيرون من الناس كانوا يظنونه اخرس. لكنه كان يصلي الى الله على الدوام بالذهن والقلب.

اما امي فكانت امرأة من هذا العالم، وكانت تحب الفرفشة والتلهي والألبسة والعطور والزينة. وكانت تتأفف على الدوام من انها تعيش في ضائقة اقتصادية. وكانت كثيرة العنف في المنزل وخارجه. وكانت البائسة تعرف دقائق الامور عن حياة الناس في المدينة. وكانت دائمة الاهتمام بنفسها. اما اهتمامها بنا، فكان يأتي بالمرتبة الثانية. وزوجها، لم تكن لتُبدي نحوه أي عطف واهتمام ومحبة. وبموقفها هذا كانت تزيد من عذاباته. ورغم عيوبها ونزقها، لم اكن يوماً اراها مريضة.

وكنت صغيرة، عندما مات ابي بعد امراض وعذابات وآلام. وفي يوم دفنه كانت الأنواء شديدة، وكانت الرياح تعصف والامطار تنهمر، مع بروق ورعود. فلم نكن نتمكن من الخروج به لدفنه. وهكذا، ابقينا جثمانه داخل البيت ثلاثة ايام.

وفي النهاية أرغمنا اثنان من العائلة ان ننقله الى المقبرة كي ندفنه، لأننا لم نعدنحتمل رؤية الجثمان في البيت. فكان ابي محتقراً حتى في موته. ولم تُقمْ عليه صلاة الجناز. فقال بعض الاشرار من الجيران:

من يدري ما هي الخطايا التي ارتكبها هذا الرجل حتى ان الله لا يسمح حتى بدفنه؟

وبعد رحيل ابي، حوّلت امي البيت الى جحيم. ولم تعش كثيراً. فماتت فجأة بينما كانت تبعزق ما بقي من ثروة ابي. فأجريتُ لها جنازة عظيمة وكانت الطبيعة في احلى احوالها يوم دفنها.

اما انا فكنت قد تركت ما للطفولة، وكبرت وعرفت قلق الشباب، ووجدت نفسي في العالم لا ادري أي درب اسلك. وكانت افكاري تعذبني. وكنت أقول في نفسي: ينبغي ان اخط لنفسي درباً في هذه الحياة، فأبي ليس معي، وامي تركتني لوحدي. وامامي نموذجان فقط: نموذج امي ونموذج ابي. ذاك طيب لكنه بائس وقد لحقته اللعنة حتى عند مماته. ولا استطيع ان انسى بقاء جثمانه بدون دفن طيلة ثلاثة ايام. وكنت اقول في نفسي: لو كان ابي مرضياً لله، فلماذا عذّبه؟

اما حياة امي، فلم تكن مثالية، وهذا كنت افهمه جيداً. وما اذكره انها كانت شديدة الاهتمام بنفسها، وكانت محبتها للزينة والبذخ وغير ذلك.. وكلما كنت اتأمل في نموذجي ابي وامي، كنت ازداد بلبالاً، ولم اكن اعرف ما يجب ان اختار.

الا ان الله المحب للبشر انتشلني من حيرتي على النحو العجيب التالي: ذات مساء، بينما كنت متوجهة الى فراشي، بعد تعب النهار، راح عقلي يشتغل، وبدأت الافكار تعتمر في رأسي، ولم أكن قادرة ان انام، فحلمت. شعرت فجأة وكأن باب غرفتي ينفتح ويقف فيه شاب كان وجهه يطفح بالنور، وكان بهي الطلعة. فدنا مني ووقف الى جانب سريري. ثم القى علي نظرة بدا منها وكأنه كان يمر امامي ليفحص خفايا قلبي.

وسألني: بماذا تفكرين؟

كانت نبرة كلامه خشنة، لكن قلبه لم يكن فيه خشونة، فاضطربت جداً.

اما هو فألح في السؤال:

ما بك؟ ما هي افكارك؟ بُوحي بها الي.

وكلما بدا هو خشناً، كنت انا ازداد خوفاً وهلعاً.

ولما ادرك انني لن اقول شيئاً، قام هو وكشف الافكار التي كانت

تعذبني. فكان يخبرني عن كل ما بي بمنتهى الدقة، بحيث انني لم اكن قادرة ان انكر اياً مما كان يقوله، ولم اكن ابالي بتبرير نفسي.

فسقطتُ عند قدميه كما لو انني في محكمة، ورجوته بالحاح ان يسامحني. وبيّن حقيقة نيّته نحوي عندما شعرت ان نبرته تغيّرت، بينما حزنه من اجلي تزايد.

فمد يده وامسكني من يدي ليحملني الى مكان كله نور وجمال، لست قادرة ان اصفه بالكلمات، لأنه يستحيل ان اصف ما لا يمكن وصفه.

وهناك رأيت كثيرين سعداء بهذه السكينة والبهاء. ورأيت ابي بين الحشود. ولما لمحته، وقع نظره علي، فقال لي:

تعالي الى جانبي. واخذني الى حضنه. ولست قادرة ان اصف مقدار الفرحة والسرور التي غمرتني في تلك اللحظة. فلم اكن اريد ان اتركه بل كنت اقول له بالحاح ان لا يتركني لوحدي. وكنت اقول: ارجوك يا ابي ابقني بجوارك.

وهنا تكلّم وبدا صوته اكثر جدية، وقال: اذا تبعتي طريقي يا بنيتي، سوف ينتهي بك الامر الى هنا، وهذا يعتمد عليك.

ثم نظر الي بوداعة وقبّل شعري ومسح دموعي. اما الذي كان يرافقني، فأشار الي ان اتبعه. لكني لم اكن اريد ان اترك والدي. لكن ذاك اقترب مني وشدّني من يدي وقال: من الضروري جداً ان تري والدتك ايضاً.

تبعته حزينة لأنه فصلني عن فرحتي. وهبطنا معاً الى ردهة مظلمة عفنة لا يستطيع احد ان يتنفس فيها لشدة قذارتها. كانت النفوس هناك تتعذب مضطربة. كانت السنة اللهيب لا تُطفأ. فلمحت امي وسط الجمع الغفير وكانت الحمم الحارة تغمرها حتى رقبتها. وكانت تصرخ بأعلى صوتها، وتنهداتها لا تنقطع. وكان صريف الاسنان في كل مكان.

اما انا فكنت اسمعها تقول:

الويل لي انا البائسة. انظري عذاباتي بعد المسّرات الدنيوية والتلهّي الذي عرفته. اما انا – ابنتها – فأوشكت ان اموت لفرط حزني.

ثم قالت لي امي:

احزني يا ابنتي على التي ولدتك وربّتك. مدّي يدك واخرجيني من هنا.

فقلت في نفسي:

ماذا اعمل وانا في حزني؟ فمددت يدي وانا اظن انني اقدر ان اخرج هذه البائسة التي جاءت بي الى العالم. ولكنني شعرت بألم شديد عندما اقتربت يدي من الحمم الملتهبة. وبعد حين لمحت بيتنا يعج بالناس، وكنت انا في اسوأ احوالي. لقد ظن الكثيرون انني فقدت صوابي. وكان يصعب علي ان افسّر لهم ما جرى. ورحت امد يدي لأريهم اثر النار على يدي عندما ادنوتها من الحمم الملتهبة. بقيت مدة طريحة الفراش مريضة جداً. ولما تماثلتُ للشفاء، بنعمة الله، قمت وسلكتُ بحسب نموذج ابي بدون تردد، راجية رحمة الله علي فهو سيخلصني ويؤهلني للمشاركة في بهاء خدره وملكوته.

– عندما شعر الأب ارسانيوس بدنو اجله، طلب من تلاميذه ان لا ينشغلوا بدفنه. فلما سمعه الأخوة اضطربوا.

لكنه هدّأ من روعهم وقال:

لم تأت الساعة بعد. وعندما تأتي اقول لكم. ولكني اطلب منكم في حضرة الديان، ان لا تعطوا رفاتي لأحد.

فسألوه: وماذا نعمل برفاتك؟ فقال لهم:

اربطوني بحبل وارموني عند سفح الجبل. وهناك اتركوني للحيوانات. قال هذا لأنه كان يخاف المجد الباطل بعد مماته.

ولما اتت ساعته، رآه تلاميذه يبكي، فقالوا له:

وانت ايضاً تخاف الموت يا ابانا؟

فقال:

صدقوني يا اولادي، ان هذا الخوف لم يفارقني منذ ان اصبحت راهباً. قال هذا، واسلم الروح.

- عاش في البرية ناسك لم ينزل البتة الى العالم. وكان يقوم بخدمته مسيحي فاضل. وكان هذا الأخير يأخذ عمل اليد ويبيعه ويحضر بدلاً منه بضعة خبزات يأتي بها الى الناسك.

وفي المدينة التي كان يسكنها هذا المسيحي، كان هناك انسان غني لم يكن يعيش بالفضيلة والاخلاق. وذات يوم مرض فجأة ومات. فأقام اهل بيته، تكريماً له، جنازة عظيمة تليق به. فحضر المطران وكل الكهنة للصلاة من اجل الراقد، ثم واروه في قبر من رخام كان هو قد انفق عليه الكثير قبل مماته.

وبعد دفنه قام المسيحي ومضى الى الناسك في البرية. فوجده ميتاً عند باب قلايته، لأن وحشاً ضارياً كان قد افترسه.

فاضطرب المسيحي وقال:

يا الهي! يا لها من احداث رهيبة تحصل في هذا العالم! هذا الغني الشرير مات بسلام ودفن بسلام وعزٍ وجلال. اما ذاك القديس الذي كرّس نفسه لك فلاقى ميتة شنيعة. لماذا تكون الامور هكذا يا رب؟

ولما كان مطرقاً في التفكير، سمع صوتاً يقول له: ان عدل الله لا يفهمه عقل المخلوق. فذاك الغني كان قد قام ببعض الاعمال الحسنة، فأخذ اجرته في العالم. لكن في العالم الثاني، فالعقاب ينتظره. اما الناسك الذي هو انسان، فكان له بعض العيوب والنواقص، وسدّد ثمنها ههنا كي يكون كاملاً امام خالقه هناك.

- عاش ناسكان في برية واحدة. ولكن قلاية الاول كانت تبعد قليلاً عن قلاية الثاني. الاّ ان الاثنين كانا يجاهدان من اجل خلاصهما.

وراح الاول يفكر بالموت، فاكتسب انسحاق القلب، ولم تكن الدموع لتجف من عينيه.

اما الثاني فكان عنده بستان كان يعتني به. وذات يوم، كان يجب على البستاني ان يذهب الى المدينة. فمضى الى الناسك المجاور، وطلب منه ان يعتني بالبستان اثناء غيابه. فقبل الناسك. فقام البستاني ومضى الى وجهته بسلام. فقال الأخ في نفسه: ما دام امامك متسع من الوقت، فلماذا تعتني بحديقة الأخ؟ ولما قال هذا بدأ يصلي وراح يذرف دموعاً كثيرة طوال الليل وفي اليوم التالي بدون توقف.

وبعد يومين، عاد البستاني من المدينة فرأى حديقته مهملة. فحزن وقام ومضى الى الناسك المجاور وقال له: فليسامحك الله على كسلك يا أخي. اهكذا كانت عنايتك بحديقتي؟

فقال ذاك:

يعلم الله يا اخي انني بذلت ما بوسعي للعناية بها. وارجو الله بنعمته ان يهبنا ثمارها.

قال هذا بينما راح ذهنه يتابع عمله الداخلي. ثم قال الناسك لأخيه: اذا لم تمطر اليوم، خسرنا كل شيء.

اما ذاك فكانت دموعه تروي بستان قلبه كي يؤتي ثمار الفضائل، فأجابه: الويل لنا يا اخي اذا جفّت الينابيع، فإننا سنفقد خلاصنا.

فدعا المسيح ملاكه الارضي. فلما ادرك الناسك ان ساعته وشيكة، نادى جاره الناسك، وطلب منه ان يعمل له معروفاً.

فقال جاره: وماذا تريد؟

قال الراهب المختصر:

عندما اموت، اريدك ان تحمل جثماني وترميه بعيداً كي تأكله الكلاب(*)، لأنني اخطأت ولا استحق الدفن. فاضطرب ذاك.

ولكني لا استطيع ان اعمل هكذا يا اخي، فإن نفسي لا تستطيع ان تفعل ذلك.

(*) هذه الفكرة رددها البار نيل سورسكي في القرن الخامس عشر.

فقال الناسك المحتضر:

اذا سمعت لي، وأطعتني، قم بهذا المعروف من اجلي. واعدك بأنني سوف اساعدك حيث اكون. فوافق الأخ بعد صعوبة عظيمة.

فقام وعرّى جسد اخيه ورماه للكلاب حسب وعده.

وفي اليوم الثالث لوفاته، ظهر له الميت في الحلم، وقال له: ليرحمك الله يا اخي كما رحمتني. لقد وجدتْ نفسي خدمة عظيمة في عملك. لقد صليت كثيراً من اجلك. لذا ارجوك اترك البستان، وتابعْ الانشغال بقلبك. ان النهاية وشيكة فَنُحْ وابكِ. لأن دموع الانسحاق قادرة ان تخمد لهيب جهنم.

٣- في مخافة الله:

سأل احد الشباب الورعين الأب افبرابيوس، وقال له:

كيف تستطيع النفس ان تقتني مخافة الله؟

فقال الشيخ:

ثمة طريقان آمنان يقودان النفس الى مخافة الله: التواضع واللاقنية.

- قال الأب يعقوب:

السراج المضاء يبدّد العتمة، اما مخافة الله، فتبدد ظلمة القلب البشري وتعلّمه الوصايا الالهية.

- وقال شيخ آخر وهو ينصح احد تلاميذه:

لا تألف نقد اخيك على اعماله، بل بادر الى نقد نفسك. وتذكّر في كل لحظة انك السبب في كل شيء. بهذا تولد مخافة الله فيك.

٤- في النوح المرضي لله:

اراد راهب مبتدئ ان يقطع دابر عيوبه، فتضرّع للحكيم الأب برصنوفيوس ان يعلّمه كيف يمسك لسانه ويجتنب الدالة.

فأجابه الشيخ وقال له:

ليكن النوح صديقاً لك يا ولدي، وهذا يعلّمك ما تريد.

فسأله الأخ:

وكيف استطيع ان احتفظ بالنوح في قلبي يا ابت، طالما انني ملزم على خدمة الناس؟ كيف اسلك مع الناس؟

اجابه الشيخ:

ابذلْ مشيئتك من اجل مشيئة الله وخلاص قريبك، ولا تبدِ اهتماماً بأخطاء الآخرين بل بأخطائك، عندها تقتني النوح وانت بين الناس.

ثم سأله الأخ:

وهل هناك نوح بدون دموع؟ قال هذا وهو متحرّق الى سماع الجواب.

اجابه الشيخ:

النوح لا يستدعي الدموع، بل الدموع النوح. عندما تكون افكارك مجموعة، وعندما تتذكر ان خطاياك احزنت قريبك، عندها يأتي النوح الى قلبك، وتأتي الدموع المدرّة للنوح، الى داخل عينيك.

- قال النساك الذين عايشوا العظيم ارسانيوس:

كان في عبّه قطعة قماش صغيرة كان يمسح بها دموعه التي كانت تنهمر باستمرار بينما راحت يداه تعملان بالخوص.

ورآه الأب بيمن مرة وهو يبكي، فقال له باعجاب:

يا ارسانيوس المثلث السعادة، لقد بكيت كثيراً وانت في هذا العالم، لذلك ستجد الفرح والغبطة هناك.

- يقال ان ثيوفيلس الاسكندري بكى وهو على فراش الموت وقال:

ايها المغبوط ارسانيوس، لم تنس يوماً اللحظة الحرجة من الحياة البشرية، فكنت تنوح وتبكي بلا انقطاع.

- اسدى احد الشيوخ النصيحة التالية لأحد الشباب الذين سألوه عن كيفية السبيل الى الخلاص، فقال:

اغصبْ نفسك يا ولدي كي تعمل ما يعمله السجناء. فأنت دائماً تسمعهم يسألون بقلق: اين الرئيس؟ متى يأتي؟ فتراهم يبكون ويرتجفون منتظرين اللحظة التي سيأتي فيها الجلاد كي يقودهم الى مكان تنفيذ حكم الاعدام. وانت ايضاً قل لنفسك:

ان مآثمي حكمت علي بالموت، فكيف سأمثل امام الديان؟ ماذا سأقول له؟

ابكِ ونُحْ على خطاياك، فتخلص.

- قال الأب لونجينوس:

من شأن الصوم ان يجعل الجسد متواضعاً، والسهر، أن ينقي الذهن. اما الهدوء فيأتي بالنوح الى القلب. ومن شأن النوح ان يعمّد الانسان ويجعله عديم الخطأ.

- وهو نفسه كان شديد الانسحاق والتواضع. فعندما كان يصلي او يرتل، كانت الدموع تنهمر بغزارة من عينيه.

وذات يوم سأله احد تلاميذه المبتدئين قائلاً:

وهل يجب على الانسان ان يبكي عندما يصلي يا ابت؟

اجل يا ولدي، اجابه الشيخ، وهذا ما يريده الله من الانسان الآن. فهو لم يخلقه منذ البدء كي ينوح ويبكي، بل كي يفرح ويسّبح الله بقلب نقي كما هو حال الملائكة. انما الخطيئة هي التي حرمته الفرح. لذا فإن الانسان الساقط، يحتاج الى النوح والدموع المعتقة. وحيث لا سقوط، لا ضرورة للنوح والدموع.

- قال احد الشيوخ:

عندما كنت صغيراً، كنت ارعى مع الصبية الصغار. وذات يوم اتفقوا ان يسرقوا التين، واخذوني بصحبتهم. ولما كنا عائدين، سقطت تيْنة من

السلة، فالتقطتها واكلتها. اما وقد ضرب الشيب رأسي، وتقدمت بي الأيام، فإنني في كل مرة اتذكر هذه الخطيئة، انوح وابكي.

- قال الأب موسى لتلاميذه:

اذا حدث ان سقطنا في خطيئة جسدية، فلنتب ونبكِ قبل ان يأتي اوان بكاء الدينونة.

- وذات يوم قال هو نفسه: الفضائل تتولد من الدموع، وبها تُعطى المسامحة.

ولكن عندما نبكي وننوح، ينبغي الاّ نرفع صوت تنهدنا كي لا يسمعنا احد. على يسارنا الا تعلم، اعني انه على المجد الباطل الاّ يعلم، ما تفعله يميننا، واعني بذلك حزن القلب.

- والشيخ نفسه قال عندما سأله احد الاخوة عن التجارب والافكار الشريرة: عندما تباغتك التجربة، بادر الى البكاء الى الله وصلاحه، واصرخ من كل قدرتك طالباً العون الالهي. فالله على مقربة من الذين ينادونه كما يقول الكتاب الالهي.

- بينما كان الأب بيمن منحدراً الى الاسكندرية، تاه وضلّ ووجد نفسه في مقبرة المدينة، فدخلها كي يتأمل تفاهة العالم قبل ان تطأ قدماه عاصمة مصر.

وعلى مقربة من قبر رخامي كبير، وقفت امرأة تلبس السواد راحت تنتف شعر رأسها وتبكي بمرارة. وكان بكاؤها يمزق القلب.

ففكر الشيخ في نفسه وقال:

ان كل مباهج الدنيا لو اجتمعت على تلك المرأة، لا يمكنها ان تستأصل حزنها وألمها. ثم قال: يا ليتنا نحن الرهبان نستطيع ان نضع مثل هذا النوح في قلوبنا فنبكي خطايانا على الدوام. قال هذا، وخرج متجهاً الى الاسكندرية.

- سأل احد الأخوة الرهبان الأب بيمن وقال له:

ماذا يجب ان اعمل يا ابت كي افوز بملكوت السموات؟

اجابه الأب الشيخ:

عندما استقر ابراهيم في ارض غربة، ابتاع لنفسه قبراً، وبه ورث الارض.

فسأله الراهب:

وما معنى القبر يا ابت؟

اجابه الشيخ البار:

انه مكان النوح والدموع.

- وسأل اخ آخر الأب بيمن وقال له:

كيف اخلص يا ابت؟

اذا علمنا يا ولدي ان الله يفتقدنا، فإننا سندرك ما علينا اولاً ان نتعب من أجله ونهتم به.

فقال الأخ:

علينا ان ننشغل بخطايانا يا ابت.

فقال الشيخ وهو يسدي له النصيحة:

اذاً، اغلقْ على نفسك داخل قلايتك، وابكِ خطاياك الى ان يرحمك الله.

- قال الشيخ اسحاق للأخوة:

جلسنا مرة مع الأب بيمن ورحنا نحيك الخوص. وفجأة رأيناه يتوقف عن العمل وينظر الى البعيد وكأن ذهنه كان يجول في السموات. كانت علامات الألم بادية على وجهه، وكانت الدموع تنهمر من عينيه بغزارة. فنظرت اليه مطولاً دون ان اتجاسر ان اسأله عما كان يجري. ولما عاد الى نفسه، رجوته ان يطلعني اين كان ذهنه وافكاره قبل ساعة. اما هو فَرَبَتَ على كتفي وقال:

كنت جالساً عند قدمي المصلوب الى جانب السيدة العذراء. وكم كنت اتمنى لو استطيع ان ابكي مثلها.

- قال الأب بولس بتواضع شديد:

اشعر انني غارق حتى اذني في اوحال الخطيئة.

لذا فإني ابكي الى السيد من كل قلبي واقول: ارحمني يا رب.

- كان الأب سلوان يمتلك الحزن المغبوط على الدوام في قلبه، لذا لم يكن يوماً يرغب ان يغادر قلايته في الصحراء.

وعندما كان يضطر ان يغادر قلايته، كان يغطي رأسه ويقول:

لست مستحقاً ان ارى النور، لأنني ما ازال اعيش في ظلمة الخطيئة. قال هذا وهو يجيب بعض الاخوة عن سبب اغماضه لعينيه.

- قال احد الآباء:

النوح والدموع هما بلسم تعزية للنفس، لأنهما هبة من الله.

- كان احد الاخوة يحتفظ بالندامة اثناء الصلاة، وذلك لأنه كان يحتفظ بالنوح المغبوط في قلبه.

وذات يوم بكى كثيراً، وذرف دموعاً كثيرة. وهو نفسه وقف وساءل نفسه: ألعّل نهايتي باتت وشيكة؟ ومع ذكر الموت، تدفقت دموعه مدرارة، وتزايد النوح المغبوط في قلبه، وذلك لأنه كان يعيش لله.

- سأل بعض الاخوة البار ثيوذور الفرمي ذات يوم:

كيف هذا ان الدموع تأتي لوحدها اثناء الصلاة، وفي احيان اخرى تجف نهائياً؟

فقال الشيخ الحكيم:

ان دموع النوح هي اشبه بالمطر الذي تارة ينهمر بغزارة، وتارة اخرى ينحبس.

فعندما تهطل الامطار، يقوم الفلاح الحكيم ويزرع حقله ويسعى كي لا تُهدر قطرة ماء واحدة.

وكثيراً ما يكون هطول المطر ليوم واحد، كافياً بحيث يمد الارض بالقوة والحياة لسنة كاملة، ويكون الثمر عظيماً.

لذا على الفلاح الروحي ان ينتبه ليزرع حقل نفسه بالانتباه واليقظة عندما تنهمر الدموع التي تولّد ثماراً روحية يانعة يستهلكها ايام الجفاف. ومن يدري متى تهطل امطار الدموع المغبوطة والمباركة!

- قال احد الشيوخ:

عندما تشعر بالانسحاق في قلبك، اترك كل شيء وبادر للقول الى نفسك: العل ساعة رحيلي باتت وشيكة، حتى ان الله ارسل الي النوح والدموع كي يخلصني؟ وكما ان ابليس في النهاية يحارب الانسان بضراوة كي يرميه في الشر، هكذا فإن لله طرقاً وسبلاً بها يُعينه على الخلاص.

- ترك شابان عالم مصر وذهبا لينسكا في جبل النطرون. وهناك تتلمذا على ناسك قديس وكانا يجاهدان من اجل خلاص نفسيهما. وبالاضافة الى فضائل كثيرة اكتسباها، اضيف لهما النوح المغبوط، فكانا كل يوم يذرفان دموعاً كثيرة.

وذات يوم بينما كان ابوهما الروحي يُصلي من اجلهما، رأى رؤيا غريبة: كان الراهبان يصليان وهما راكعان، وراح كل منهما يمسك بيد ابيه الروحي بينما كانت شفاهما ترددان افكار قلبيهما وكانت الدموع تجري غزيرة من عيونهما وتتساقط على ورقة كانا يكتبان عليها. فحدث ان الدموع عند الاول محت الكلمات التي كان قد دوّنها، بينما الثاني، فقد زالت بعض الكلمات التي كان يكتبها، لكن دموعه لم تكن لتمحو الكلمات التي دوّنها.

فاضطرب الشيخ لهذه الرؤيا وحزن جداً من اجل الأخ الثاني ليقينه انه كان يجاهد ايضاً.

فتضرع الى الله وقال:

يا الهي، قل لي ما معنى هذا الذي اراه؟

فكشف له الله ان الكلمات التي كان يكتبها كل منهما هي خطاياه، فكان للأول خطايا صغيرة ونواقص وضعفات استطاعت الدموع ان تمحوها كلها. اما خطايا الثاني فكانت كبيرة ومميتة ومتجذرة في نفسه وهذه تقتضي جهوداً كثيرة واتعاباً يومية كي يتم استئصالها.

وفي اليوم التالي التقى الشيخ بهذا الراهب اثناء الاعتراف، وراح يعينه ويجاهد معه كي يستأصل هذه الاشواك المتجذرة في اعماق قلبه. وكان يقول له:

جاهد يا اخي، لأن هذه الامور صعبة ولكن من الممكن محوها.

لكن الشيخ لم يبحْ له بأمر الرؤيا التي كشفها له الله كي لا يثبّط من عزيمته وجهاده.

وبمعونة الله وجهاد الراهب وصلاة الشيخ استطاع الأخ ان يمحو حروف كلماته بدموعه كما حصل للأخ الاول.

- كان ناسكان يعيشان معاً، ويصليان معاً. فكانت دموع الاول تمحو الكلمات المكتوبة في وسط الصفحة.

فسأله الراهب الثاني:

بماذا تفكر عند ما تبكي بألم وتوجع اثناء الصلاة؟

اجابه وقال: اعتقد يا اخي انني في تلك اللحظة اكون راكعاً عند قدمي السيد الديان عاجزاً عن اعطاء الحجّة للدفاع عن نفسي. لا بل اجد نفسي في فزع كبير فأجهش بالبكاء. سامحني اذا كنت ازعجك بما افعل. ولكن اذا كنت ترغب، يمكننا ان نصلي كل على حدة.

فقال الراهب الثاني:

كلا يا اخي، انت لا تزعجني البتة. بل على العكس، انا انتفع منك

كثيرا. فأنا ليس عندي موهبة الانسحاق، لذا فعندما اراك، يتحرك قلبي، فألوم نفسي على قساوتها.

ولم يمض وقت طويل حتى وهب الله الأخ الثاني موهبة الانسحاق وغزارة الدموع.

- قال احد الشيوخ لتلميذه:

اذا كنت لا تشعر بانسحاق النفس يا ولدي، عندما تصلي، او تدرس كلمة الحياة، فاعلم ان فيك المجد الباطل او حب اللذة، فهذان الوحشان يطردان الانسحاق من قلب الانسان.

- نزل ناسك الى المدينة بصحبة تلميذه. واضطرا بسبب اعمالهما ان يتأخرا في العودة الى البرية بضعة ايام. فعندما كان ينزلان الى الشارع في الصباح، كانا يلاحظان المارة رجالاً ونساء وهم يروحون ويجيئون امام المقبرة. وكان كل منهم يقف امام ضريح عزيز له، فهذا يقف مدة اطول، وذاك مدة اقصر. لكن الجميع كانوا يبكون ويتنهّدون. فقال الشيخ: لعمري، كم من الآلام تختبئ في قلوب هؤلاء الناس؟

ثم قال لابنه:

اترى دموعهم يا ولدي! الا اني اعتقد ان هذا النوح ليس مرضياً لله، وذلك لأنهم لا يبكون خطاياهم. وإذا اتعظنا وبدأنا نبكي مثلهم،على خطايانا، فسوف نخلص.

ولما عادا الى البرية، كان اول امر قاما به ان حفر كل منهما قبراً امام باب قلايته وبدأ الاثنان يبكيان امامه كل يوم كما لو كان هناك انسان مُسجى امامهما. واذا حصل ان نام الشاب، بسبب تعب النهار والصلاة والسهر، كان الشيخ يوقظه ليذكّره بالذين كانوا يبكون امواتهم في المدينة.

وذات يوم قال التلميذ لأبيه الروحي:

يا ابت ان نفسي قاسية كالحجر اليوم، ولا استطيع ان ابكي.

فقال ابوه:

جاهد قليلاً يا ولدي. فالله سيرى تعبك ويرحمك.

ثم اردف قائلاً:

تتألم يا ولدي لأن قلبك يقسو بين الحين والآخر ولا يسكب الدموع. النوح يشبه شمعة مضاءة لا يستمر نورها الا اذا حافظت عليه وغذيته. فكثرة الطعام وكثرة النوم يجففان الدموع. اما النميمة وكثرة الكلام فتبدد النوح بالكلية. لكن الانسان الورع الذي يحب المسيح ويرغب ان يحتفظ بالنوح في قلبه، فعليه ان يبذل نفسه مرات ومرات كل يوم.

فسأله الراهب: وما نوع البذل اليومي هذا يا ابت؟

قال الشيخ:

انها تضحيات وبذل نقوم بها فتتفتّح شخصيتنا وتصبح مشابهة ليسوع المسيح. فإذا وجدت خبزاً طازجاً، فاتركه لغيرك، واكتف انت بالخبز الجاف حباً بالمسيح. واذا قدم لك خمر، فاتركه لسواك حباً بمن ذاق الخل على الصليب. او احتسِ بعضاً منه واترك اغلبه قائلاً: هذا للمسيح. واذا اصابك البرد لأنه ليس عندك غطاء، فلا تتأفف، بل فكر ان المسيح كان عارياً على الصليب حباً بك. ولا تطلب ان يكون طعامك معدّاً جيداً، بل تذكر كيف جاع المسيح وعطش من اجلك. ولتكن كل امورك مقرونة بحزن، وعش بتواضع كما فعل المسيح عندما كان على الارض. بهذا تجد الراحة الابدية في الدهر الآتي.

الفصل الخامس

١ - في الصلاة:

- يقول كاتبو سيرة القديس ارسانيوس انه كان يرفع يديه للصلاة - مثل موسى آخر- عند غياب الشمس، ولم يكن يخفضهما الا عندما تلفح وجهه انوار الشمس عند الصباح التالي.

- زار رئيس دير كان قد اسسه القديس ابيفانيوس القبرصي، الأب القديس وقال له برضى وانشراح:

بصلواتك يا صاحب السيادة، نحن لا نكسر قانون الصلاة الذي جعلته لنا. فنحن نتلو الساعات: الاولى والثالثة والسادسة والتاسعة.

فقال المطران ابيفانيوس:

وماذا تفعلون خارج هذه الساعات؟ الا تنشغلون بالصلاة؟ اذا كنتم لا تفعلون هكذا، فأنتم لستم رهباناً.

فلما لاحظ المتحدّث استغراب رئيس الدير قال:

حقاً، الراهب هو من ينشغل بالصلاة كل حين.

ثم اردف هو نفسه يقول:

النبي داوود رغم انه كان ملكاً، كان محارباً، وكان يصلي عند المساء. وفي منتصف الليل كان ينهض ليسبح الله كالملائكة. وقبل شروق الشمس، كان ايضاً يقف للإبتهال والتضرع. وفي كل حين كان يرفع يديه وقلبه ليشكر السيد الخالق. وكان يصلي صباحاً وعند منتصف النهار. لهذا السبب يقول:

سبع مرات في النهار سبحتك يا رب.

- يقول احد الآباء الشيوخ:

المسيحي الذي يتذكر ان عليه ان يكلم الرب، فقط عندما تأتي ساعة الصلاة، هو انسان لم يتعلّم بعد ان يصلي.

- قال احد الآباء الشيوخ:

النفس تحتاج الى هذه الاربعة:

١- ان تخاف قضاء الله الاخير

٢- ان تمقت الشر والخطيئة

٣- ان تحب الفضيلة

٤- وان تصلي لله بلا انقطاع.

- قال الأب ثيوذور كاهن الاسقيط:

عندما كنت شاباً، لم يكن عندي وقت محدد للصلاة. فكنت اصلي على الدوام طوال النهار، ومعظم ساعات الليل.

- قال الأب ثيوذور:

لولا ان الله يغض النظر عن كسلنا وتشتتنا اثناء الصلاة، لما استطاع احد ان يخلص.

- زار بعض رهبان الاسقيط احد الآباء الشيوخ كي يسترشدوا عنده. اما ذاك فاستقبلهم بفرح. وبعد ان بدأ الجميع بالصلاة، جلسوا، وراح الشيخ يجيب على تساؤلاتهم.

وعندما قاموا ونهضوا ليرحلوا، قالوا للشيخ: ألن نصلي يا ابانا؟

فقال باستغراب: ألم نكن نصلي؟

قالوا: اجل، يا ابانا، لقد صلينا عندما اتينا، وبعد ذلك تكلمنا.

فقال الشيخ:

سامحوني يا اولادي. لكني اعرف ان واحداً منا اقام تسعة ابتهالات اثناء الحديث الذي دار بيننا.

- عاتب الأب اشعيا كاهن منطقة بيلوسي الاخوة عندما راحوا يتحدثون على المائدة، وقال يقول لهم: لا تتكلموا يا اولادي، لأن مائدة الراهب هي كنيسة.

ثم قال: رأيت فقيراً كان يأكل مع الاخرين وكانت صلاته عاموداً من نار ارتفع الى اعالي السماء.

- ذات يوم، عبر الرهبان بجوار قلاية الأب لوكيوس، فاستوقفهم وتكلم اليهم وقال:

وما هو عملكم يا اخوتي؟

فقالوا له:

ليس عندنا عمل مادي على الاطلاق. بل نتبع نصيحة القديس بولس الذي يقول: صلوا بلا انقطاع.

فقال لهم:

أليس عندكم وقت لتناول الطعام؟

قالوا: نعم. فقال لهم:

الا تنامون؟

قالوا:

قليلاً فقط.

فقال لهم:

وعندما تنامون، من يصلي لأجلكم؟

فصمتوا.

فقال لهم:

في الحقيقة يا اخوتي انكم لا تسلكون على قاعدة ما تقولون.

- قال احد الآباء: عندما يصلي ذهني تعمل يداي. ومن عمل اليد اجمع ١٦ ليرة انفق بعضها على خبزي اليومي والباقي اتصدق به على المحتاجين والفقراء والمرضى والاخوة الذين لا يستطيعون ان يعملوا . والاخوة الآخرون يفعلون الشيء نفسه. فعندما نأكل او ننام، فإن الفقراء يصلون من اجلنا. وقلبنا يقول لنا اننا بهذا نعمل حسب قول الرسول.

- سأل بعض الاخوة الأب اغاثون وقالوا:

ما هي اصعب الوصايا؟

اجابهم ذاك قائلاً:

انها الصلاة يا اخوتي.

فعندما تنهض النفس لتتحدث الى خالقها، فإنها تجاهد ضد الارواح الشريرة التي تعرقلها. فهي تعرف ان ليس من سلاح امضى في وجهها من الصلاة.

والنفس عندما تقتني كل الفضائل، فإنها لا ترتاح حتى تتعلّم ان تصلي كما يجب. وهكذا، فالجهاد من اجل الصلاة ضروري طوال الحياة.

- اجتمع الاخوة في الاسقيط مرة حول البار مكاريوس ورجوه ان يعلّمهم كيف تكون الصلاة اللائقة.

فأجابهم وقال:

ان اعظم خطيئة نرتكبها هي النميمة. ويكفي ان يتعلّم المرء ان يرفع ذهنه الى السماء ويقول من كل قلبه: يا رب ارحمني كما تعلم وكما تريد. هذه هي الصلاة.

واذا شعر المرء بهجوم ابليس وبانتفاضة الاهواء، فليسرع الى الآب السماوي يناديه بملء الفم والقلب ويقول له:

اعنّ يا رب. وذاك يعرف السبيل لمساعدته. يكفي ان نسرع اليه بثقة.

- ان من يجمع ذهنه عندما يصلي، ويصغي لما يقول، فإنه بلهيب صلاته يطرد الشياطين كما يقول القديس افرام السرياني. اما من يكون مشتتاً عندما يصلي، فإن الشياطين تلعب به يميناً ويساراً.

- امضى احد النسّاك عمره حبيساً داخل مغارة. وكان عمله الوحيد هو الصلاة. وكان الآب السماوي يعتني به اعتناءه بطيور السماء، لا بل كان يطعمه على نحو غريب. فكل يوم وبعدغروب الشمس، كان هذا يجد رغيفاً طازجاً عند مدخل المغارة. وهذه الحالة دامت لسنوات عديدة.

وذات يوم زاره ناسك آخر. وبينما كانا يتكلّمان، راح الناسك الاول يعلّمه كيف يحيك الخوص بطريقة افضل. وعندما غابت الشمس كان الشيخ متعباً وجائعاً. ولما خرج الى باب المغارة لم يجد الخبز الذي اعتاد ان يجده. وهكذا نام بدون ان يتناول شيئاً. وفي اليوم التالي عاد الى عمله من جديد. ولما خرج بعد غروب الشمس الى خبزته المعهودة، لم يجد شيئاً. فحزن وصلى الى الله ان يكشف له خطيئته كي يتوقف عن ارتكابها. فسمع صوتاً يقول له:

عندما كنت تنشغل بي فقط، كنت انا اطعمك. اما وقد شرعت تقوم بعمل اليد مع شخص آخر، فمن العدل ان يبادر ذاك الى اطعامك.

- ذهب احد نساك الاسقيط الى برية سيناء لزيارة الرهبان الذين كانوا ينسكون هناك. وفي الطريق، صادف واحداً منهم فصعد الاثنان الى جبل سيناء وراحا يتكلمان في الأمور الروحية.

فقال راهب الجبل:

نحن أمام وضع حرج يا ابت، فالسماء لم تمطر منذ شهور، وقد شحّ الماء عندنا.

فقال له الشيخ الزائر:

ولماذا لم تصلّوا الى الله كي يرسل لكم المطر؟

فقال راهب الجبل:

اننا نقيم الصلوات والسهرانيات، لكن الله لا يستجيب لنا.

فقال الزائر:

اذاً يبدو انكم لا تصلّون كما يجب.

ثم قال الزائر:

هلم يا اخي لنصلي معاً. وارجو ان يستمع الله صلاتنا وتضرعنا. فوقف الاثنان، فرفع الشيخ الزائر يديه الى السماء وصلى بحرارة الى الله طالباً منه ان يرسل المطر.

ولم ينه هذا صلاته، حتى رأى الناسك الآخر سحابة داكنة تتحرّك في كبد السماء، وتُسقط حمولتها فوق المكان الذي كانا فيه.

فذهل الشيخ للاعجوبة التي اجترحت امام عينيه. وبعد ذلك سجد للناسك وقبّل قدميه. اما ذاك، ولكي يتحاشى المجد والثناء، لم يتابع السير، بل توقف وعاد ادراجه الى قلايته.

- ذات يوم سأل الأب لوط اباه الشيخ يوسف وقال له:

اقيم صلاتي اليومية في حينها، واصوم حسب طاقتي واحتمالي، وادرس كلام الحياة، واصلي واعيش في الهدوء حسب وسعي وطاقتي، واحاول جاهداً ان انقي افكاري. ترى ماذا علي ان افعل سوى هذه كي اخلص؟

فسمعه الشيخ، فوقف ورفع يديه الى السماء كي يصلي. فلاحظ الأب لوط وكأن اصابع الأب يوسف كانت شموعاً مضاءة، فتعجب.

فلما رأى الشيخ استغراب لوط، قال له: بيدك يا ولدي ان تكون ناراً مضطرمة.

- ذات يوم مضى الأب موسى الى بئر الاسقيط ليملأ جرته، فوجد الراهب زخريا الذي كان يصلي، ورأى روح الله نازلاً عليه وكان يغمره.

- طلب احد الرهبان الشباب من الأب صيصوي بعض النصائح.

فقال له:

اذا اردت يا ولدي ان تُرضي الله، ابتعد عن العالم، ولا تشغل ذهنك بما هو دنيوي. ارتفع فوق المخلوقات الى الخالق. وابك اثناء الصلاة. بهذا فقط تجد نفسك الراحة هنا وفي الابدية.

- يقال عن الأب تيثو انه كثيراً ما كان يُختطف الى السماويات وهو يرفع يديه الى فوق أثناء الصلاة.

- يقول الآباء:

الصلاة هي مرآة المسيحي.

- نزل الأب بمفو الى المدينة ذات يوم مع بعض الاخوة. وفي الطريق صادفوا اناساً قرويين ومزارعين كانوا قد تركوا حقولهم واستلقوا على الارض طلباً للراحة.

فقال لهم الشيخ:

انهضوا يا اخوتي لالقاء التحية على الرهبان واخذ بركتهم فهؤلاء يكلمون الله كل حين بأفواههم المغبوطة.

- مضى احد الرهبان ذات يوم لزيارة الأب ارسانيوس. ولما اقترب، اجال نظره في انحاء القلاية ليتأكد من وجوده فيها، فرآه يصلي وكان كله نورانياً. وحاول الأخ ان يتظاهر كأنه لم ير شيئاً، فهمّ بقرع الباب، وانتظر الجواب. فقام الشيخ وفتح له، وكان العجب بادياً على وجهه، فسأله الشيخ:

منذ متى وانت على الباب؟

اما الأخ فحاول ان لا يحزنه، فلم يتكلم على نحو يبدي له ما رآه.

- مضى الراهب زخريا الى قلاية ابيه الروحي لأخذ البركة قبل الشروع بعمل جديد. فقرع الباب ودخل دون ان يسمع الجواب، فرأى

الشيخ مخطوفاً إلى العلاء. فمضى الشاب بهدوء دون ان يقول شيئاً، ودون ان يزعج الشيخ. وعاد عند الظهيرة، فوجد الشيخ يصلي ويداه مرفوعتان الى السماء، فقفل عائداً الى قلايته. وعند المساء، عاد من جديد، فرأى الشيخ جالساً على كرسيه الصغير ويداه مصلّبتان فوق صدره بينما راح يطرق في التأمل والتفكير.

فسأله الراهب زخريا وقال:

ماذا يحصل لك اليوم يا ابت؟

قال الشيخ:

تبدّل قليل يا ولدي. ولكنه ليس بذي بال. لا ينشغل بالك.

الا ان زخريا لم يقتنع بهذا الجواب، بل قام وانطرح عند قدمي الشيخ وتضرع اليه قائلاً:

لن انهض من امام قدميك حتى تقول لي ما رأيت.

فاضطر الشيخ ان يعترف له ان ذهنه كان قد ارتفع اثناء الصلاة وراح يعاين مجد الله.

- قال الأب ذولاس:

ذات يوم بينما كنا نسير، ابي وانا، على ضفاف البحر الميت، شعرنا بعطش شديد.

فقلت لأبي: انا عطشان يا ابت

فقال لي: اشرب من البحر

فنظرت اليه بعين الاستغراب، وقلت في نفسي: وكيف اشرب ماء البحر المالح؟

في هذه الاثناء كان الشيخ يصلي ويداه مرفوعتان الى العلاء. للحال انزل عينيه وبارك الماء وقال:

اشرب يا ولدي.

فأطعته، وضممتُ راحتي في الماء حتى امتلأتا، وشربت دون ان اشعر بالملوحة، فالماء كان طيباً جداً.

وعندما رأيت هذه الاعجوبة، حاولت ان املأ اناء كان معي، فقال لي الشيخ: وماذا تفعل يا ولدي؟

قلت: انني املأ هذه كي اشرب عند الحاجة يا ابت.

فنظر الي الشيخ نظرة استغراب وقال:

الله هنا يا قليل الايمان. وهو نفسه هناك، وفي كل مكان.

وذات يوم كنا نريد ان نعبر النهر، لكننا لم نجد القارب فقد غادر قبل وصولنا. وكان الأب الشيخ على عجلة من امره، فصلى ومشى الى الضفة الثانية فوق الماء.

فسألته بعد حين:

وكيف كنت تشعر يا ابت وانت فوق الماء؟

فقال:

كنت اشعر بالماء يلامس اعلى كاحلي. اما ما هو اعلى من ذلك فكان جافاً لا تصل اليه المياه.

·· عاش في جنوب الاسقيط ناسك بسيط كان يقول ان ملكيصادق هو ابن الله.

وعندما علم اسقف تلك الابرشية بذلك، دعاه وفسّر له ان ملكيصادق كان ملكاً وكاهناً لا اكثر. لكن الشيخ لم يصدّق كلام الاسقف.

ثم قال للاسقف: امهلني ثلاثة ايام يا سيدي حتى اسأل الله.

وبعد ثلاثة ايام مضى الى الاسقف وقال له بفرح:

الآن انا على يقين يا سيدنا ان ملكيصادق هو انسان.

فقد صمتُ وصليتُ الى الله ان يكشف لي الحقيقة. للحال رأيت امامي الآباء يعبرون الواحد بعد الآخر، من آدم وحتى ملكيصادق. ولما عبر ملكيصادق امامي، سمعت صوتاً يقول:

هذا هو ملكيصادق. فادركت الحقيقة.

- مضى الشيخ عمون يوماً لزيارة القديس انطونيوس. ولما كان يجتاز تلك البطاح للمرة الاولى، ضلّ السبيل، وراح يمشي على غير هدى دون ان يصل الى قلاية الأب انطونيوس.

وعندما ادرك انه قد ضل، ركع وصلى وقال: يا رب، ايرضيك ان يتيه عبدك في هذه الصحراء؟ للحال وجد يداً راحت تشير الى الدرب. فقام وتابع مسيرته حتى وصل الى غايته.

- قال الأب موسى:

اذا كانت صلاتنا لا تتفق واعمالنا، فعبثاً نصلي.

فسأله الاخوة: وكيف نحقق الانسجام بين الصلاة والعمل؟

قال الشيخ: هذا يحصل يا ولدي، عندما نطبق في حياتنا، ما نبحث عنه في صلاتنا. بهذا تكون صلاتنا مقبولة لدى الله. فعلى النفس ان تعمل مرضاة خالقها ، لا مرضاتها.

- كان احد الرهبان في الاسقيط حاراً اثناء الصلاة لكنه بارد في غيرها.

وذات يوم مضى الشيطان الى احد الشيوخ وقال له بسخرية:

انتم اناس متناقضون

فسأله الشيخ: لماذا؟

فقال ابليس:

ان الراهب الفلاني هو هكذا. فهو يفعل مشيئتي في كل شيء، وعند الصلاة يقول: لكن نجنا من الشرير.

- يقول الأب اشعيا الناسك:

عندما تصلي بانسحاق وانت تشعر بعدميتك، فإن الله يقبل صلاتك

تواً. اما اذا كنت تصلي بينما يكون ذهنك منشغلاً بأفكار شتى، كأن تقول: فلان نائم وفلان كسول، فتبدأ الدينونة ضد هذا وذاك، عندها فإن جهدك كله يضيع سدى.

- يقول البار مكاريوس المصري:

عندما كنت في الاسقيط، قرع باب قلايتي ذات يوم انسانان غريبان، شابان، بدا انهما كانا شقيقين. والاكبر بينهما لم تكن لحيته قد اكتملت بعد. فطلبا مني باحترام شديد، ولطف، ان ادلّهما على قلاية الأب مكاريوس.

فقلت لهما:

ماذا تريدان منه؟

قالا: سمعنا عنه الكثير، ونريد ان نتعرف عليه.

فقلت لهما:

انا هو من تقصدان.

فصنعا مطانية، وطلبا مني ان ابقيهما بقربي. وقد ابديا الرغبة ان يصبحا راهبين عندي.

في هذه الاثناء لاحظت انهما ليسا فقط حديثي السن، بل لطيفين ومتعلمين ايضاً. لا بل بدا الاثنان من عائلة غنية وشريفة المحتد.

فقلت لهما للحال:

يستحيل ان احتفظ بكما في قلايتي في هذا المكان المقدس.

فقالا: اذا كنت تطردنا يا ابت، فنحن قد قررنا ان نتوغل الى عمق الصحراء. اما الأخ الاصغر سناً، وكان ينظر الى الارض، فلم يكن يفتح فمه ليقول كلمة.

فقال البار مكاريوس: ورحت افكر في نفسي واقول: لماذا اقصيهما عني واعثرهما؟ لماذا لا احتفظ بهما، فهما من تلقاء نفسيهما سيشعران بضرورة التخلي عن الفكرة؟

فقال لهما:

اذا كنتما تظنان انكما تستطيعان ان تمكثا هنا، فلماذا لا تقومان باعداد قلاية خاصة بكما؟

فشكراني وطلبا مني ان اريهما المكان الذي سيقيمان قلايتهما عليه. فأعطيتهما بعض ما توفّر عندي، فضلاً عن بعض الخبزات، وأصعدتهما الى قمة تلة مجاورة وقلت لهما:

رتّبا المكان، واقطعا ما انتما بحاجة اليه لبناء القلاية

فسأله الاكبر: وهل تقومون بعمل اليد هنا يا ابت؟

فقال الأب مكاريوس:

نحن نعيش من الحياكة يا ولدي. ثم قلت لهما كل ما اعرفه عن ذلك، وساعدتهما في كيفية الحياكة، واخبرتهما ان هناك من يأتي ليأخذ منكما عمل اليد ليبيعه ويأتيكما بالخبز بدلاً منه.

ثم جعلت لهما قانوناً للصلاة ودرس الكلمة، والصوم. وبعد ذلك ودّعتهما وعدت ادراجي الى قلايتي.

عاش الاثنان بسلام. وكنت اشعر انهما كانا دقيقين في تطبيق قانونهما اليومي حسبما اوعزتُ لهما.

ومضت ثلاث سنوات، ولم يظهر لي ما يعكر صفو حياة هذين الراهبين.

فقلت في نفسي:

يبدو لي هذا غريباً، فكم من الاخوة يمرون من قلايتي طلباً للنصيحة؟ فكيف ان هذين لا يأتيان -وهما على مقربة مني- طلباً للنصح؟ ولم اكن اسمع انهما يسترشدان على شيخ آخر. بل كنت اراهما في الاحاد والاعياد السيدية اثناء القداس الالهي، وكانا دائماً على قدر كبير من الرصانة والصمت. ولم يكونا يتلفظان بكلمة مع احد. فكانا بعد المناولة الالهية

يعودان ادراجهما الى قلايتهما. وبدا لي ان هذين يخفيان سراً عظيماً. فصليت من اجلهما كثيراً، وتضرعت الى الله ان يكشف عملهما الروحي.

وذات يوم قمت وتوجهت الى قلايتهما لأقف على تفاصيل حياتهما. ففتحا لي الباب، وعملا مطانية بصمت. فصليت كما هي العادة، وجلست معهما. وهنا اومأ الاكبر للأصغر ان يغادر المكان، للحال قام ذاك وتوارى عن الانظار. اما الاكبر فتابع الحياكة دون ان يقول كلمة.

ولما كانت الساعة التاسعة، سمعت ضربات على الخشب، فجاء الأخ الاصغر، لإعداد المائدة، وجعل عليها ثلاث خبزات، ورسم اشارة الصلاة مبقياً يديه معقودتين على صدره.

فقمنا وصلينا وأكلنا بهدوء. وبعد الطعام شربنا بعض الماء من كوب خشبي، وصلينا، ثم عاد الاثنان كل الى عمله.

وعند غروب الشمس سألني الأخ الاكبر:

هل ستبقى عندنا يا ابت؟

فقلت: اجل سأكون بضيافتكما هذا المساء.

فقام الأخ الاصغر وفرش لي بساطاً رهبانياً، وأعدّا بساطيهما. وصلينا جميعاً، ثم استلقى كل منا على حصيرته. اما انا، فكنت اصلي الى الله ان يكشف لي سرهما.

ولما تيقن الاثنان انني خلدت الى النوم، نهضا ورفع كل منهما يديه الى السماء وبدأ يصلي. اما انا فرحت اتابع ما يجري وأنا شبه مغمض العينين احاول ان لا يفوتني شيء مما يجري.

وفجأة رأيت مجموعة من الارواح الشريرة كالذباب، تنقضّ على فم الأخ الاصغر كما لو انها كانت تحاول ان تعرقل صلاته. ورأيت ملاكاً نورانياً كان بسيفٍ ناري يبدد هجمات هذه الارواح ويحول دون اقترابها منه.

وبعد ذلك عاد الاثنان الى حصيرتهما ليبدو كل منهما وكأنه نائم. وعندما استيقظنا في الوقت المحدد، قال لي الأخ الاكبر: هل تريد يا ابت ان نقرأ المزامير الاثني عشر؟

فقلت له: اجل

فبدأ الاصغر بالتلاوة. اما انا فرأيت لهيباً شديد الضياء يخرج من فمه راح يتصاعد نحو السماء. وعندما جاء دور الأخ الاكبر رأيت ان عاموداً نارياً كان يربط فمه بالسماء. وبعد ان اوشك النهار ان ينقضي، اعددت نفسي للرحيل.

ثم قلت لهما:

صلّيا من اجلي انا الخاطئ. وودّعتهما وتوجهت نحو الباب.

فصنعا امامي مطانية دون ان ينبثا بكلمة.

فغادرت وفي قلبي انطباعات حلوة. لقد وصل الاثنان الى قامة متقدمة في الحياة الروحية بفضل الصلاة والصمت.

وبعد أيام، قمت بزيارتهما، فعلمت ان الله كان قد دعا الاخ الاكبر اليه. وما هي الا ثلاثة ايام، حتى تبعه الاصغر ايضاً.

- قيل ان احد المبتدئين حاربته افكار نجاسة وكان حزيناً جداً اما هو ولعظم تواضعه، كان يقول: لن اخلص.

وذات يوم قام وتوجه الى احد الشيوخ للاعتراف، وطلب منه ان يصلي الى الله من اجله كي يبعد عنه هذه الاخطار.

فقال له الشيخ:

ليس هذا شأنك يا ولدي. فألح الأخ كثيراً. لكن الشيخ تابع يقول:

لن ارغمه على شيء

فقام ورفع يديه للصلاة، للحال توقفت الحرب ضده.

وبعد ايام، قام هو نفسه ومضى الى الشيخ وطلب منه ان يصلي من

اجله كي تعود اليه الحرب، وان يعود اليه تواضعه القديم. ثم قال الأخ للشيخ:

بدون الجهاد اجد نفسي اقع في افكار الكبرياء.

- قال شيخ:

انتبه لنفسك ايها المسيحي ان لا تظلم احد الاخوة اذا كنت تريد ان تكون صلاتك مقبولة لدى الرب. فالله يرفض صلاتك اذا كنت تظلم اخاك. وذلك لأن تنهدات المظلوم تحول دون وصول صلاتك الى مسمع الله.

فاذا علمت ان هناك من يظلمك، وحدث ان زارك هو نفسه يوماً، فلا تظهر له انك تعرف كل شيء، وانك حزين بسبب ذلك. بل ليكن محياك صبوحاً ووجهك هادئاً سلامياً، وحديثك عذباً، وذلك كي تجد صلاتك دالة لدى الله. هذه هي الكلمات التي كان احد الشيوخ يرددها على الدوام.

دونكم يا اخوتي ما يقوله الأب موسى عن الصلاة: انتبه يا ولدي ان تجعل في اعماق قلبك الاحساس الدائم بخطيئتك وذلك كي تكون صلاتك مقبولة لدى الله. فعندما تشغل ذهنك بخطاياك، لن يعود عندك الوقت لمتابعة اخطاء الآخرين.

- يقول الأب زينون:

واذا كنتَ تريد الله ان يستجيب لصلواتك، عليك عندما تقف للصلاة، ان ترفع يديك الى السماء، وتصلي من اجل اعدائك، والله سوف يهبك سؤلك للحال.

- سأل الاخوة في الاسقيط احد الشيوخ اذا كان الذين يطلبون من الاخوة ان يصلوا من اجلهم ينتفعون؟

اجاب الشيخ:

ان صلاة البار عظيمة في فعلها. ولكن بماذا تنفع صلوات القديسين ذاك المتواني الذي لا يبالي بخلاصه؟

ثم اخبرهم القصة التالية: عاش في الماضي رئيس دير ورع جداً وبار. هذا كان كل يوم يتلو الصلاة التالية: ارجوك يا ربي، لا تفصلني في الدهر الآتي عن اولادي الروحيين، بل اهلنا جميعاً ان نتمتع بالغبطة السماوية.

ولما قال له الله، بطريقة ما، ان كل واحد يُعدّ حياته بيده وباعماله فيبني حالته في الدهر الآتي.

وذات يوم اقترب عيد احد القديسين الذين يُعيّد لهم احد الاديار المجاورة، دعا اخوة ذلك الدير رئيس هذا الدير وكل اخوته كي يشاركوا في هذا الاحتفال المقدس. لكن ذاك قرر ان لا يذهب تجنباً للتكريم والحفاوة اللتين يلمسهما عند اخوة ذلك الدير.

وفي مساء العيد، سمع صوتاً خافتاً يقول له في نومه ان اذهب وشارك في العيد. فرضخ الشيخ الرئيس للصوت الالهي، وقرر ان يذهب الى الدير للمشاركة في عيده.

وفي صبيحة يوم العيد، اوعز لتلاميذه ان ينطلقوا الى الدير المجاور. وبينما هم في الطريق، صادفوا شيخاً طريحاً على الارض، فسألوه: ما بك؟ ماذا جرى لك؟

فقال: انا مريض. وراح يتنهد. ثم اردف يقول:

كنت ذاهباً الى الطبيب على حماري، وعندما وصلت الى هنا، رماني الحيوان عن ظهره، وأطلق ساقيه للريح. اما ماذا جرى بعد ذلك، فلست اعلم. ولم اجد من يعينني للخروج من حالتي. قال هذه الكلمات الاخيرة والألم ينهش لحمه.

فقال له رئيس الدير:

وماذا يمكننا ان نعمل لك؟ نحن نسير على الاقدام، وفي عجلة من امرنا.

ثم تابعوا السير كي يصلوا الى الدير في الوقت المحدد تاركين ذلك الانسان مرمياً على قارعة الطريق.

وبعد حين، عبر رئيس الدير من المكان نفسه، فرأى ذلك الرجل في حالة يرثى لها. فتوقف واصغى اليه وهو يتكلم، وسمع منه عن الآمه وعذاباته، ثم سأله بدهشة وذهول:

ترى ألم يمر من هنا عدد من الشباب؟ لماذا لم توقفهم وتطلب منهم ان يساعدوك؟ لا بد انهم عندما مروا من هنا، لمحوك وشاهدوك.

فقال المسكين:

اجل، لقد رأوني وكلموني، لكنهم كانوا في عجلة من امرهم، لذا لم يستطيعوا ان يعملوا لي شيئاً.

فتنهّد رئيس الدير بعمق، وخجل من تصرّف ابنائه، وقال للمريض:

توكأ علي قليلاً اذا كنت تستطيع ان تمشي.

فقال المريض: لا اقوى على الحركة يا ابت.

فقال رئيس الدير: هلم اذاً احملك على ظهري، والله سيعيننا كي نصل الى وجهتنا.

فقال المريض:

لكنك لا تستطيع ان تحملني على ظهرك هذه المسافة كلها.

لعلك شاب؟

ثم قال لرئيس الدير:

تابع سيرك يا ابت، ولا تُضع وقتك سدى معي. فقط صل الى الله كي يرحمني.

فقال رئيس الدير:

لن ادعك هكذا. سوف احملك الى المدينة.

فقام وحمله بجهد كبير على ظهره. في البداية بدا الحمل شاقاً وصعباً، فقد واجه الراهب صعوبة كبيرة في تثبيت قدميه بعد ان رفع المريض الى ظهره.

ولكن يا للعجب، فالحمل بدأ شيئاً فشيئاً يصبح سهلاً وخفيفاً حتى ان الشيخ راح مع الوقت يشعر، وكأنه لا يحمل شيئاً. ولما رفع عينيه لينظر الى المريض، وجد امامه ملاكاً نورانياً .

قال الملاك:

لقد ارسلني الله كي اعلمك ان تلاميذك سيكونون حيث انت، اذا اقتفوا اثرك وحذوا حذوك. قال الملاك هذا بصوت ناعم عذب. ثم توارى عن الانظار.

فراح رئيس الدير يفكر في نفسه. ثم قام وعاد الى الدير ليبدأ جهاداً جديداً. وكان يقول ان النفس بحاجة الى جهد مضنٍ كي تخلص.

- في كتاب الشهداء الذي تعج صفحاته بأعمال البطولة، طالعنا الرواية المؤثرة التالية: عندما كان مكسيميانوس امبراطوراً على روما، استشهد في مصر سنة ٤٠٣ رجل قديس يدعى اواروس شاب ضابط في الجيش. هذا القي القبض عليه لايمانه بالمسيح، وطرح في السجن. وهناك شرع يعلّم المساجين ويشجعهم على الثبات في الايمان. ولما حان الوقت كي يُسفك دمه من اجل المسيح معشوقه، نقل الى مكان الاستشهاد. لكن العناية الالهية دبرت امراً، فأرسلت امرأة مسيحية فاضلة تدعى كليوباترا. وكانت كليوباترا هذه ارملة على درجة كبيرة من الثروة وكان يعيش بجوار قصرها وحيدُها، وكان راهباً. تابعت هذه التقية اخبار العذاب التي كان يتكبدها المسيحيون كي يُرغموا على نكران المسيح. وكانت كلما استشهد انسان من اجل المسيح، تقوم وترسل من يأتيها بالجثمان وتدفع له المال، ثم تأتي بالشهيد وتدفنه بصلاة وورع في مكان خاص كانت قد اعدّته لهذا الغرض.

وبعد سنوات، مَلَكَ قسطنطين، فتوقفت الاضطهادات ضد المسيحيين. فتركت كليوبترا مصر وعادت الى مسقط رأسها فلسطين، وحملت معها رفات ذلك الضابط الشاب بمثابة كنز ثمين. ولما وصلت الى

فلسطين، انفقت مبلغاً كبيراً من المال شيدت به كنيسة عظيمة على اسم اواروس الشهيد، وجعلت رفاته في اساساتها.

ولما تم البناء، دعت الاسقف والكهنة في الابرشية لتدشين الكنيسة من اجل بدء الصلوات فيها. وبعد القداس الالهي الاول دعت كافة المصلين الى مائدة كانت قد اعدّتها بيديها بمساعدة وحيدها الراهب. اما هي فلم تضع لقمة واحدة في فمها. وقد حذا ابنها حذوها ايضاً. وبعد ان اكل الجميع وغادروا، قام الشاب ورتّب كل شيء وعاد الى غرفته لينال قسطاً من الراحة. وبعد حين تبعته امه وهي تحمل له شيئاً يأكله، فرأته محموماً. فعملت له ما هو مناسب، ناسية تعبه وجوعه. ولكن مع مرور الوقت كانت حرارته تزداد ارتفاعاً، حتى انه اوشك ان يفقد وعيه. فحملته الى الكنيسة التي كانت قد شيّدتها على اسم القديس اواروس.

وهناك وضعته على طاولة خاصة فوق المكان الذي اودعت فيه رفات الشهيد اواروس، ثم ركعت على ركبتيها وراحت تصلي بحزن عميق مخاطبة الشهيد كما لو كان حياً يمثل امامها، وتضرعت اليه ان يقوم بعمل ما كما حصل لأليشع وسومانيا (حادثة تتصل بشفاء هذين المريضين).

اما هي ولشدة حزنها وغزارة دموعها، اعياها التعب، فنامت. واثناء نومها رأت في الحلم ان السماء انفتحت لها، ومنها اطل الشهيد اواروس يعلو رأسه اكليل الشهادة. كان بهياً جداً، ومن المتعذر وصف جمال ذلك المشهد. ثم رأت انه راح يمد يده ويمسك بيد ابنها، بينما راح ملاك يضع اكليلاً فوق رأسه. ثم سمعت القديس اواروس يقول:

انا لا انسى يا كليوباترا كم وكم من المرات كنت اراك تركعين امام رفاتي. ثم التفت الى الشاب ابنها وأراه امه الثكلى والحزينة، وقال له:

يا صديقي يمكنك ان تعود الى امك. لكن ذاك انطرح عند قدمي القديس كمن لا يريد ان يتركه. ثم التفت الى الناحية الثانية ونظر الى امه، وقال لها:

اری انك مصرّة ان تحرميني هذه السعادة؟ أتريدين ان تعيديني من الابديات الى الدنيويات، ومن الفرح الى الحزن؟

كفّي اذاً يا امي عن النوح والبكاء، واعدّي نفسك للقائي. قال هذه الكلمة، ورقد. فانسكب بلسم تعزية في قلب هذه الارملة الثكلى. فقامت ودفنت ابنها في الكنيسة الجديدة، ووزعت كل ثروتها على الفقراء والمحتاجين، ولبست المسوح، وبقيت عند قبر الشهيد وقبر ابنها. وبعد سنوات رقدت هي نفسها وانتقلت الى جوار ابنها.

- قال احد الشيوخ وهو يسدي النصح للرهبان:

اذا كنتم تعملون، وحان وقت الصلاة، لا تقولوا في انفسكم: يجب ان انهي عملي ثم اصلي. او لماذا لا اقطع شوطاً في عملي، ثم اعود بعدها الى الصلاة؟ اترك بالاحرى كل عملك وقم لمقابلة الله، لأن العمل شيء، والصلاة شيء آخر. واذا فعلت هكذا، فإن نفسك تغتذي روحياً، وجسدك، مادياً. فأنت لا تستطيع ان تنهي عملك بدون بركة الله. وغيرتك على الروحانيات تظهر في الجسدانيات من الصبح وحتى المساء.

- بينما كان البار مكاريوس متجهاً الى كنيسة الاسقيط، وكان الله قد حباه موهبة النبؤة والتمييز، فكان يرى بعيني النفس ما يعجز الكثيرون عن رؤيته بعيني الجسد، رأى قلاية احد الرهبان تعج بالارواح الشريرة التي اتخذت شكل صبية واولاد راحت ترقص وتغني وتحدث الضجيج في جوار القلاية.

ففكر مكاريوس ان راهب تلك القلاية يسوده روح الكسل، لهذا السبب فإن الشياطين كانت تلهو معه وحوله كي تطيشه.

وعند انتهاء القداس الالهي، قام الأب مكاريوس وتوجّه الى قلاية ذلك الراهب، ولما وصل، قرع الباب. ثم قال للراهب الذي في الداخل:

يا أخي،اتيت من اجل خدمة تسديها لي.

فقال الراهب:

اشكرك يا ابت طالما ان هذا منك.

فقال له الأب مكاريوس:

صل من اجلي يا اخي لأني حزين.

فاستغرب الأخ لما سمع مكاريوس يكلّمه هكذا.

ثم قال له:

لكني غير مستحق ان اصلي من اجلك.

فقال الأب مكاريوس:

لن اغادر المكان الا اذا قطعت على نفسك وعداً ان تصلي من اجلي كل مساء.

فخجل الأخ، ووعد الأب مكاريوس بما اراد، وبدأ يصلي من اجله كل مساء.

وبعد حين قال الأخ لنفسه: يا غبي، كيف تصلي من اجل الأب مكاريوس، ولا تصلي من اجل نفسك؟ فقام للحال واضاف صلاة جديدة من اجل نفسه.

وفي الاحد التالي بعد انتهاء القداس، قام الأب مكاريوس ومر من امام قلاية الأخ، فرأى الشياطين حزينة، فأدرك ان صلاة الراهب بدأت تؤتي ثماراً. فقرع الباب ودخل. وبعد ان سلّم على الأخ بالطريقة المعهودة، طلب منه ان يضيف صلاة اخرى من اجله. فقبل ذاك. ثم عاد بعد حين، وقال لنفسه:

وكيف اقيم الصلاة مرتين من اجل الأب مكاريوس، بينما من اجل نفسي اصلي مرة واحدة؟ لماذا لا اصلي من اجل نفسي مرتين ايضاً؟ وهكذا شرع يصلي اربع مرات عند المساء كل يوم اثنتين له ومثلهما للبار مكاريوس.

- وفي صبيحة الاحد الثالث، قام الأب مكاريوس بعد انتهاء القداس الالهي وتوجّه الى قلاية الراهب، فرأى الشياطين صامتة وكئيبة، فشكر

الله كثيراً. ولما وصل، قرع الباب كعادته ودخل. وبعد القاء التحية الرهبانية، طلب من الأخ ان يسدي له خدمة جديدة ويصلي من اجله ثلاث مرات عند المساء. ثم قال له:

لأني ارى يا اخي ان صلواتك تعود بالنفع الكثير على نفسي وحياتي. فقبل الراهب، وراح يصلي ثلاث مرات من اجل البار مكاريوس. ثم من جديد خجل من نفسه، فبدأ يصلي ثلاثاً عن نفسه وثلاثاً عن مكاريوس، كل مساء.

وفي صبيحة الأحد الرابع وبعد انتهاء القداس الالهي، رأى الأب مكاريوس ان الشياطين اوقفت هجماتها على الراهب، فشكر الله. ولما اقترب من قلاية الأخ، راحت الشياطين تتوعده غاضبة لأنه كان السبب في اصلاح الأخ. ثم رآها تبتعد عن القلاية.

فشكر الله من كل قلبه لهذا التغيير في حياة الأخ. وبعد حين رآه فقال له: ارجوك يا اخي، لا تتوانَ في الصلاة، كي لا تقع في فخاخ ابليس الذي يشاء ان يقودنا الى الضياع.

- لما رأى الأب بالامور، الأب الروحي للقديس باخوميوس، ان باخوميوس كان يقضي ليله في الصلاة، اخذه معه ذات يوم الى تلة مجاورة وراحا ينقلان الرمال من مكان الى مكان آخر. وهكذا كان يدربه كي يقاوم النعاس ويكون اكثر استعداداً للصلاة.

وكان يقول له كل حين:

يا ولدي، كن صاحياً كل حين في الصلاة، كي لا تنزل بك تجربة تسلبك ثمار اتعابك.

وهكذا بدأ الأب باخوميوس صلاته عند المساء، فكان يرفع يديه نحو السماء كي يصلي، ولم يكن ينزلهما حتى تشرق شمس الصباح. بهذا اكتسب الأب باخوميوس قلباً طاهراً وجسداً عفيفاً.

- يقول القديس افاغريوس:

انجاز عظيم يحققه الانسان عندما يصلي بينما ذهنه يستجمع معاني كلمات الصلاة. اما الانجاز الاعظم فهو ان يرتل بينما يستجمع ذهنه معاني كلمات الانشاد، فلا يتشتت.

- سأل احد الاخوة الأب سلوان الذي كان له خبرة عظيمة في الامور الروحية: كيف اقتني انسحاق القلب اثناء الصلاة يا ابت؟ (كان هذا الأخ يحاول ان يرتل كي يقاوم النعاس الذي كان يزعجه اثناء الصلاة).

اجاب الشيخ وقال:

النفس يا ولدي، لا تتأثر باللحن، بمقدار تأثرها بفحوى كلمات المزمور. فإذا كنت ترتل على قاعدة اللحن فحسب، ومن اجل اللحن فحسب، فهناك خطر الوقوع في المجد الباطل، الامر الذي يقسّي قلبك. وسواء كنت تصلي ام ترتل، فليكن فيك احساس عميق انك تقف في حضرة الله. لا تسمح لذهنك ان يأخذك الى هنا وهناك. احبب التواضع وهو يوّلد الانسحاق في قلبك. لا تحاول ان تبيّن حكمتك ومعارفك. آثر ان تتعلم لا ان تعلّم. وعندما يرى الله، من علو، حسن سيرك، وطهارة نيتك، سوف يهبك، من عنده، موهبة الانسحاق.

- يقال عن البار صيصوي الطيبي انه كان يسرع الى قلايته بعد انتهاء القداس الالهي في الكنيسة. وكثيرون من الرهبان الذين لا يعرفونه، راحوا يقولون ان به شيطاناً كان يطيح به. لكن الرهبان القدامى كانوا يشرحون لهؤلاء ان صيصوي كان يفعل هذا كي يتجنب المخالطة وكثرة الكلام، وذلك كي لا يتشتت ذهنه الذي يحاول ان يجمعه للصلاة.

- اعتاد الأب مكاريوس عند نهاية القداس الالهي ان يقف عند باب الكنيسة ويقول للرهبان: هل انتم تغادرون؟

فكانوا يسألونه:

والى اين تريدنا ان نذهب يا ابانا؟ أإلى اعماق الصحراء؟

اما هو فكان يضع اصبعه على فمه ويجيبهم: غادروا الكلام يا اخوتي،

وكان يقصد بذلك اجتناب المخالطة مع الناس، واجتناب كثرة الكلام، لأن من شأن المخالطة ان تظلم الذهن وتبدد الافكار الصالحة التي نجنيها في الصلاة.

- يقول احد الشيوخ:

وصلاة المسيحي ينبغي ان تبدأ باستعداد سلامي، على ان يعقب ذلك شيء من الهدوء . وعندما يصلي المرء مع الاخرين في الكنيسة، عليه ان يتجنب التقوى الخارجية والاصوات العالية التي تحدث ضوضاء وبلبلة وهذه تصدر من الفرد والجماعة بآن. وينبغي ان تكون الصلاة مقرونة بوجع القلب، وهدوء الذهن المكرس لله.

ثمة اناس يتألمون من اوجاع جسدية لكنهم لا يصرخون. وثمة اناس يتألمون ويصرخون. ترى هل يُرفع وجعهم بكثرة الصراخ؟ كلا، فهم بصراخهم يجعلون اوجاعهم تتزايد.

والامر نفسه يحصل اثناء الصلاة. فالناس المتقدمون روحياً يصلّون بدون ضجيج، وبتنهدّات من اعماق القلب، دون ان يتكلموا. وبهذا يحفظون سلامهم الداخلي. وثمة اخرون يصلون بأصوات عالية وتعابير خارجية وكثيراً ما يُعثرون الناس.

الا انه على المسيحي الحقيقي ان يتجنب الفوضى والبلبال وكل الحركات والتعابير الخارجية، وان يؤثر الانضباط والهدوء مع التواضع. فهذا يطلبه الله كما جاء على لسان النبي: القلب المتخشع والمتواضع لا يرذله الله. وكل من آثر هذا السبيل يمكنه ان يصبح نوراً لكثيرين حوله.

- المسيحي في العبادة العامة، عندما يكون مع الاخرين في الكنيسة لكنه يغلق فمه وقلبه فلا يرتل ولا يصلي، هو اشبه بالشيطان كما يقول احد الآباء. ومثل هذا الانسان غير نقي ولا يحتمل ان يسمع التسبيح في الكنيسة، بل يحاول ان يشتت ذهنه ويقصيه عن الانشاد والترتيل والصلاة.

٢- في ذكر الله :

يقول الأب ثيوناس :

عندما يتوقف الذهن عن التفكير والتأمل بالله، فإن الأهواء السفلية تسوده

- ذات يوم، بينما كان الأب دانيال يسير في الصحراء بصحبة تلميذه، توقف الشاب، من شدة التعب، وقال لأبيه:

إلى متى يا ابت سنبقى في قلايتنا الفقيرة ؟

فقال الشيخ:

ومن يعيقنا يا ولدي عن رؤية الله ههنا؟ فنحن مشمولان بعنايته في القلاية وخارجها. ان من يصلي، في كل مكان، لا يمكن لذهنه ان يكف عن ذكر الله .

- سأل احد الأخوة الأب ارسانيوس طالباً منه نصيحة ينتفع بها. فأجابه الأب القديس: اذا استطاع ذهنك ان يعاين الله على الدوام، وبفعل هذه المعاينة اصبح نورانياً، عندئذ يمكنك ان تخرج منتصراعلى الدوام في جهادك ضد الشر.

- قال الأب ابراخيوس:

بهذا يصبح الراهب مشابهاً للملائكة، اعني عندما يعاين الله الآب السماوي على الدوام.

- قال احد الشيوخ:

من يستطيع ان يلحق الضرر بأعوان الملك؟ بالطبع لا احد. هكذا فإن الشيطان نفسه لا يستطيع ان يلحق الاذى بالنفس المتحدة بالله.

- الله يدعونا بالاسفار الالهية كي ندنو منه، وذلك كي يدنو هو منا اكثر. ولكن مع الأسف فان الذهن البشري يتشتّت على الدوام بالأفكار الدنيوية، والشيطان يجتذبه بسهولة نحو الخطيئة.

- اذا افلحت في ان تجعل الله نصب عينيك كل حين - يقول احد الآباء الشيوخ - في نومك ويقظتك، او في كل عمل تقوم به، عندها لا يجرؤ ابليس على الحاق الضرر بك. لأن نعمة الله سوف تظللك بمقدار ما يكون ذهنك متحداً به.

- قال احد الشيوخ منتحباً:

الويل لنا، فنحن نخجل من القيام بالاعمال الاثيمة امام الناس الا اننا لا نخجل ولا نخشى ولا نتورع عن الخطايا امام الله الذي يعرف اعماق القلوب.

- يقول الآباء القديسون:

للشيطان سبل ثلاثة يعتمدها بعد درس عميق للحرب الروحية ضد النفس، وذلك كي يجتذبها الى الخطيئة ويقصيها عن الله. عندما يستبد النسيان بالنفس، للحال يتولد الكسل والتواني. والكسل والتواني من شأنهما أن يولدا الشهوة الشريرة.

ونحن لو كنا لا ننسى الله والمصير في هذا العالم، لما كنا نهمل خلاصنا، ولما كانت نعمة الله تفارقنا. ونتيجة لتقاعسنا ننقاد الى الشهوات التي تضطرم وتعشش فينا.

- كان الأب ارسانيوس يقول على الدوام:

اطلب الله ايها الراهب، فيظهر لك. وعندما يعتلن لك، تمسك به حتى منتهى حياتك.

- ذات يوم بينما كان الأب زخريا تلميذ الأب سلوان متجهاً الى المدينة، قال لأبيه:

ارجوك يا ابي، اسقِ البستان في غيابي. وهكذا كان، فعندما غادر ابنه، قام وغطى رأسه وراح يسقي البستان. فلمحه احد الرهبان وسأله:

ولماذا تغطي وجهك يا ابت ؟

اجابه الشيخ:

اني اغطي وجهي يا ولدي، كي لا يقع نظري على الاشجار فيتلهى بها ذهني وينسى ذكر الله.

- ذات يوم سأل بعض الأخوة الأب سلوان وقالوا له:

واي خير صنعت في حياتك حتى اغدق الله عليك موهبة الحكمة والتمييز؟

اجابهم الأب وقال:

لم اجعل في ذهني يوماً فكراً لا يرضي الله. قال هذه الكلمات بتواضع.

٣- في الثمر الروحي :

- سأل احد الأخوة شيخاً طويل الباع في الامور الروحية وقال له:

ماذا يمكن للإنسان ان يعمل لتقويم انسانه الداخلي فيجعله كثير الثمر؟

فقال له الشيخ : ثلاثة واجبة للتقدم الروحي

- الهدوء
- الصلاة
- ومعرفة الذات.

وهذه الأخيرة نبلغها عندما لا نعود نكترث لخطايا الآخرين بل لخطايانا. فإذا رسخ الانسان على هذه الثلاثة، فإن نفسه ستثمر سريعاً في كل الفضائل.

- يقول الأب بيمن:

عندما يتجنب الانسان كثرة المماحكات والمجادلات والاضطراب والبلبلة، فالروح القدس سوف يجلله، وان كانت نفسه عقيمة وعادمة الثمر، تصبح مثمرة جداً.

- اعترف احد الرهبان المبتدئين للأب صيصوي وقال له:

اشتاق ان احوز قلباً طاهراً يا ابي، ولكني عاجز عن ذلك.

فقال له الأب:

ما دمنا يا ولدي نترك باب فمنا مفتوحاً، لا يمكننا ان نقتني قلباً طاهراً.

- ذات يوم، بينما كان الأب صيصوي حبيس قلايته، قرع بابه تلميذه طالباً ان يراه.

فأجاب الأب القديس:

ليس عندي وقت لرؤيتك يا ابراهيم.

قال هذا لأنه اختطف الى معاينة الله.

- قال القديس مكسيموس المعترف:

الله هو شمس البر يقول الكتاب الالهي، وباشعاعاته الالهية يضيء الكون كله. فالنفس، وبحسب استعداداتها إما ان تكون شمعة مضاءة لله، او محبة للمادة. وكما ان العشب يجف في الشمس، والشمعة تذوب في النور، هكذا حال النفس. والنفس المرتبطة بشؤون العالم عندما تقترب من الله تصبح قاسية جداً، كفرعون، وتفقد رجاءها بالخلاص. اما المحبة لله فتقف في قلب الاشعاعات الالهية، اشعاعات المحبة، فتلين وتصقل هيئتها على غرار القديسين وتصبح مسكناً لله. وهكذا فإن جمالها الذي فيها على اساس الخلق على صورة الله، يصبح على مثال الله.

- قال بعض النساك وهم يتحدثون عن الأب يوحنا الكوخي بأن ذهنه كان مخطوفاً بالمعاينات الالهية حتى عندما كان يحيك الخوص. وذات يوم وبينما كان مختطفاً، حاك حصيرتين في قطعة واحدة، ولم ينتبه لما فعل الا عندما بسطها على الارض فرآها كبيرة.

وفي احدى الأيام عبر بجوار قلايته احد الاخوة كي يحمل عمل اليد الى المدينة ليبيعها ويستبدلها ببضعة خبزات. فلما قرع الباب، فتح له الشيخ. ولما علم ما يريد دخل كي يحضر له ما جاء من اجله. لكنه ما ان دخل

حتى جلس وعاد للحياكة من جديد ناسياً ان هناك من ينتظر خارج القلاية.

فلما رأى الأخ ان الشيخ تأخر، عاد وقرع الباب من جديد. فتذكر الشيخ لماذا دخل. ولما توجه الى الداخل كي يحضر عمل اليد، عاد ونسي لماذا دخل. وجلس وعاد الى الحياكة من جديد. وهكذا دواليك للمرة الثالثة. ولما عاد في المرة الرابعة، سأله الشيخ لما وقف بباب القلاية: وماذا تريد، يا ولدي؟

قال الأخ:

اريد عمل اليد يا ابت.

فأمسكه الشيخ بيده وادخله الى الداخل وقال له:

اذا اتيت من اجل عمل اليد، ادخل وخذ ما تريد وارحل لأنه ليس عندي وقت اضيعه.

- عندما كان الأب اسحاق فتى قليل الخبرة، قام ومضى ذات يوم الى الأب بيمن. وبينما كان يتكلم، سمع اسحاق صوتاً انسانياً فقال:

وهل هناك مثل هذه الاصوات في البرية؟ قال هذا وهو يقاطع الأب بيمن عن الكلام.

فقال له الأب بيمن:

ارجوك لا ترغمني على قول ما لا اريده. ان مثل هذه الاصوات يسمعها فقط الذين تتشتت اذهانهم بالأمور الدنيوية.

اما الذين التصقوا بالرب، فلا يسمعون شيئاً كهذا.

- عند اقتراب الساعة التاسعة راح تلميذ الأب صيصوي يذكّر اباه ان يتناول خبزته.

فسأله الشيخ:

ألم نأكل يا ولدي؟

فقال التلميذ:

ليس بعد يا ابت

فقال الشيخ:

حسناً اعطنا ما نتناوله.

لم يكن الأب صيصوي يشعر بالحاجة الى الغذاء المادي، لأنه كان على الدوام يغتذي بالروحيات.

- مضى الأب مكاريوس مع بعض الاخوة لجمع بعض النباتات الضرورية لعمل اليد. وعندما حل المساء، دعاه الاخوة كي يأكل معهم. اما هو فقبل كي لا يحزنهم. وفي المساء التالي دعاه الاخوة من جديد كي يأكل معهم. فقال لهم:

كلوا انتم يا اولادي لأنكم ما تزالون بحاجة الى الغذاء المادي. اما انا فلست اشاء ان اتناول مثل هذا اليوم.

- قال احد الآباء الشيوخ:

اذا اهُلت ان تحظى بموهبة روحية من الله، لا تفتخر بذلك لأنك كإنسان، لا تمتلك شيئاً صالحاً، لأن ما هو صالح مصدره الله. فإذا كنت لا تسلك بمقتضى مشيئته، فإنه سينتزع موهبتك منك ليعطيها لمن هو اكثر صلاحاً وتواضعاً.

- قالوا عن احد الآباء الشيوخ انه كان يصلي الى الله طيلة سبع سنوات كي يهبه موهبة روحية. ولما صار له ما اراد في نهاية المطاف، قام ومضى الى احد الشيوخ في الجوار المعروفين بفضيلة التمييز ليخبره بما حصل.

فقال له ذاك:

صل الى الله سبع سنوات كي يأخذ منك ما اعطاك.

فأطاع الراهب ومضى وصلى سبع سنوات حتى انتزع الله منه الموهبة

التي طلبها، لأنها لا تهمّه ولا تنفعه.

- زار احد النساك ناسكاً يقيم في عمق الصحراء. ولما حان اوان الطعام، قال ذلك الشيخ لتلميذه: اعدد لنا بعض العدس المسلوق، وبلّل الخبزات كي نضيف الزائر.

فعمل الراهب بما طلب منه.

اما الشيخ الذي انتفع من الحديث الروحي الذي كان قد بدأ، فلبث في مكانه حتى اليوم التالي دون ان يشعر بالجوع والتعب. فقال الشيخ لتلميذه:

قم يا ولدي واعدد لنا العدس كي نطعم ضيفنا.

فقال التلميذ: الطعام جاهز منذ البارحة يا ابي.

وهكذا جلسنا جميعاً كي نأكل.

- زار احد الشيوخ واحداً من الآباء.

ولما غابت الشمس قال للزائر: هلم نتلو صلاتنا يا ابت قبل ان نأكل.

فقبل ذاك بفرح.

فوقف الاول وتلا كتاب المزامير كله غيباً، اما الثاني فتلا اثنين من الانبياء. ولما طلع الصباح، قام الزائر ومضى دون ان يتذكر اي من الاثنين الطعام الذي كان ينتظرهما على المائدة.

- قال تلميذ احد الشيوخ:

ذات يوم أعددنا المائدة كي نتناول الطعام مع ابينا الشيخ.

فلما بدأ التلميذ تلاوة المزامير، اختطف الشيخ وهو يصلي وبقي في مكانه حتى مساء اليوم التالي، وكان ذهنه يحلق في السماويات معايناًالاسرار التي لا ينطق بها.

- حاز احد الشيوخ المعروفين بالتواضع الشديد موهبة التنبؤ. وذات يوم رأى اناساً من العالم منطلقين لزيارته، فحزن. فقام وتوجه الى احد النساك وطلب ان يصليّا معاً الى الرب كي يرفع عنه هذه الموهبة. وبينما

كانا يصليان، سمعا صوتاً يقول: سوف انزع موهبتك منك ولكنك تستطيع ان تستردها متى تشاء.

- ظهر الشيطان لراهب متواضع بهيئة ملاك من نور وقال له بقصد ان يجربه ويرميه بالكبرياء:

انا جبرائيل اتيت كي القي عليك التحية واقول: ان فضائلك عظيمة وتستحقها كلها. فقال له الراهب ببرودة: انتبه فقد تكون مخطئاً. أنا ما ازال في الخطيئة ولست مستحقاً لرؤية ملائكة.

- ذات يوم احضروا للقديس لونجينوس انساناً به شيطان وطلبوا منه ان يشفيه، فقال بتواضع:

ليس عندي هذه الموهبة. ثم قال لهم: اذهبوا الى الأب زينون، وذاك يستطيع بصلواته ان يخرجه.

فقاموا واخذوا الرجل الى الأب زينون. فلما رآه حزن جداً وبدأ يصلي كي يطرد الشيطان من هذا الانسان المعذب. فبدأ الانسان الممسوس يثور، وفجأة صرخ امام الشيخ وقال: وهل تعتقد انني بسببك اخرج منه. ان الأب لونجينوس يصلي في هذه اللحظة ولا استطيع ان اقاوم صلاته. اما انت فلست اعيرك اي اهتمام.

- كان هناك امرأة كانت تعاني من مرض عضال. فلما سمعت بالأب لونجينوس، قامت وانطلقت اليه كي تطلب منه ان يعيد لها صحتها. ولما فتشت عنه في كل مكان في البرية، وجدته يقطع الحطب. فدنت منه وسألته قائلة: هل تعلم يا ابت اين يقيم القديس لونجينوس؟

فقال لها:

وماذا تريدين منه؟ انصحك الاّ تذهبي اليه لأنه انسان شرير. ولكن قولي لي:

ما مشكلتك؟ اما تلك المسكينة فكشفت له عن جرح مفتوح في وسط جسمها. فمد يده ورسم اشارة الصليب على الجرح، وقال لها: يا ابنتي عودي

الى بيتك والله يهبك العافية، لأن لونجينوس لا يستطيع ان يساعدك.

فقامت تلك المسكينة وعادت الى بيتها مؤمنة بكلمات ذلك الرجل المجهول.

ولما وصلت الى بيتها، نظرت الى جرحها، فرأته قد اختفى. وبعد حين علمت من بعض الاخوة ان الذي قابلته، ورسم اشارة الصليب على الجرح هو نفسه الأب لونجينوس.

- سأل راهب احد الشيوخ:

وكيف هذا ان للبعض اعطيت رؤية المستقبلات ومعاينة الامور والاسرار السماوية؟

فقال الشيخ:

لا تغبط هؤلاء فقط يا ولدي، لأن الذين يكتشفون خطاياهم هم اعظم منهم بكثير. لأن من يعرف خطاياه يعرف نفسه.

- وقال الراهب نفسه للشيخ:

يا ابت منذ بضعة ايام رأيت راهباً يطرد شيطاناً من انسان ممسوس فذهلت.

فقال الشيخ:

انا لم ارغب يوماً يا ولدي ان اطرد الشياطين واشفي المرضى. انما ارجو الله متضرعاً ان لا اصبح موضع سخرية للشياطين. لذا اصلي واجاهد كي انقي ذهني من الافكار الشريرة. واذا حققت هذه الامنية عندها اكون عظيماً وجديراً بالاعجاب والتقدير. لأن من يستطيع ان يطهر نفسه من الخطايا ويحب الله والقريب، فهذا يرث الحياة الابدية مع الآباء القديسين الذين يجترحون العجائب.

- قام احد المسيحيين الاتقياء، وترك العالم، وحمل معه ابنه الصغير وتوجه الى البرية ليمضيا فيها بضعة سنوات. وكان الأب قد تقدم كثيراً في الفضيلة، وكان يطرد الشياطين.

وذات يوم قام الابن ومضى الى احد الشيوخ الكبار وقال له وهو يتذمر من ابيه: يا ابت، ان والدي يتقدم علي روحياً ويطرد الشياطين، فماذا افعل؟

فقال الشيخ:

ان طرد الشياطين ليس هو العلامة الوحيدة للتقدم. لأن اجتراح العجائب ليس من الانسان بل من الله. وكثيرون من الذين لم يدركوا ذلك سقطوا في الكبرياء وبددوا ثمار نفوسهم. ان اعظم تقدم عند الانسان يا ولدي هو تواضع القلب. ومن أُهّل له، لا يعود يخشى الشر والخطيئة.

- يقول الأب بيتيريون تلميذ الأب انطونيوس الكبير:

اذا كنت ترغب في ان تطرد الشياطين يا اخي، تعلّم كيف تروّض اهواءك. لأن كل هوى تطرده منك، تخرج معه الشيطان الذي يحرضك على هذا الهوى. لأن لكل هوى شيطاناً. فاهزم الاهواء، تطرد الشياطين الواقفة وراءها.

- أمضى احد النساك ثلاثين سنة في البرية، وكان يأكل من الاعشاب التي كانت تنمو بجوار قلايته. وبعد حين استطاع ابليس ان يغرس في ذهنه انه عبثاً تعب طيلة هذه المدة. فشرع يقول في نفسه: ماذا جنيت طيلة ثلاثين سنة؟ لم تنكشف لي اية اعلانات الهية، وعجائب لم اجترح، كما حصل للعديد من النساك القدماء. لماذا لا اعود الى العالم علّي أستطيع هناك ان اقوم بأمر ذي فائدة؟

وكان بدأ يستعد للعودة الى العالم، عندما ارسل الله ملاكه كي يعرقل عودته، لأنه حزن من اجله بسبب كل هذه الاتعاب.

ولما دخل عليه الملاك، قال له:

واية عجيبة تتوقع ان يجترحها الله؟

هل هناك عجيبة اعظم من الصبر والتجرّد اللتين وهبك الله اياهما فبقيت كل هذه المدة في البرية المقفرة تقتات من الاعشاب؟ ابذل

المزيد من الصبر واطلب من الله تواضعاً اكثر.

فبقي الناسك في مكانه وراح يشكر الله الذي شدّده بملاكه.

- أُهّل احد الشيوخ، وكان روحانياً كبيراً، ان يعاين اعلانات سماوية سيما اثناء قبلة المحبة في القداس الالهي وعند قول الشماس: لنحب بعضنا بعضاً.

٤ - في الشكر الالهي:

القديس ارسانيوس الكبير هو الذي تلا القصة التالية على مسمع تلاميذه. والتلاميذ قاموا بتدوينها الى جانب روايات عديدة، وهكذا وصلت الينا:

لم يُرد احد النساك، ان يقبل ان الخبز المقدس الذي نتناوله في القداس هو جسد الرب يسوع. فلما سمع الشيوخ بموقفه، دعوه وبدأوا يفسرون لنا موقف الكنيسة وتعليمها من الاسرار الالهية وذلك كي يثنوه عن موقفه ويخرجوه من ضلاله. اما ذاك فلم يقبل، ولم يرد ان يقتنع، فتركه الآباء لشأنه. الا انهم راحوا يصلون الى الله كي ينيره ليبقى على الايمان كي لا تضيع جهوده سدى.

وذات يومٍ وكان يوم الرب، وكان الشيخ في الكنيسة مع بعض الآباء الشيوخ. فلما كان الكاهن مقيم الخدمة يمسك بالحمل ليقطعه من اجل المناولة، رأى الشيوخ وهم مندهشون طفلاً ممدداً على المائدة الشريفة. ولما شرع الكاهن بتقطيع الحمل من اجل المناولة، ظهر ملاك فوق المذبح وهو يمسك سكيناً بيديه وراح يقطع الحمل، الذي سالت دماؤه وبدأت تتساقط قطرات في الكأس المقدسة

فاضطرب الشيخ المخدوع من هذا المشهد، وتحوّل اضطرابه الى جذع سيما عندما دنا من المناولة، ولاحظ ان هناك لحم انسان داخل الكأس. فبكى ومضى الى الاخوة معترفاً بضلاله. وتضرع الى الله ان

يسمح له بالمناولة، فلما دنا، عاد فرأى من جديد خبزاً وخمراً داخل الكأس.

- كان عند اسحاق تلميذ الأب ابوللو عدد من الفضائل فضلاً عن التقوى والورع تجاه الاسرار السماوية. وعندما كان يتقدم من المناولة، كان يستعد للحدث اياماً عديدة بالصلاة والتأمل في الكلمة الالهية. ولم يكن -لأي سبب كان- يكلم احداً داخل الكنيسة. وكان بعد القداس يسرع مهرولاً الى قلايته كما لو ان احداً كان يطارده.

واعتاد الاخوة في الاسقيط ان يوزعوا على الاخوة اجزاء من خبزة القداس مع كوب خمرة صغير. اما اسحاق فلم يتوقف ليأخذ شيئاً، بل كان يسرع تواً الى قلايته كي لا يتشتت ذهنه.

وذات يوم سأله بعض الاخوة: لماذا تهرب منا يا ابانا عندما تغادر الكنيسة؟

فقال الشيخ:

الله وحده يعرف يا اخوتي انني لا اهرب منكم، ولا اتجنبكم، بل انما اهرب من فكر ابليس.

ثم قال:

عندما تمسكون شمعة مضاءة وتقفون لساعة في الهواء، فسرعان ما تنطفئ. الأمر نفسه يحصل مع الذهن.

فنعمة الاسرار الالهية تنير الذهن، الا انه عندما يبقى الراهب خارج قلايته فإن كثرة الاهتمامات من شأنها ان تطفئ انوار النعمة الالهية.

- قال كاتبو سيرة القديس افثيميوس الكبير ان الله حباه مواهب كثيرة، وكانت احداها الموهبة التالية:

عندما كان يقيم القداس الالهي، لكونه كاهناً، رأى تلاميذه ملاكاً كان يقف الى جانبه يخدمه في الهيكل.

وعندما دنا رهبانه كي يتناولوا جسد الرب ودمه، كان هو يرى في

سيمائهم من كان مستحقاً ومستعداً، ومن كان غير مستعد، فكان يمنع غير المستعدين. وفيما بعد كان يدعوهم للاعتراف وذلك كي يطهروا قلوبهم ونفوسهم.

- يقول الآباء القديسون عن احد الاساقفة، انه عندما كان يقف في الباب الملوكي كي يناول الشعب، كان يرى الناس يتقدمون البعض بوجوه قاتمة سوداء، والبعض الآخر كان الاحمرار قد ضرب عيونهم، وكانوا يعودون وهم يلبسون البياض وعيونهم مستنيرة. فجسد الرب ودمه كانا ينيران الجميع ويطهرونهم.

فتضرع الاسقف الى الله ان يكشف له سر الامور التي كان يراها. ففسر له ملاك الرب وقال:

الذين يعودون بثياب بيضاء كانوا يحيون بالطهارة والعفاف والتعقل، وكانوا ابراراً ويشفقون على القريب. هؤلاء كانوا يدنون من المناولة الطاهرة بضمير طاهر، وكانت النعمة الالهية تظللهم. اما الذين كان السواد يغلّفهم فكانوا يتمرغون في حمأة الشهوات الجسدية.

والذين كانت عيونهم حمراء فهم ظالمون واشرار وقد ملأ الحسد قلوبهم. فهؤلاء ليس فقط انهم لا ينتفعون من المناولة بل انما يدانون لأنهم كانوا يتجاسرون ان يدنوا من الاسرار الطاهرة بضمائر فاسدة لا توبة فيها ولا استعداد.

منذ ذلك الحين راح ذلك الاسقف القديس يكرز رعيته ويدعوها الى التوبة واصلاح السيرة، وكان يتشدد في منع غير المستحقين من الاقتراب من المناولة الالهية.

- اطلعنا بالاديوس اليوناني عن الحياة الروحية عند الرهبان في زمانه. وفي احدى رحلاته الى البراري الافريقية تعرّف على الأب ابوللو الذي كان اباً روحياً لأكثر من خمسمئة تلميذ. يقول بالاديوس في معرض كلامه عن برنامج حياة هؤلاء الرهبان: كانوا يصومون حتى الساعة التاسعة، وكانوا يعملون بصمت. وعندما يتوقفون عن العمل كانوا يتوجهون الى الكنيسة من

اجل الصلوات والقداس الالهي وذلك بكل انضباط وانسحاق قلب. وفي نهاية القداس كانوا يتناولون الاسرار الالهية. وكان طعامهم خبزاً وبعض الخضروات. وبعد ذلك كانوا يتحلقون حول ابيهم الروحي ومعلمهم يستمعون له باصغاء. وكان هو يفسر لهم كلمة الله بحكمة فائقة. وعندما يحل المساء كانوا يخلدون للنوم لبضعة ساعات لينهضوا بعد ذلك عند منتصف الليل للصلاة وتسبيح الله الى ان تشرق شمس الصباح. هكذا كان نمط الحياة عند هؤلاء على نحو ما يؤكد لنا هذا الراوي المسيحي.

- ولما كان بالاديوس يطوف في الصحارى مع بعض من رفقائه، وصلوا الى اسقيط الأب أُور الذي كان اباً روحياً لأكثر من الف راهب. ولما وصلنا -يقول بالاديوس- استقبلنا الأب اور بفرح عظيم. وبعد السلام والمعانقة الاخوية، تلى صلاة اعتاد ان يرددها، ثم قام وغسل ارجلنا. بعد ذلك جلسنا حوله اما هو فراح يكلمنا عن امور نافعة من الكتاب المقدس. كان حقاً انساناً مستنيراً بقوة ونعمة الروح القدس. وكان كعادته يقول لكل ضيوفه ان لا يأكلوا قبل المناولة الالهية. وفي صبيحة الاحد شاركنا اولئك الرهبان في الذبيحة الالهية. ثم بعد ذلك تناولنا الطعام معهم، وبعد ذلك غادرنا منتفعين.

- تقول بعض المقاطع من الرسالة التي بعث بها القديس باسيليوس الكبير الى شابة تدعى باتريكيا:

حسن ونافع جداً ان نتناول جسد الرب ودمه كل يوم، لأن الرب نفسه يقول: لأن من يأكل جسدي ويشرب دمي له حياة ابدية (يو ٦:٤٥). من يشك اذاً ان من يشارك في جسد الرب ودمه يشارك في الحياة الابدية؟

ونحن معتادون على اقامة القداس الالهي والمناولة اربع مرات في الاسبوع: الاحد، الاربعاء، الجمعة، والسبت. فضلاً عن ذلك فإننا نقيم القداس الالهي في الاعياد الكنسية.

- وفي سيرة القديس مكاريوس المصري، نقرأ القصة التالية:

انجذب شاب طائش في الاسكندرية الى جمال امرأة متزوجة كانت مثالاً في الشرف والتعقل. ولما وجد انه يتعذر عليه ان يخطب ودّها، قام ومضى الى احد السحرة ودفع له مالاً كثيراً، ووعده بالمزيد اذا نال مشتهاه. ولكن عبثاً. وكان الساحر قد استطاع فقط ان يجعل هذه المرأة تبدو في عيون الناس قبيحة للغاية. فلما عاد زوجها ذات يوم، ورآها، حزن جداً، ونادى الكهنة وطالبهم ان يصلوا من اجلها. وكان الزوج يدرك ان ما حل بزوجته كان بفعل قوة شيطانية. ولما ادرك بعد ثلاثة ايام ان شيئاً لم يتغير قام وربط زوجته من رقبتها واقتادها الى الأب مكاريوس الذي كانت شهرته قد طبقت الآفاق.

وفي طريقه الى الأب مكاريوس اوقفه مرات ومرات عدد من الكهنة وسألوه اين كان يتوجّه. وهكذا كان المسكين يضطر ان يخبر الجميع بقصته.

وعندما وصل الى الاسقيط، ورآه تلاميذ الأب مكاريوس، قالوا للأب:

ان فلاناً اتاك يقود حيوانه (امرأته) ويريد ان يراك.

فقال لهم الأب مكاريوس:

وكيف يسخر منكم ابليس؟ انا لا ارى الرجل يقود حيواناً، بل امرأة. فلما وصل الرجل الى الأب مكاريوس سجد له واخبره بقصته.

اما الأب مكاريوس فراح يسمعه بمحبة واشفاق.

بعد ذلك قام الأب مكاريوس وجعل ماء في وعاء وصلى ورش الماء على المرأة، فبدأ الجميع يرونها على حقيقتها امرأة خارقة الجمال. ففسر الأب مكاريوس للجميع ان هذه ظاهرة شيطانية.

ثم توجه للمرأة وقال لها:

لا تتواني عن المجيء الى الكنيسة للمشاركة في القداس الالهي لأن ما اصابك كان بسبب ابتعادك عن المناولة طيلة خمسة اسابيع.

الفصل السادس

١ - في الهدوء والسكينة :

- سأل بعض الاخوة ذات يوم عاشق السكينة العظيم ارسانيوس وقالوا له:

لماذا تتحاشانا يا ابانا؟

هل تخشى ان يلحق بك اذى من جراء اتصالنا بك؟

فأجاب الأب ارسانيوس وقال:

يعلم الله يا اولادي انني احبكم جداً وانني لا اتحاشاكم بدافع الخوف منكم. الا انني لا استطيع ان اقسم قلبي بين الله والناس. أليس من الصواب ان اكون مع ذاك على الدوام؟ فالملائكة عندهم هدف واحد ومشيئة واحدة وهي ان يسبحوه كل حين، ويكونوا خداماً له على الدوام. اما مشيئات الناس واهدافهم فحالها مختلف عن حال الملائكة. لذا فمصلحة النفس تقضي ان نرضي الله لا الناس.

- يقال ان الأب ارسانيوس كان يحب الهدوء كثيراً. وذات يوم بينما كان يصلي، تضرع الى الله ان يكشف له بأية طريقة يمكنه ان يجد خلاصه، فسمع صوتاً يقول له:

يا ارسانيوس، اهرب، اصمت، واهدأ. هذه هي جذور الامتناع عن الخطيئة.

- أما الآباء الذين كانوا يسألونه لماذا يتحاشى الهدوئيون التعاطي مع الناس، فكان الأب البار يقدم لهم المثل التالي: طالما ان الفتاة تبقى في بيت ابيها، فكثيرون هم الذين يطلبون يدها للزواج. ولكن عندما تتزوج لا

تعود تُعجب الكثيرين. فالبعض يمدحونها وآخرون يقومون بأمور اخرى. الا انها لا تعود تحظى بالاعجاب الذي كانت تنعم به عندما كانت في بيت ابيها. والامر نفسه يحدث للنفس. فعندما تنكشف كثيراً، تفقد سموها ولا تعود ترضي الكثيرين.

- يقول الأب ذولاس للذين يطلبون النصح منه:

لا تطلقوا العنان لعلاقاتكم مع الناس لئلا يتلوث ذهنكم من جراء التشتت والاهتمامات، فتفقدوا هواء السكينة النقي والعليل.

- يقول الأب ثيوذور الفرمي:

النفس التي ذاقت عذوبة الهدوء، تبحث عنه دائماً وفي كل مكان. ولكن هذا ليس بداعي الكراهية والاحتقار للناس، بل بداعي محبة الهدوء.

- يقال ان الأب ايسيذور عندما ادرك ان الزوار يكثرون حوله، كان يسرع الى قلاية قريبة ليختبئ فيها، وهو وحده كان يعرف مكان وجودها، وذلك كي لا يلتقيه احد.

فسأله بعض الاخوة وقالوا:

لماذا تفعل هكذا يا ابانا؟

اجاب وقال:

والحيوانات يا اخوتي، تسرع الى اوكارها كي تجتنب المخاطر المحدقة بها.

- سأل الأب موسى الأب مكاريوس: ماذا اعمل يا ابتِ؟

اني اتوق الى الهدوء، الا ان زيارات الاخوة لا تدعني اتمتع به؟

فأجابه وقال:

هذه طبيعتك كما أرى يا موسى. ولأنها هكذا، فهي لن تتبدل او تتغير إلاّ إذا توغلت عميقاً في الصحراء. فقام موسى وسار على هدي معلمه، فوجدت نفسه راحتها.

ذات يوم طلب الأب آيو من الأب مكاريوس أن يسمعه نصيحة من فمه. فوقف الأب مكاريوس وقال له: تجنب كثرة الاختلاط وكثرة الكلام عن الناس واحبب هدوء العزلة فتقتنِ النوح والدموع.

- توسل أحد الرّهبان المبتدئين إلى الأب روفو أن يعلمه ما هو الهدوء، وكيف ينتفع الانسان من الهدوء. فأجابه الشيخ قائلاً:

الهدوء هو أن تحبس نفسك في قلايتك بمعرفة ومخافة الله.وأن تطرد من نفسك الشرّ وكلّ افتخار. وهذا الهدوء من شأنه ان يوّلد فضائل كثيرة، ويحفظ النفس من هجمات الشرير. ويساعدك في ذلك ذكرُ الموت يا ولدي فهو يقودك إلى اليقين أنّك سوف تنال خلاصك.

- وصل من روما ضابط موفد من الملك قاصداً الاسقيط، وهناك قابل البار ارسانيوس وسلّمه كتاباً من أحد أقاربه النبلاء كان قد رقد قبل بضعة شهور تاركاً ثروة ضخمة.

تناول الأب ارسانيوس الكتاب وقرأه بشيء من اللامبالاة ثم همّ بتمزيقه. فلمّا انتبه الضيف الى ذلك قال للأب:

استحلفك باسم الله ألا تفعل ذلك لأنّك إذا مزّقت الكتاب فسوف أفقد مكانتي في الجيش. فأعاده الأب ارسانيوس اليه تواً لكنّه اردف يقول:

أنا متُّ قبل موت قريبي بزمن بعيد فكيف سأرث انساناً مات بعدي؟

- أُهِّلَ أحد النساك الكبار لموهبة شفاء الأمراض وطبقت شهرته الآفاق فبلغت الى القسطنطينية. وذات يوم دعاه الملك الى البلاط وذلك لكي يتبرك منه. فقام هذا الناسك وتوجّه الى الملك في الحال ولمّا قابله تحدث إليه وقبل الهبات التي قدّمها له وكان من بينها مبلغاً كبيراً من المال. وبعد ذلك قام وعاد إلى قلايته واشترى حقلاً راح يعتني به ويزرعه. وهكذا بدأ ينشغل بالحقل وقتاً طويلاً. وذات يوم أحضروا اليه انساناً ممسوساً وطلبوا منه أن يشفيَه، فقام الناسك وصلّى على المريض مستقسماً إلاّ أن الشيطان لم يأبه به بل قال:

الآن لا اطيعك لأني لم اعد اخشاك. فتعجب النّاسك وقال: وكيف هذا؟ أجابه ابليس: لأنك اصبحت كالآخرين وأهملت هدوءك وعنايتك بنفسك منشغلاً بالدّنيويات.

- سأل أحد رؤساء الأديار الكبيرة الذي كان تحت إمرته عدد كبير من الرهبان يتتلمذون عليه، القديس كيرلس اسقف الاسكندرية وقال له: من هم الذين يحفظون مشيئة الله على نحو أفضل؟ هل هم رؤساء الأديار الذين يقودون النفوس الى السماء، أم النسّاك الذين ينشغلون بخلاص أنفسهم؟ فأجابه الأب القديس:

لا يمكننا أن نجري مقارنة بين موسى وايليا، فالاثنان كان دأبهما ان يرضيا الله.

- عاد الأب يوحنا الكوخي من كنيسة الاسقيط الى قلايته وفي الطريق سمع اصواتاً فتوقف للحظة، وقبل ان يدخل الى القلايّة، طاف حولها ثلاث مرات. فسأله انسان رآه وقال له: لماذا فعلت هكذا يا أبت؟! قال له الشيخ:

كي أطرد من رأسي ومن اذني الكلمات التي سمعتها وبهذا أجعل ذهني في حالة من الهدوء.

- يقول أحد الآباء القديسين:

ولئن كان جهاد القديسين عظيماً، إلا أنّهم يكافؤون لأنهم انعتقوا من الاهتمامات الدنيوية.

- قابل الأب بيسيوس الأخ الأصغر للأب بيمن راهباً لم تكن سمعته حسنة، فحزن جدّاً على ما فعل، واعترف للأب عمّون بخطيئته، فقال له الشيخ:

أتريد أن تحيا يا بيمن؟ احبِس نفسك في قلايتك وقل لأفكارك: الآن أنا في القبر.

- يقول أحد الآباء: الهدوء والصمت والعمل الروحي الداخلي هي أمور تولّد القداسة.

– توسل أحد الرهبان الشباب الى الأب موسى وطالبه أن يسدي اليه نصيحةً ينتفع منها، فقال له:

اجلس في قلايتك والجلوس يصلحك.

– أيها الراهب يستحيل أن تمتلك في قلبك المسيح بدون هدوء وتواضع وصلاة دائمة. هذا ما كان يردّده الأب موسى.

– يُقال انّ البارّة سارة النّاسكة أقامت في مغارة على ضفاف النيل مُدّة ستين سنة دون ان تفكر يوماً بالاقتراب من النهر.

– أتّفق أخوان أن يصبحا راهبين. فقام الأول وتوّغل في عمق الصحراء حتى وجد مغارةً دخلها ونسك فيها. أمّا الثاني فتوجّه الى دير عاش فيه في طاعةٍ تامة. وفي النهايّة اختير رئيساً على ذلك الدّير. فالذي عاش في عمق الصحراء حباه الله موهبة الآشفيّة وطرد الشياطين. فلما علم أخوه بأمره حزن جدّاً فهو لم يكن عنده أيّة موهبة روحية. فقال الله له في نومه ذات يوم: اخوك اختار البرية حبّاً بي وهو يبكي ليلاً ونهاراً على خطاياه محتملاً الجوع والعطش وسائر المشقات الاخرى. أمّا انت فيكفيك عزاء الناس.

– تقدّم أحد الرهبان الشباب في الفضيلة. فلمّا علم بأمره نساك القلالي المجاورة قاموا اليه كي يتعرفوا عليه عن كثب فوجدوه في غرفة النجارة التي في الدّير منشغلاً بعمل اليد. وهذا، ما أن رآهم حتى انتصب وحيّاهم ثمّ عاد من جديد ولاذَ بالصّمت عاكفاً على عمله. فوقف النّساك عند عتبة الباب وراحوا ينتظرون علّه يقول لهم كلمة. ولكن لمّا لاحظوا أنّه يلازم الصّمت قالوا له بعد أن وجدوا موقفه معثراً: ومن جعلك راهباً يا أخي وعلمك أن تسلك هكذا مع الغرباء؟ فأنت لم تقل لنا ولا مرة واحدة: صلّوا من أجلي. فقال ذلك المسكين بتواضع: أنا لست مستحقاً لأي شيء يا أخوتي.

٢- في الصمت :

- الانسان الذي يحبّ الصمت ويتجنب كثرة الكلام، هو أشبه بعنقود عنب يانع فيه عصير كثير الحلاوة. أما كثير الكلام فهو أشبه بالحصرم.

- هناك أناس يصمتون بشفاههم، وآخرون يثرثرون بأذهانهم. وهناك أناس يتكلمون من الصباح حتّى المساء ولكنهم صامتون ولكن ما يقولونه روحيّ ونافع.

- قال الأب بمبو في أيامه الأخيرة لبعض الأخوة الذين كانوا يحيطون بفراشه:

يا اولادي منذ أن اصبحت راهباً، بدأت احبُّ التوبة من كل قلبي. الا انني اذهب الى الرب الآن وانا اشعر ان هذه التوبة لم تبدأ بعد.

- يقول الآباء ما يلي عن المغبوط بمبو:

رغم انه كان كثير الاطلاع، وعميق المعرفة بالاسفار الالهية، الا انه لم يكن يدلي بأي جواب اعتباطياً عندما كان يطرح عليه سؤال او قضية تتعلق بتفسير الكتاب المقدس. بل كان يقول: دعوني افكر اولاً. وكانت اسابيع واسابيع تمر قبل ان يعطي جوابه. وهكذا، فكل التفاسير التي قدمها، جاءت مفعمة بالحكمة التي سكبها الروح القدس في قلبه. وكان الاخوة يقبلون اجوبته بورع كبير كما لو انها كانت تخرج من فم الله.

- طلب احد الاخوة من احد الشيوخ ان يفسر له ما معنى اننا سنحاسب لدى الديان في اليوم الاخير؟

فأجاب الشيخ وقال:

ان كل كلام يتعلق بالأمور الدنيوية هو شيء من هذا الحساب. عندما تتكلم عن خلاص النفس فهذا حسن. ولكن بإزاء هذا ايضاً، خير لنا ان نصمت من ان نتكلم. الا ينزلق لساننا مرات ومرات الى امور ضارة عندما نتناول اموراً نافعة؟

- وقال أب آخر:

لا تسرع الى الجواب قبل التفكير ملياً.

- عندما كان الأب عمون يتوجه الى الكنيسة يوم الاحد بصحبة تلميذه كان يسير بعيداً عنه، لكنه كان يعود ويقترب منه، اذا كان عند هذا الاخير ما يعترف به.

وكان هذا الأب الطاهر يقول:

لا اريد ان نتكلم في الطريق، اذ ربما ننزلق الى امور ضارة عندما نعالج اموراً نافعة.

- عندما كان الأب عمون شاباً ذهب ليسترشد على الأب بيمن وقال له:

عندما يأتي احد الاخوة الى قلايتي او اذهب انا الى قلايته لعمل ما، فإننا نتجنب الحديث مغبة ان نقع في الثرثرة.

فأجابه الأب بيمن:

حسناً تفعل، لأن طور الشباب يحتاج الى الكثير من الانتباه.

ثم سأله الأب عمون: وماذا كان الآباء يفعلون في مثل هذا الحال؟

الآباء يا ولدي لم يكن في فمهم او قلبهم امر تافه وفاسد يتحدثون عنه، لهذا لم يكونوا يخشون الوقوع في الثرثرة.

وسأل الشاب مجدداً: عندما اتكلم مع احد الناس بداعي الضرورة، بماذا تنصحني ان اتكلم؟ من الكتاب المقدس، او من الآباء القديسين؟

اجابه الشيخ:

ان لم تستطع ان تصمت، وهو المفضّل للشاب، فعليك ان تؤثر كلمات الآباء القديسين لكونها عملية اكثر. لأن كلمات الكتاب المقدس ليست سهلة او مفهومة من الكثيرين.

- يقول الأب اشعيا المتوحد:

ليس من علامات الحكمة ان يعرف المرء سبل التحدث على نحو ارستقراطي. لأن الحكمة هي ان يعرف المرء متى يتكلم، وماذا يجب ان

يقول. أظهر انك جاهل، وذلك كي تتجنب اتعاباً كثيرة. لأن من يحاول ان يظهر نفسه كثير المعرفة، لا يكون في العادة نافعاً ومفيداً. لا تفتخر بكثرة المعرفة، لأن ما لا تعرفه هو اكثر مما تعرفه.

اعترف احد الشباب للأب متوسي وقال:

ان لساني يا ابي يسبب لي احزاناً كثيرة. ولا استطيع ان امتنع عن دينونة الآخرين واغتيابهم.

اجابه الأب وقال:

اذا بدا ضبط لسانك صعباً، فعليك ان تتجنب الاختلاط مع الناس. ان ضبط اللسان مسألة تتعلق بمرض اخلاقي، لهذا فهو امر خطير ومهم. وأنا كما ترى، اعيش لوحدي لا بسبب فضيلتي، بل بسبب ضعفي. وينبغي ان يكون الراهب الذي يعرّض نفسه للآخرين، قوياً، كي يمسك لسانه.

- يقول احد الآباء الشيوخ:

اذا اقتنيت فضيلة الصمت، فلا تفتخر بأنك انجزت امراً عظيماً. بل اقنع نفسك انك لست اهلاً حتى للكلام.

- كان احد شيوخ الاسقيط قد اعطي نعمة من الله ليرى المستقبلات. فعندما كان الآباء يجتمعون، ويتحدثون في امور روحية، كان ذاك يرى الملائكة تتحلق حولهم متهللة. اما عندما كان الحديث عن الدنيويات، كانت الملائكة تبتعد حزينة.

- قال الذين عايشوا الأب اور:

كلام كذب لم يخرج من فمه البتة. كما ولم يخرج من فمه كلام حلف او قسم. لم يطلق كلمة دينونة ضد احد ولم يسمعه احد من الاخوة يتكلم الا عند الضرورة القصوى. وقد اعتاد ان يقول لتلميذه:

انتبه يا بولس كي لا تأتي بحديث غريب الى هذه القلاية.

- قال احد الرهبان المبتدئين وهو يعترف لأبيه الروحي نستروس:

اجد من الصعوبة جداً ان اضبط لساني.

فأجابه الشيخ وقال:

وهل تجد راحة عندما تتكلم ؟

قال: كلا.

فقال الشيخ: اذاً لماذا تتكلم؟

تعلّم ان تصمت. خير لك ان تسمع الآخرين يتكلمون عندما يدور الكلام حول امر نافع.

- قال الأب بيمن:

ان من تعلّم ان يصمت، فإنه يجد راحة لا محالة.

- يقال ان الأب اغاثون وضع حجراً في فمه طيلة ثلاث سنوات وذلك كي يرّوض لسانه على الصمت الكامل.

- سأل البعض الأب بمفو اذا كان حسناً مديح الآخرين.

اجاب وقال:

الصمت هو الاعظم.

- قال الأب بيمن:

اذا تذكّر المرء كلمات الكتاب المقدس: بكلامك تبرر، وبكلامك تدان، عندها سيؤثر الصمت.

- بينما كان الأب يوحنا الكولوفي يحصد مع بعض الاخوة سمع فجأة احدهم يقول بغضب لواحد كان بجواره: وانت ايضا؟ (قالها بغضب).

عندها توقف الأب بمبو عن العمل وعاد الى قلايته كي لا يضطر الى الكلام.

٣- في الغربة :

يقول الأب يعقوب:

ما هو اسمى من كونك مضيافاً، هو ان تتغرب انت نفسك حباً بالمسيح.

- قال الأب لونجينوس:

ان نفسي تتوق الى الغربة (قالها وهو يعترف لأبيه الأب لوقيوس).

فقال الأب لوقيوس:

ان لم تروّض نفسك على الصمت اولاً، فحتى ولو ذهبت الى آخر بقاع الارض لا يمكنك ان تبلغ الغربة. لذا تعلّم ان تصمت، فتنل الغربة من هنا.

- توسل احد الاخوة للأب صيصوي وطلب منه ان يشرح له ما معنى الغربة.

فقال له:

الغربة الحقيقية هي ان يتعلم المرء ان يصمت وان لا يطلب ما له.

- سأل بعض الاخوة احد الشيوخ وقالوا له: وما هو عمل الغربة؟

اما هو فلم يعر السؤال اهمية مباشرة، بل قصّ عليهم الرواية التالية:

قرر شاب ان يترك وطنه ويتغرّب حباً بالمسيح. فقام ومضى الى عمق صحراء الاسقيط مريداً ان يصبح راهباً. وهناك قبلوه. وهناك اعتاد الاخوة ان يتناولوا الطعام - يوم الأحد بعد القداس الالهي. فجاء الغريب وجلس معهم في اول احدٍ له بينهم.

فتساءل الرهبان:

ومن هو هذا الأخ؟ ومن دعاه الى الطعام معنا؟ ولما لم يجدوا احداً يعرفه طلبوا منه ان ينهض ويغادرهم. فقام الغريب، وبدون اية معارضة، غادرهم للحال. ولكن بعد لحظات ندم الجميع على ما فعلوا، فأرسلوا وراءه واحداً يدعوه ان يعود. للحال عاد. فتعجب الرهبان لوداعته. ولما انتهوا من تناول الطعام، سألوه: وماذا كنت تقول يا اخي عندما طردناك، ثم بعد حين عدنا ودعوناك؟

فقال: فكرت انني لست افضل من كلب يُطرد بركلةٍ، وعندما يطلبونه يدعونه من جديد.

- يقول احد النساك الذي اعطي من الله موهبة الرؤيا الروحية:

جاء الي راهبان يريدان ان ينسكا في قلايتين عتيقتين لا تبعدان كثيراً عن قلايتي. كان الاول اجنبياً والثاني من ابناء البلد. ولم يمض وقت طويل حتى تقدم ابن البلد في الشؤون الروحية اما الغريب فبدا كسولاً متوانياً.

وبعد سنوات مرض الغريب فجأة ومات فرأيت الملائكة تحمل نفسه الى الاخدار السماوية. وقبل ان يلج الى هناك حصل جدال بين الملائكة هل يسمحون له بالدخول او لا. للحال سمعت صوتاً يقول:

في الحقيقة انه كان كسولاً قليلاً. ولكن نظراً لاحتماله الغربة، فتحوا له ليدخل.

وبعد حين مرض الراهب الآخر. وعندما علم به الاقرباء والاصدقاء توافدوا عليه يومياً للاعتناء به. وفي النهاية مات هذا ايضاً. الا اني لم ار ملاكاً بجواره، كما حصل مع الراهب الآخر. فاستغربت جداً وقلت للرب:

لماذا يا الهي اعطيت مثل هذا المجد للغريب الذي كان كسولاً ومتوانياً؟

عندها بلغني من الملاك الكلام التالي:

كان للراهب الفاضل عند موته اصدقاء واقرباء قدموا له التعزية. اما الغريب، ومع انه كان متوانياً قليلاً، فقد اعوزه العزاء البشري، لذا فقد اعطي ما كان بحاجة اليه، من الله.

- سلك ثلاثة شباب تجمعهم صداقة عميقة ثلاثة سبل مختلفة، حباً بالمسيح. فالاول قرر ان يكرس حياته لمصالحة الخصوم والاعداء، فقد اعجبه جداً وحرك فؤاده ان يلعب دور صانع سلام.

اما الثاني فكرس نفسه بالكلية لمحبة القريب فكان بلسم تعزية وسلوى لكل حزين.

اما الثالث فكان عاشقاً للهدوء والسكينة وقد توجه الى البرية ليعيش غريباً مجهولاً بين النساك والمتوحدين.

وبعد سنوات، ضجر الاول من العراقيل والخصومات والتطاحن بين البشر الذي لم يكن ليتوقف او ينتهي. فقام وتوجه الى صديقه علّه يرى عنده نجاحاً في العمل الذي كان قد كرس نفسه له. فوجده محبطاً، فشرور البشر كانت عظيمة جداً حتى انه عجز ان يقوم بأي مسعى. فقام الاثنان وتوجها الى الثالث كي يجدا أي ربحٍ كان يفوز به من جراء غربته وعيشه في البرية. ولما وجداه، اطلعاه على عذاباتهما وسألاه قائلين: ماذا جنيت من ابتعادك عن العالم؟ اما هو، فبدل ان يجيبهما، قام بالعمل التالي:

حمل وعاء وملأه ماء ثم قال لصديقيه ان ينظرا الى داخل الوعاء. ثم قال لهما:

ماذا تريان؟

قالا: ماء مضطرباً.

وبعد لحظة، ولما هدأ الماء طلب منهما ان ينظرا من جديد، ثم قال لهما:

وماذا تريان الآن؟

قالا له:

اننا نرى وجهينا.

فقال لهما:

هذا ما جنيته في هدوء البرية. فأنا كل يوم اعرف نفسي اكثر من البارحة. واتعرف على عيوبي ونواقصي. فأجاهد كي اكون افضل وهكذا، لم اشعر الى الآن بالتعب والقنوط.

فأجمع الاثنان ان الناسك صديقهما كان على صواب فيما قال.

- يقول احد الآباء:

مهما تعبت وبذلت كي ترمي البذار على الطريق المسلوك، لن ينبت زرع او عشب. كذلك مهما تعبت كي تغرس في تربة القلب المثقل

بالاهتمامات الدنيوية، فعبثاً تتعب. يستحيل ان تخرج براعم الفضائل في القلوب المثقلة بالاهتمامات الدنيوية. لهذا السبب آثر الآباء الغربة على أي شيء.

- عندما لم يعد العبرانيون ينشغلون بأعمال المصريين، وظلوا في الخيام، تعلّموا كيف يعبدون الله. كذلك فإن السفن لا تجني ربحها في عرض البحر، بل في الميناء. هكذا هي النفس، فعندما لا تعود تنشغل بأمور العالم، بل تخلد الى الهدوء والسكينة، انها ترى الله، وبهذه الرؤية، تقتني الفضائل.

- يقول الأب تيثوي:

الغربة الحقيقية هي ان يعرف المرء كيف يضبط لسانه حيثما حلّ.

- رأى احد الرهبان اباه الروحي يبتعد نحو الصحراء الداخلية، فسأله مستغرباً:

لماذا يا ابت تتجنب الناس؟ هل تفقد قدرك وقيمتك بجوار الناس؟

فقال له الشيخ:

اسمع يا ولدي، لن يصبح المرء معايناً لله كموسى الاّ اذا وصل الى قامته. لذا فإن نفعاً لا يجتنى من مخالطة الناس. وانا البائس الذي من نسل آدم كثيراً ما اختبر ما اصاب ابي (آدم)، فما ان اذوق ثمرة المعصية، حتى ارغب بها، واذوقها واموت.

لكن في الصحراء تندر الامور التي تغذي الاهواء، لهذا فانها -أي الاهواء- ستختنق وتموت في الصحراء.

- عندما غادر الأب بيور المصري بيت والديه وهو فتى بعد، وقصد الصحراء، قطع على نفسه وعداً امام الله انه لن يرى احداً من اقاربه بعد اليوم. وفعلاً، فقد صان الوعد حتى النهاية.

وبعد خمسين سنة مات والداه واخوته، وبقيت له اخت واحدة على قيد الحياة وكانت قد تقدمت في الأيام، فقامت تبحث عن شقيقها. ولما علمت

اين هو، انطلقت وهي مشتاقة لرؤيته قبل ان يرقد. ولكن لما كان من الصعب عليها الذهاب الى الصحراء، توسلت الى مطران تلك المنطقة ان يكتب لأخيها يدعوه للنزول الى المدينة. فما كان من الاسقف الا ان استجاب لطلبها. فاستجاب الأب بيور لرسالة المطران وذلك كي لا يبدي رعونة وعناداً، فقام واصطحب معه احد الرهبان وتوجه الى بيت والديه. ولما وصل وقف عند عتبة الباب، ودعا الراهب الى الدخول لمناداة اخته. فما ان سمعت الصوت، حتى قامت هذه المسكينة وخرجت والفرح يملأ قلبها. فلما رآها، طرح نظره الى اسفل وقال:

يا اختي، انا بيور اخوك قفي حيث انت وامعني فيّ ما تشائين. وعندما تشعرين انك اكتفيت وحققت رغبتك اخبريني كي اعود الى سكينتي. وهكذا، لم يكسر الأب بيور وعده القديم ولم يتمرد على رسالة الاسقف.

- مضى رسول موفد من عائلة الأب افاغريوس الى الصحراء، ولما وصل قال للراهب:

اتيت كي اعلمك يا اخي ان اباك قد رقد.

فأجابه الشيخ وقال:

كفّ عن التجديف يا انسان. ان ابي لا يموت.

- حدث لاحد الرهبان الشباب وكان قد ترك العالم منذ عهد قريب، ان جاشت فيه الرغبة لرؤية والديه. فاستأذن اباه الشيخ للذهاب الى بلده لبضعة ايام من اجل هذا الغرض. فلما رأى الشيخ ضعف الراهب ورغبته، تنهّد وقال له:

انا اسمح لك بالذهاب يا ولدي. ولكن اريدك ان تضع نصب عينيك ما سوف اقوله لك: عندما كنت اتياً الى هنا لأول مرة كان الله رفيق دربك. ولكن عندما قررت ان تعود الى هناك، فأنت وحيد على الدرب.

- وقال الشيخ نفسه لراهب مبتدئ آخر، رغب في الذهاب الى المدينة:

لا تكن مسرعاً الى المدينة يا ولدي، بل عندما تذهب اليها، بادر تواً للعودة الى ههنا.

- حدث ان ترك احد الرهبان الشباب امه الفقيرة في العالم. وذات يوم ضربت مجاعة تلك التخوم، فقلق الراهب على امه، فوضع في كيس بضعة خبزات وقام ومضى ليسلمها الى امه. وفي الطريق سمع صوتاً يقول له: وهل اهتمامك بي ام هو بهذه المرأة؟

فأدرك الراهب الورع خطيئته، فركع على ركبتيه وطلب من الله ان يرحمه وقال بدموع:

يا رب انت دائم العناية بخلائقك. وبعد هذا قام وعاد الى ديره مرتاح البال. وبعد ايام قامت امه وحملت بعض الخضروات والخبزات وتوجهت الى دير ابنها لتراه، فقد مر بها قبل يومين راهب غريب لم تتعرف عليه واعطاها كل هذه الأطعمة. وعندما وصلت إلى الدير قالت: فكرت ان اتي اليكم ببعض مما هو عندي. فشكر ابنها الراهب الله على احساناته. ومنذ ذلك الحين تعمقت ثقته بالله الذي يعتني بالجميع.

- راهب آخر كان له اخ ذو عائلة فقيرة في العالم. وقد حزن جداً من اجله لأنه كان يتعذب. وكان يود ان يساعده من عمل اليد الذي كان يقوم به. وكان كلما ساعده اكثر، هو وعائلته، كان جوعه وحرمانه يزداد. فحزن الراهب، وقصد اباه الروحي طلباً لنصيحته.

فقال له الشيخ:

اذا اردت ان تسمع لي، كفّ عن رحمته. وعندما يأتيك طلباً للمساعدة قل له: يا اخي، لقد اعطيتك كل ما عندي. اما الآن فقد اصبحت بحاجة الى من يعينني. لذا اسألك ان تساعدني انت بعملك. واذا قدم لك شيئاً قدّمه للمحتاجين صدقة، او للمرضى، وطالبه ان يصلي من اجل اخيك.

فقام الراهب وعمل بنصيحة الأب الروحي. ولما فعل، حزن اخوه في العالم وقرر ان يعمل كي يعيل عائلته، فهو لم يعد له من يساعده.

وفي اليوم الاول جنى بعض المال، فاشترى بعض الخضروات وحملها لأخيه الراهب. اما الراهب فأخذها لناسك فقير، وطلب منه ان يصلي من اجل اخيه.

وبعد بضعة ايام، احضر الأخ الذي في العالم المزيد من الخضروات الى اخيه الراهب. فحملها كما في المرة السابقة ووزعها على النساك في البرية. ثم طلب منهم ان يصلوا من اجل اخيه.

وبعد اسابيع صعد الأخ الذي في العالم الى البرية، وهو يقود حماراً محملاً بالأطعمة، والسمك والخمر وغيرها. فأخذها اخوه الراهب ووزعها كعادته على النساك وطلب منهم ان يصلوا من اجل اخيه. وكانت بركات الله تنزل على هذا البيت اكثر فأكثر.

وذات يوم وبعد حمولة كبيرة نقلها الأخ الى البرية، هم بالعودة، فقال له اخوه الراهب مجرباً اياه: هل تريدني ان اعطيك بعض الخبزات؟

فقال اخوه:

كلا كلا حباً بالله.

فكلما اخذت منك مساعدة، كانت النار تدخل بيتي وتتلف كل شيء. ومنذ ان توقفت ان اطلب منك شيئاً، وبدأت انا نفسي اوزع، دخلت بركة الله الى بيتي.

- الراهب مرقس هو اصغر ابناء الأب سلوان سناً. هذا ترعرع في عائلة غنية. وكان فتى بعد عندما ترك بيت ذويه وتوجه الى البرية كي يصبح راهباً. فقامت امه ولحقت به الى الاسقيط، فهو وحيدها، وتريد ان تراه علّها تستطيع ان تقنعه بالعدول عن الرهبنة والعودة الى العالم. ولما انطلقت الى الاسقيط رافقها حشد كبير من خدام بيتها وبعض المتنفذين من معارفها في العالم. فخرج الأب سلوان لاستقبالها، اما هي فكانت تبكي بتوجع كمن لا تعزية له. ولما لمحته طالبته بابنها. اما هو، ورغبة منه في ادخال التعزية الى قلبها، عاد ادراجه ودخل غرفة المطبخ حيث

كان ابنها مرقس يعد الطعام مع بعض الاخوة، ولما رآه، طلب منه ان يخرج لأن امه تريد ان تراه. اما الشاب، الذي لم يُرد ان يتمرد على ارادة ابيه الروحي، فخرج للحال، وقد غطاه دخان المطبخ فبدا اسود قاتماً، وكان لباسه الاسود يزيده وجوماً وسواداً. ولما اقترب من الحاضرين وقف واغمض عينيه كي لا يرى احداً منهم، ثم راح يصلي الى الله بحرارة كي يرحمهم جميعاً، وبعد ذلك قفل عائداً الى عمله داخل المطبخ. فلم يصدق احد من الحاضرين ان هذا الراهب كان نبيلاً في العالم. فأمه نفسها لم تستطع ان تتعرف عليه. وهكذا عادت وطلبت من الأب سلوان ان يرسل في طلب ابنها كي تراه.

فقام الأب سلوان ونادى ابنها وقال له بخشونة:

ألم اقل لك ايها المتمرد الارعن ان تخرج كي تراك امك؟

فأجاب الراهب:

لقد قمت بما امرتني يا ابي (قال ذلك بتواضع). وخرجتُ وصليتُ كي يرحمهم الله. ولكن ارجوك لا تقل لي ان اخرج من جديد كي لا اعصى امرك.

فعجب الأب لهذا الحزم عند الراهب. ثم قام ومضى الى امه وقال لها:

ان الذي خرج ووقف امامكم قبل قليل، وصلى، هو ابنك. ثم عزاها بكلماته الحكيمة واقنعها ان تذهب دون ان تزعجه.

- لم يمض زمان على انخراط ثيوذوروس في الرهبنة حتى قام اخوه بفنوتيوس يريد ان يحذو حذوه. فقبله البار باخوميوس بفرح. ولما كان ثيوذوروس قد قطع على نفسه عهداً ان يكون راهباً رصيناً، فقد شرع يتصرف مع اخيه كغريب. فانزعج بفنوتيوس. اما باخوميوس ففهم سبب حزن بفنوتيوس، فقام وكلم ثيوذوروس وقال له: تعلّم يا ولدي من الآن، ان تكون سموحاً مع المبتدئين. فنحن يا ولدي، نعتني جداً بالشجرات الفتية الى

ان تتجذر جيداً في باطن الارض. والشيء نفسه نفعله مع الاخوة الجدد الذين شرعوا منذ عهد قريب بمسيرة الجهاد الروحي الى ان يتشددوا في الايمان ويتجذروا في حياة الشركة. منذ ذلك الحين، فإن ثيوذورس لم يتمرد على ابيه الروحي بل غيّر سلوكه تجاه من هو اصغر منه.

- لما انطلق الأب كاديون الى البرية، اخذ معه ابنه زخريا. ولما وصلا الى الاسقيط حصل بلبال بين الاخوة، وذلك بسبب وجود الصبي، فبدأ الرهبان يتأففون ويتذمرون.

اما الأب كاديون الذي كانت فيه مخافة الله، فحمل زخريا ومضى به الى طيبة. وهناك واجهته المشكلة نفسها. وهكذا، اضطر ان يعود الى حيث كان. ومن جديد بدأ التذمر والتأفف هناك.

وذات يوم، فهم زخريا كل ما كان يجري فقد كان ذكياً، فقام ومضى خلسة الى مرفأ نيطرو، وخلع ثيابه ونزل الى الماء. ولما خرج تبدلت هيأته وصارت بشرته كبشرة البرص حتى ان اباه نفسه لم يستطع ان يتعرف عليه الا من صوته.

وفي صبيحة يوم الأحد توجه زخريا الى الكنيسة من اجل حضور القداس والمشاركة في المناولة، فلما رآه الأب اسيذوروس كاهن الاسقيط تعجب لشجاعته، فقال بصوت عال كي يسمعه جميع الاخوة:

يا زخريا، يا ولدي، في الاحد الماضي تقدمت من المناولة كإنسان، اما اليوم فقد اتيت الى بيت الله كملاك.

- ذات يوم، بينما كان الأب بيمن مجتمعاً مع الآباء الشيوخ، قدم الى الاسقيط واحد من اقربائه كي يطلب منه ان يشفي ابنه الذي كان به روح شرير، وكان رأسه قد استدار الى الوراء. فتوسل الأب الحزين الى احد الآباء ان يتوسط له لدى الأب البار كي يقبله.

فقال له:

الأب بيمن لا يريد ان يكون على اتصال مع انسبائه، واذا رآني ههنا، فسوف يطردني.

اما الشيخ الذي رثى لحاله، فعمل التالي:

حمل الصبي الى الاجتماع الى حيث كان الأب بيمن، وهناك قال للآباء:

حباً بالله يا اخوتي، ارسموا اشارة الصليب على هذا الصبي المعذب. ثم قام وحمل الصبيّ الى الأب الاصغر سناً ومنه انتقل الى جميع الآباء. ولما وصل الى عند الأب بيمن، وقف امامه. لكن الأب بيمن رفض ان يرسم اشارة الصليب عليه، فجادله الشيوخ وأمروه ان يعمل كما فعل الآخرون من الآباء. اما هو فلكي لا يبدو متمرداً، صلى، ولما رسم اشارة الصليب على المريض، غادره الروح الشرير، فتماثل للشفاء.

- ذات يوم مضت الى الاسقيط والدة الأب بيمن وذلك كي تراه مع اخوته الستة الذين كانوا ينسكون في البرية. ولكن احداً لم يستقبلها. فقامت وجلست عند قلايتهم وراحت تبكي.

فقال لها الأب بيمن من داخل قلايته:

لماذا تبكي يا امرأة؟ قال هذا دون ان يخرج لرؤيتها.

فقالت:

دعني اراك قليلاً يا ولدي انت واخوتك، وذلك كي اطفئ نار قلبي. قالت هذا وهي تذرف الدموع مدرارة.

ثم سألها الأب بيمن وقال لها:

اتفضلين ان تشاهدي ابناءك هنا ام في السموات؟

فقالت امه:

اذا رأيتكم هنا، فهل هذا كفيل بأني سأراكم هناك؟

فقال لها الأب بيمن:

ان كنت شجاعة وصبرت على فراقنا، فانك ستقابليننا هناك في الحياة الاخرى.

فقالت الأم:

اذا كانت الامور هكذا، فاني اشاء ان اتمتع برؤيتكم الى الابد هناك. قالت هذا وقفلت عائدة الى بيتها.

- كان الأب افلوجيوس يعطي تلاميذه ثلاثة ايام للبقاء في المدينة عندما ينزلون اليها بداعي الحاجة. اما بعد ذلك فكان ينذرهم بالمسؤولية امام الله عن كل ما يحصل بعد ذلك. وكان يسرد عليهم القصة التالية من سيرته: منذ ان اصبحت راهباً، لازمت هذه القلاية طيلة ٣٨ سنة. ولم اغادرها الاّ عندما كنت اذهب الى الكنيسة من اجل القداس الالهي، وكنت بعده اعود تواً الى قلايتي. لم اكن اتكلم في الطريق. ولم اكن اوقف احداً في الطريق كي اكلمه. وعندما شختُ أجبرني الآباء على الذهاب الى الاسكندرية مع الأب دانيال وذلك لزيارة غبطة البطريرك والتحدث اليه في شأن يتعلق بالاسقيط. وفي المدينة قابلت كثيرين من الرهبان. والرب حفظني بأن فتح عيني نفسي وحماني في المدينة. فكثيرون من الناس كانوا يمرون امامي بصحبة النساء وكانوا يتكلمون عن امور لا نفع منها. والبعض الآخر كانوا يعبرون وهم يمسكون اولاداً صغاراً بأيديهم. البعض الآخر كانوا يسيرون وهم يطرقون رؤوسهم الى الارض.

فأيقنت ان هؤلاء البائسين كانوا يعانون من الاهواء التي كانت الارواح النجسة تجتذبهم اليها. فقلت لنفسي:

واين هو ربح الراهب الذي يقيم في العالم؟ فقمت وعدت الى قلايتي. ومنذ ذلك الحين لم اغادر قلايتي الى اليوم.

- قال احد الشيوخ:

ان من يخطئ في حياته، عليه ان يفصل نفسه عن الناس، الى ان تتم مصالحته مع الله. وذلك لأن الاتصال الدائم بالناس من شأنه ان يعرقل الاتصال بالله.

- قال احد الشيوخ:

في العادة ننقل الميت الى المقبرة خارج المدينة لأننا اذا تركناه مسجى في البيت اكثر مما ينبغي، لا نعود قادرين على الاقتراب منه بسبب النتانة الصادرة عنه. هكذا، فالراهب الذي مات حباً بالمسيح، يُدفن في البرية بمحض ارادته. اما اذا بقي في العالم، فإنه يموت اخلاقياً، ويؤذي الآخرين بنتانته.

- ويقول شيخ آخر:

تجنّب عمّال الاثم، حتى ولو كانوا من الاقرباء والانسباء، او حتى ولو كانوا ذوي مكانة مرموقة. لأنك عندما تنأى بنفسك عن امثال هؤلاء، فإنك تحظى بالدالة امام الله، وتفوز به.

- قال الكلي الحكمة الأب اغاثون:

عندما ادرك ان انساناً -حتى ولو كان عزيزاً علي- اصبح علة لاقتناء العيوب، فإنني ابادر تواً الى قطع اية صلة لي به.

- قال احد الشيوخ:

اذا اردت ان تتقدم في الفضيلة، لا تساكن انساناً حسوداً.

- قال احد الشيوخ ذوي الخبرة لراهب مبتدئ سأله:

اذا شعرت ان سلوك اخي اعثرني، فهل اطلب منه ان يسامحني؟

قال الشيخ:

اطلب السماح منه، لكن كف عن مصاحبته. وتابع يقول:

الا تسمع ما يقوله الأب ارسانيوس:

ليكن لك محبة للجميع، ولكن ابتعد عن الجميع.

- قال الأب الونيوس:

اذا لم يقل الانسان في قلبه: انا والله موجودان في العالم، فإنه لن يجد راحة.

- طرح محافظ الاسكندرية احد انسباء الأب بيمن في السجن بسبب عدم الخضوع للقوانين. فمضى ذوي السجين الى الأب بيمن وتوسلوا اليه ان يتوسط من اجل اخلاء سبيله، فالمحافظ كان فيما مضى من اصدقاء الأب بيمن.

فقال الأب بيمن:

امهلوني ثلاثة ايام للتفكير، وبعدها نرى ما يجب ان نفعله.

وفي هذه الاثناء، راح الأب بيمن يصلي الى الله بحرارة ويقول:

يا الهي، لا تسّهل لي هذه الخدمة، لأن الناس لن يدعوني بعدها في هدوء وسلام بسبب كثرة مشكلاتهم.

ولما حان الوقت، نزل الجميع الى الاسكندرية لمقابلة المحافظ من اجل اخلاء سبيل السجين.

ولما وصلوا قال لهم المحافظ:

لا يمكن في أي حال ان اقبل وساطتكم، لأن مخالفات السجين تجاوزت الحد المعقول.

ففرح الأب بيمن لأن وساطته لم تُفلح، وشكر الله من كل قلبه.

- ذات يوم، طلب محافظ الاسكندرية ان يرى الأب بيمن. اما الأب فكان يؤجل الزيارة. ولكي يرغمه على القيام بها، اعتقل ابن اخت الأب بيمن، وارسل يقول:

انا مستعد ان اخلي سبيله اذا ضمنه الأب بيمن. فقامت اخت الأب بيمن ومضت الى الاسقيط، وتوسلت الى اخيها بدموع كي يذهب الى المدينة لاطلاق سراح ابنها.

فقال الأب بيمن:

ليس لبيمن اولاد، فكيف يكون له اهتمام بهم؟

ثم قال لأخته:

ان من واجبك ان تعرفي ما هو ذنب ابنك وما هي المخالفات والتعديات التي وقع فيها. فإذا كان يستحق السجن او الموت، فليصدر القرار حسب القوانين المرعية الاجراء. اما اذا كان بريئاً، فاعملي ما يمليه عليك ضميرك.

الفصل السابع

١ - في التواضع :

- سأل بعض الاخوة الأب لونجينوس وقالوا له:

ما هي اعظم الفضائل يا ابانا؟

فأجابهم ذلك الأب الحكيم وقال:

كما ان الكبرياء هي اعظم الشرور، فهي استطاعت ان ترمي بالملائكة من السماء الى اسافل الجحيم، هكذا فالتواضع هو اعظم الفضائل. فالتواضع عنده القدرة ان يرفع الخاطئ من الجحيم الى اعالي السماء.

ولهذا السبب يغبّط الرب المساكين بالروح.

- ويقول اب آخر:

اني اؤثر سقوطاً مع تواضع، على نصرة مع كبرياء.

- وقال الأب سرمتياس:

افضل ان ارى خاطئاً يعرف خطيئته ويتضّع، من ان ارى فاضلاً يكتفي بذاته.

- يقول احد الشيوخ:

لقد خلّص التواضع كثيرين بدون تعب. وهذا يثبته لنا مثل العشار والابن الشاطر. فهذان الانسانان استطاعا بكلمة ان يحظيا برضى الله.

- قال الأب ابيفانيوس: حنانيا يتكلم، ويستجاب. والنازفة الدم تدنو فتُغبّط. اما العشار فلا يجسر ان يفتح فاه ليبرّر، غير ان الغريب يصرخ فيدان.

- قال الأب اشعيا المتوحد:

قبل كل شيء نحتاج الى التواضع يا اخوتي.

لذا علينا ان نكون مستعدين ان نقول لأخينا:

سامحني. لأن بمقدور التواضع ان يبدد كل فخاخ ابليس.

- وقال اب آخر:

المتواضع يسحق صلف الابالسة، اما المتكبر فهو مطيّة ابليس.

- يقول الأب افبروخيوس:

التواضع هو شجرة الحياة التي ترفع عشاقها عالياً.

- يقول الآباء القديسون:

تاج الراهب التواضع.

- سأل بعض الاخوة احد الشيوخ وقالوا له:

ومتى يقتني الانسان التواضع؟

قال:

عندما يتذكر خطاياه على الدوام.

- قال احد الشيوخ:

كما ان التراب الذي ندوسه، لا يخشى السقوط، هكذا، ايضاً، فالمتواضع لا خطر عليه من السقوط.

- قال احد الشيوخ:

التواضع الحقيقي يمتلكه من يبدأ بالتوبة، بينما يكون الآخر (القريب) هو السبب.

- سأل الاخوة احد الشيوخ:

ما هو التقدم الحقيقي عند الانسان؟

قال بدون تردد:

انه التواضع. فكلما نزلت النفس الى اعماق التواضع، كلما ارتفعت بكل الفضائل.

- قال احد الشيوخ:

عندما تكف الاهواء عن محاربتنا، عندها ينبغي ان نتواضع. وذلك كي يحمينا الله الذي يعرف ضعف طبيعتنا.

فاذا افتخرنا بأنفسنا، للحال تنسحب نعمته، فتعود الينا الاهواء من جديد.

- اعتاد احد النساك ان يلبس ثياباً من قطع ثلاث. هذا مضى ذات يوم للاعتراف لدى الأب عمون.

فقال له الأب عمون:

هذا لا ينفعك شيئاً يا اخي. قال هذا وهو يشير الى ثيابه.

فقال الناسك:

تجارب ثلاث تعذبني يا ابت.

التجربة الاولى تحضني على التوغل الى عمق الصحراء.

والثانية، ان اكون غريباً وغير معروف في مكان بعيد.

والثالثة ان احبس نفسي داخل قلايتي فلا ارى احداً، واتناول طعامي مرة كل يومين.

ترى ماذا اختار من هذه الثلاثة؟

فقال الشيخ:

لا شيء من هذه الثلاثة ينفعك. واذا اردت ان تطيع مشورتي، عليك ان لا تبارح قلايتك، وأن تأكل قليلاً كل يوم، وتتذكر في قلبك وذهنك على الدوام كلمات العشار: يا رب ارحمني انا الخاطئ. فانت لن تجد خلاصك الاّ بالتواضع فقط.

- مضى احد الرهبان الشباب الى الأب ثيوذور الفرمي كي يعترف له بحزنه ومشكلاته. ولما قابله، وجلس امامه، قال له:

عندما كنت في العالم، كنت اكثرُ من الصوم والصلوات والاسهار،

وكانت صلاتي مفعمة بالدموع والندامة، وكان في قلبي اشتعال عظيم لكل عمل يرضي الله. اما في البرية فقد أضعت كل ما كنت امتلكه، واخشى ان افقد خلاص نفسي.

فقال له الشيخ الحكيم:

ما كنت تقوم به وانت في العالم يا ولدي، كان مجرد عمل من اعمال المجد الباطل، وكنت تتوخى من ورائه المديح البشري. لذا، فالله لم يكن يقبل اعمالك. اما في العالم فلم يكن ابليس يحاربك، ولم يكن يعارض مشيئتك، وذلك لأنك لم تكن تجني من كل اعمالك نفعاً وفائدة. اما الآن وقد اصبحت جندياً للمسيح، فقد تسلح ابليس للحرب ضدك. واعلم ان الله يرضيه جداً ان تتلو مزموراً واحداً بتواضع، هنا في الصحراء، اكثر مما ترضيه الامور الكثيرة التي كنت ترددها هناك مع المجد الباطل. كذلك فإنه يقبل برضى صوم يوم واحد تقوم به هنا، في الخفاء، على صوم لاسابيع كنت تقوم به هناك.

فقال الشاب:

لكني لا اعمل شيئاً ههنا، فقد كنت في العالم افضل مما انا عليه الآن.

فقال له الشيخ:

انت تعتقد انك كنت في العالم افضل مما انت عليه الآن، وهذا ليس الا من بنات الكبرياء. لذا يا ولدي، اذا اردت ان تخلص، بادر الى القول:

لم أصنع في حياتي امراً حسناً. هذا تماماً هو موقف العشار. فالخاطئ الذي يحمل قلباً منسحقاً، هو اكثر ارضاء لله من الفاضل المتشامخ.

فتشدد الراهب لدى سماعه هذه الكلمات.

ثم قال الشاب للشيخ:

الفضل لك يا ابت وبسبب كلماتك تشددتُ نفسي اليوم، وعادت الى درب الخلاص. قال هذه الكلمات ثم قفل عائداً الى قلايته.

- سقط اسقف احدى الابرشيات في خطيئة عظيمة. وفي صبيحة اليوم التالي كان عيد كنسي، وكان على الاسقف ان يرأس خدمة القداس الالهي في الكنيسة الكبيرة التي في المدينة.

فعندما دخل الى الكنيسة، صلى، وصعد الى كرسيّه، ووقف واعلن للناس عن خطيئته. ثم خلع الاموفوريون الذي كان يلبسه، ودفعه الى الشماس، وقال بانسحاق قلب وبصوتٍ سمعه الجميع: بعد خطيئتي هذه، لم اعد استحق ان اكون اسقفاً عليكم. لذا ادعوكم ان تختاروا من هو اهل لهذا المنصب.

وبعد ذلك ترجّل عن كرسيه وهمّ بالخروج من الكنيسة. لكن الشعب الذي احبه جداً، حاول ان يمنعه. وصرخ الجميع بصوت عظيم، وقالوا له: خطيئتك على اعناقنا.

فتأثر الاسقف لدى سماعه كلمات الشعب، وعاد وصعد الى كرسيه وقال بصوت مسموع: اذا كنتم تقبلون بي اسقفاً عليكم، ينبغي ان تعملوا بما اقوله لكم.

ثم امر ان تغلق جميع ابواب الكنيسة، وان يترك مخرج صغير واحد. عندها ترجّل الاسقف، وركع الى الارض وقال بأعلى صوته: لن يكون لأي منكم نصيب في ملكوت الله، اذا لم يعبر فوق جسدي قبل خروجه من الكنيسة.

اما هم، ولكي لا يخسروا اسقفهم، اطاعوا كلمته. فقام كل واحد منهم وعبر فوق جسد الاسقف بينما كان يهمّ بالخروج من الكنيسة. ولما عبر فوق جسده آخر المصلين، للحال سُمع صوت من السماء يقول:

لقد غفرت خطيئته، بسبب كثرة تواضعه.

- قال الأب انطونيوس الكبير مرة:

رأيت فخاخ العدو مبسوطة فوق الارض، فذهلت وقلت:

الويل لي ترى من يقدر ان ينجو منها؟

فسمعت للحال صوتاً يقول:

انه المتواضع.

- عندما كان الأب بيمن شاباً، اراد ان يتعلم من الأب انطونيوس ما ينبغي عليه ان يتعلمه كي يخلص نفسه.

فقال له الأب انطونيوس:

عليك ان تقبل خطاياك بقلب منسحق، وان تتواضع امام الله. وان تصبر بفرح على التجارب التي تحل بك. وان تكون على يقين بعد ذلك انك ستنال الخلاص.

- لقد حلت بالأب ارسانيوس تجارب جسام. وذات يوم سمعه الاخوة وهو يصلي مردداً هذه الكلمات:

يا الهي، اتجاسر انا غير المستحق ان اتضرع اليك كي لا تتركني لوحدي في ضيقتي. واعلم انني في حياتي لم افعل ما يرضيك. الا ان عمق حنانك ومحبتك، يمكنها ان تعينني كي ابدأ من جديد.

- قام احد الرهبان الشباب بالسير -وهو صائم- في البرية عدة ايام وذلك للقاء الأب عمون، وذلك كي يعترف له بخطاياه. ولما قابل الأب عمون احتفظ به الأب اسبوعاً كاملاً دون ان يقول له كلمة طيلة هذه المدة. بعدها استعد الراهب للرحيل، فرافقه الأب عمون حتى باب القلاية، وهناك وقف وقال له الكلمات التالية:

ان خطاياي يا ولدي تراكمت فاصبحت سوراً عالياً يفصلني عن الله.

فشكر الراهب الأب الشيخ وغادر منتفعاً بكلماته وتواضعه.

- ذات يوم سكن روح شرير في ابنة احد الاغنياء في الاسكندرية وراح يعذبها جداً. فانفق ابوها مالاً كثيراً آملاً في عودتها الى الصحة والعافية، ولكن عبثاً.

وبدأت حالة الصبية تسوء

وذات يوم علمتْ ان هناك ناسكاً يقيم على رأس جبل، وقد حباه الله موهبة طرد الشياطين.

فقال الناس لأبيها:

ان ذلك الناسك متواضع جداً، وبسبب تواضعه لن يقدم على عمل كهذا. لذا ينبغي التفكير باسلوب لدعوته الى البيت لهذا الغرض.

وذات يوم نزل هذا الناسك الى المدينة ليبيع عمل اليد، فأرسل والد الفتاة من يشتري منه السلال، ومن ثم طالبه بالقدوم الى بيته بغية دفع المال له.

فقام الناسك بكل براءة، وتبعه الى المنزل. وما ان وصل ووطأت قدماه البيت، حتى قامت تلك الصبية الممسوسة المختبئة وراء الباب، ووجهت اليه لكمة قوية على وجهه. اما هو فاحتفظ برباطة جأشه وهدوئه، وأدار لها الخد الآخر عملاً بالوصية الانجيلية.

عندها حصل التالي:

ما ان ادار الناسك الخد الآخر، حتى بدأ الشيطان يزمجر ويصرخ يائساً وهو يقول: يا للعنف! سأغادر، لم اعد قادراً ان ابقى في داخلها بعد اليوم. ان وصية المسيح ترغمني على الخروج منها.

ولما انتهت هذه الكلمات، انعتقت الصبية من اوجاعها وآلامها. فقام افراد العائلة جميعهم ومجدوا الله الذي اجترح هذه الاعجوبة امام اعينهم، وتقدموا من الناسك ليشكروه. اما هو فقد توارى عن الانظار هرباً من المديح الدنيوي.

وعندما علم آباء البرية بهذه الحادثة، قالوا جميعاً:

لا شيء يقوى على كبرياء ابليس، الا التواضع وطاعة الوصايا الالهية.

- كان الأب كاريون يقول على الدوام لرهبانه انه كان اكثر جهاداً ونسكاً من ابنه الروحي زخريا. الا انه رغم ذلك، لم يستطع ان يبلغ حتى الساعة قامة زخريا الروحية الذي كان قد حاز على فضيلتين عظيمتين: التواضع والصمت.

وزخريا هذا عندما كان شاباً، وبينما كان ذات يوم يصلي اختطف في رؤيا الهية. وفي اليوم التالي اطلع اباه الروحي على ما جرى له. اما ذاك فزجره وقال له:

ان هذا خداع وضلال من الشيطان.

وتابع زخريا الصلاة وكانت يوماً بعد يوم تصبح اكثر حرارة من ذي قبل وذلك كي يقتبل الرؤى السماوية. ولمااصر ابوه الروحي على عدم سماع اخباره عن تلك الرؤى، قرر زخريا ان يتوجه الى الأب بيمن. فلما كلم الأب بيمن عن كل ما يجري له، راح هذا البار يسمع له، وادرك ان نعمة الروح القدس قد لمست قلبه. الا انه اوعز اليه ان يري نفسه لناسك اكثر خبرة منه بهذه الامور، ففعل.

ولما انطلق الى ذلك الناسك، ووصل اليه، قام ذاك واطلعه على افكاره قبل ان يبوح بها وقال له: لقد افتقدك الروح القدس يا ولدي. لذا قم وعد الى ابيك وقدّم له الطاعة كي يبقى الروح في قلبك.

فأطاع زخريا وانتفع، وعاد الى ابيه.

- ذات يوم سأل الأب موسى الراهب زخريا وقال له:

ماذا اعمل يا ولدي كي اخلص؟

فقال له زخريا:

اتطرح هذا السؤال علي انا يا ابت؟

فقال له الأب موسى:

صدقني يا ولدي انني رأيت روح الله يظللك، وهو نفسه ارغمني ان اطرح عليك هذا السؤال.

اما زخريا فمد يده وتناول قبعته الرهبانية وطرحها ارضاً وراح يدوسها ويقول:

اذا لم يقبل الراهب ان يداس هكذا، لن يجد خلاصه.

- لقد دعا الله الى جواره على عجل ذلك الملاك الارضي (الراهب زخريا). ففي لحظاته الاخيرةعلى الارض، تحلّق حوله كثيرون من آباء الاسقيط الكبار، وكان بينهم الأب اسيذوروس الكاهن والأب بيمن، وموسى الحبشي الذي كانت تربطه بالأب زخريا اشاوج روحية عميقة.

ولما كان يستعد لمغادرة هذا العالم، رفع عينيه الى السماء ومن الاكيد انه لم يكن يرى الا العالم العلوي فقط.

فلما رآه الأب موسى سأله وقال:

وماذا ترى حيث تنظر يا ولدي؟

فقال له:

أليس من الافضل ان اصمت يا ابت؟

(قال هذه الكلمات وهو يتنهد).

فأجابه الأب موسى: اجل يا ولدي، انت دائماً تؤثر الصمت على الكلام.

ولما نظر اليه الآباء، رأوا وجهه يسطع نوراً ولمعاناً كما لو انه ملاك.

عندئذ نهض الأب اسيذوروس الذي كان يجلس الى جانبه، والدموع تملأ عينيه، ورفع يديه وقال: افرح يا ولدي زخريا. لقد انفتحت لك الآن ابواب الابدية على مصراعيها.

- ذات يوم قام بطريرك الاسكندرية ثيوفيلس وانطلق الى الاسقيط لافتقاد النساك هناك.

وحدث في الطريق ان صادف ناسكاً يمر بجواره، فوقف وسأل ذلك الناسك:

ماذا جنيت يا ابت من العيش في الوحدة والانقطاع؟

اجابه الناسك وقال:

لقد عرفت نفسي جيداً، وادركت انني يجب ان الومها على الدوام.

فقال البطريرك:

ليس هناك ربح اعظم من هذا يمكن للمرء ان يفوز به في العالم.

وتابع سيره حتى وصل الى الاسقيط. ولما بلغ المكان، خرج الآباء للقائه وأخذ البركة منه، وكان لكل منهم كلمة لطيفة توجه بها اليه. اما الأب بمفو فظل واقفاً لا يتكلم.

فسأله الآباء وقالوا له:

لماذا لا تقول كلمة لصاحب الغبطة؟

فقال هذا الأب الحكيم مجيباً:

ان لم ينتفع من صمتي فإن كلماتي لن تنفعه.

- قال الأب افاغريوس:

ان بدء خلاص الانسان هو معرفة دقيقة لنفسه.

- جلس الأب ثيوذوروس ليأكل مع الأخوة، فلاحظ انهم كانوا يشربون الماء بدون ان يقولوا عبارة بارك كما هي عادة الرهبان منذ القديم. فوقف وتنهد عميقاً وقال:

لقد فقد الرهبان المعاصرون اخلاقهم.

- سأل احد الاخوة الأب ثيوذوروس وقالوا له:

يا ابت، ماذا ينبغي ان افعل كي احفظ الوصايا الالهية كل حين؟

اجاب الشيخ وقال:

كان للأب ثيوناس المجاهد معي، الرغبة عينها. واسمع ماذا عمل:

مضى ذات يوم الى الفرن ليخبز خبزاته. وعندما أتم اعدادها، حدث ان مرّ من ذلك المكان اناس ارادوا ان يشتروا بعض الخبز. للحال قام الأب ثيوناس ووزع خبزاته عليهم. ثم قفل عائداً الى قلايته. وفي الطريق صادف آخرين ايضاً، الا انه لم يعد معه أي من الخبزات، فأعطاهم سلته، ثم وزع عليهم ملابسه وعاد الى قلايته عارياً وهو يلوم نفسه ويقول: الويل لي لم احفظ وصايا الله.

- مضى أحد الاخوة الى الأب ثيوذوروس وقال له:

أعنّي يا ابت لأنني افقد نفسي.

فحرك الشيخ رأسه حزيناً وقال:

انا يا ولدي على وشك ان افقد نفسي ايضاً، فكيف تطلب مني ان اؤازرك؟

وكان تواضعه كافياً كي ينتفع الأخ منه.

- اعتادت البارة ثيوذورا ان تقول لبناتها ان لا شيء يقدر ان يخلّص الانسان لا النسك ولا التعب الشديد، بل التواضع العميق الحقيقي النابع من القلب. وكانت تتلو عليهن الرواية التالية: لقد اعطى الله لأحد الشيوخ موهبة طرد الارواح الشريرة.

وذات يوم اراد ان يعرف ما الذي تخشاه الشياطين حتى ترغَم على الخروج من الناس.

فسأل احد الشياطين:

هل تخرج من الانسان لأنك تخشى الصوّام؟

اجابه الشيطان وقال:

نحن لا نأكل ولا نشرب.

فقال الشيخ:

وهل تخشى الذين يقضون وقتهم في السهر؟

فقال الشيطان: نحن لا ننام.

فقال الشيخ:

وهل تخشى الهرب من العالم؟

عندها ضحك الشيطان بسخرية وهو يقول:

نحن نطوف الارض كلها لا سيما البراري منها.

فقال الشيخ:

اقسم عليك ان تقول لي ما الذي يرغمك على الخروج من الناس؟

فشعر الشيطان ان قوة الهية ترغمه على الاجابة، فقال:

ما يرغمنا على الخروج هو التواضع. فالتواضع هو الفضيلة التي لا نقدر ان نمتلكها، ولا نقدر أن نقاومها.

- اعتاد الأب يوحنا الكوخي ان يقول:

ان اسمى جميع الفضائل هي مخافة الله والتواضع.

- ذات يوم سأل الأب يوحنا الكوخي احد زواره الذي كان يظن ان يوسف بيع.

وقد قال الزائر:

لقد باعه اخوته.

قال الشيخ:

كلا ليس اخوته هم الذين باعوه بل تواضعه العظيم. فهو، لتواضعه لم يستطع ان يحتج ويصرخ قائلاً: انا اخوكم. انما صمت ودعاهم يسلموه الى التجار. وتواضعه هو الذي جعله رئيساً على مصر.

- وهو نفسه قال في وقت آخر:

كم نحن معشر البشر اغبياء! فنحن نرمي الحمل الخفيف، وتقبّل هفواتنا، وكل ما يتعلق بطلب المسامحة، ونحمل ما هو الاثقل على الاطلاق، اعني بذلك التبرير.

- والأب يوحنا نفسه كان كثير التواضع، حتى ان آباء الاسقيط اعتادوا ان يقولوا عنه: الكوخي هذا، استطاع بتواضعه ان يعلّق الاسقيط كله في اصبعه الصغير (الخنصر).

- واليكم ما يقوله الأب يوحنا الطيبي عن هذا الموضوع:

قبل اية فضيلة، يتوجب على رجل الله، ان يقتني التواضع. وهذا ما بيّنه المعلم الالهي نفسه، اذ قال: طوبى للمساكين بالروح...، لأن لهم ملكوت السموات (متى ٣:٥).

ترى من هم المساكين بالروح؟

انهم المتواضعون، بدون شك.

- قال الأب ماطوي:

كلما اقترب الانسان من الله، كلما احس ان نفسه تصبح رحومة اكثر.

فالنبي اشعيا، عندما أُهّل ان يُعاين رب المجد، دعا نفسه دنساً ورجساً.

- ومرة اخرى قال الأب نفسه لتلاميذه:

عندما كنت في ريعان الشباب، راودني فكر أوجس لي انني قمت بأمر حسن وذي قيمة. اما وقد دبّت الي الشيخوخة، فإنّي الآن ارى انني لم اصنع شيئاً يستحق القيمة والتقدير.

- وسأله احد الاخوة:

وكيف استطاع الآباء القدماء يا ابت ان يحفظوا وصايا الله؟

قال:

يبدو لي انهم كانوا يحبون اعداءهم اكثر من محبتهم لأنفسهم. ثم قال بعدها، وهو يتنهّد:

الويل لي انا البائس، فأنا نفسي لا أحب الذين يحبونني.

- ذات يوم توجه الأب يعقوب لمقابلة الأب ماطوي، ولما رآه قال له انه كان ينوي ان يقابله كي يتحدث معه ومع الآباء في الاسقيط.

فقال الأب الشيخ:

سلّم لي على الأب يوحنا.

ولما وصل الى عند الأب يوحنا، حمل الأب يعقوب له تحيات الأب ماطوي.

فقال ذاك:

حقاً ان ماطوي هذا هو اسرائيلي لا غش فيه.

وبعد حين، مر الأب يعقوب بقلاية الأب ماطوي، فأسمعه نفس الكلمات التي قالها عنه الأب يوحنا.

فقال الأب ماطوي:

انا لا استحق هذا المديح. (قال ذلك بتواضع شديد).

ولكن اعلم يا اخي انه عندما يكرم المرء قريبه اكثر من امتداحه وتكريمه لنفسه، فإنه يكون قد بلغ درجة عالية جداً من الفضيلة.

- ذات يوم بينما كان الأب ماطوي يسدي نصيحة الى احد الاخوة، قال له:

يا اخي: اطلب من الله امرين بصلاة حارة:

١- ان يهبك النوح الخلاصي كي تتذكر خطاياك على الدوام، فتغرس الاتضاع في قلبك.

٢- ان تشعر في قرارة نفسك انك ادنى من جميع بني البشر، فلا تعود تفكر بدينونة احد.

بعد ذلك، عليك ان تنأى بنفسك عن الدالة وتلجم لسانك، ولا تسترسل في حديثك، ولا تدن احداً. واذا قال لك احد الاخوة اموراً صحيحة، وافقه. اما اذا لم ينطق بالحق، فلا تعارضه، بل قل له:

انت تعرف يا اخي. هذه من علامات التواضع.

- سأل احد الاخوة الأب الونيوس مريدا ان يعرف ما هو احتقار الذات؟

اجابه الأب الونيوس وقال له:

الاحتقار هو ان تدرك انك دون البهائم العجماء غير العاقلة، التي ليس عندها النطق كي تتكلم عن اعمالها.

- قال الأب بيمن عن الأب ايسيذوروس كاهن الاسقيط انه كان يقضي كل نهاره في عمل اليد. وكان الأخوة يطالبونه ان لا يعذّب جسده في شيخوخته.

اما هو فكان يقول لهم:

اذا أحرقت وانا حي، وألقي رماد جسدي للرياح الاربعة، فلا اكون اقدم ذبيحة هامة، بالنظر الى الفداء الذي اتمّه ابن الله من اجلي.

- وذات يوم حاربه فكره وراح يحضّه على الافتخار بفضيلة كانت فيه. فقال الأب ايسيذوروس لنفسه:

وهل تظن يا ايسيذوروس انك اصبحت كأنطونيوس الكبير، او مثل بمفو، او الآباء الآخرين الذين ارضوا الله.

وعندما حاول ابليس ثانية ان يجرّبه بصغر النفس، وانه رغم كل جهاداته، سوف لن ينال الخلاص، بل سيطرح في جهنم الابدية، انتفض واجابه بغضب:

حتى ولو ذهبت الى الجحيم، فأنت ستكون تحت قدمي يا ابليس.

- قال الأب بيمن:

عندما يتعلم المرء ان يلوم نفسه حيثما كان، يمكنه ان يصبر.

- وقال بعد حين:

واذا اراد المرء ان يقدّر القول الكتابي كل شيء طاهر للطاهرين، عليه ان يشعر انه ادنى جميع البشر.

فسأله احد الاخوة وقال له:

وكيف اشعر انني دون سائر الناس؟

اجابه الأب وقال:

عندما تقول لذهنك:

فلان عمل خطيئة واحدة، اما انا فبخطاياي أُميت كثيرين كل يوم.

- يقول الأب انوب:

ان من تعلّم ان يلوم نفسه، يمكنه بسهولة ان يجد تبريراً لخطايا الآخرين.

- اقرّ الآباء جميعهم بتواضع الأب بيمن في كل تصرفاته. فهو عندما كان يتكلم مع الآباء، لم يكن يوماً يشدّد على اهمية رأيه. بل كان يحتجب، ويمتدح رأي الآخرين.

ثم ان الاخوة الذين كانوا يقصدونه للاسترشاد، كان يوعز لهم بالذهاب الى اخيه الأكبر الأب انوب. وعندما كانوا يذهبون الى الأب انوب، كان هذا يعود ويرسلهم الى الأب بيمن قائلاً لهم:

لقد اعطى الله بيمن الموهبة لإراحة نفوس الأخوة.

اما الأب بيمن فلم يكن يفتح فمه للكلام في حضرة اخيه الاكبر، بل كان يجلس ويحني رأسه لشدة خفره واحترامه للأخوة.

- قال الأب انطونيوس الكبير:

بهذا يتميز الراهب ويُعرف: انه يقبل خطاياه، ويصبر حتى نهاية حياته على كل التجارب التي تحل به.

- ذات يوم قال الأب انطونيوس الكبير:

جميع الفضائل دخلت الى هذه القلاية الا واحدة. ولكن بدون هذه الفضيلة كيف لي ان اتقدم انا البائس؟

فسأله الاخوة وقالوا له:

وما هي هذه الفضيلة يا ابانا؟

اجاب هذا الأب الكبير:

انها ملامة الانسان لنفسه على الدوام.

- قال الأب بيمن:

سأمضي انا الى حيث سيطرح ابليس. قال هذا كي يدخل الى نفسه الاتضاع.

- وهو نفسه قال في وقت آخر:

كما ان الانسان يحتاج الى الهواء كي يتنفس، هكذا ايضاً يحتاج الى التواضع ومخافة الله كي يعيش.

- وقال في وقت آخر:

التواضع هو اكثر ادوات النفس نفعاً وفائدة، فضلاً عن قطع المشيئة واحتقار الذات.

- سأل احد الأخوة الأب صيصوي الكبير ذات يوم وقال له:

ألم تصل بعد الى قامة معلمك انطونيوس يا ابانا؟

اجاب الأب البار وقال:

لو كان عندي جزء من فكر انطونيوس، لكنت اصبحت لهيباً مضطرماً.

- ذات يوم تناول آباء الاسقيط الطعام معاً. اما الأب الونيوس الاصغر سناً بين جميع الحاضرين، فوقف وراح يخدمهم. فتكلم احد الآباء عن الأب الونيوس وقال بضعة كلمات في المديح. لكن هذا لازم الصمت واطرق رأسه الى اسفل دون ان يقول كلمة.

وبعد الطعام، سأله احد الشيوخ وقال له:

لماذا لم تتكلم عندما كنت تُمتدح؟

فقال:

لو اني تكلمت، لكنت اظهرت انني قبلت المديح، وفي الحقيقة ان نفسي لا تتطلّع اليه.

- قال الأب بيمن:

التواضع هو الارض التي اوصى بها الله كي تكون موضع الذبيحة.

- سأل احد الأخوة المبتدئين الأب بيمن ان يعلّمه كيف يحيا في الهدوء داخل القلاية.

فقال له الأب بيمن:

يا ولدي، في هدوء القلاية امتحن نفسي، فأجد انني انسان خاطئ غارق حتى اذني في اوحال الخطيئة والشطارة وانوء تحت احمالها الثقيلة. لهذا لا اكفّ عن الصراخ بكل قوتي الى الاله الرحوم وأقول له:

يا ربي، ارحمني انا الخاطئ. لأن الراهب الذي يجعل الله امامه كل حين، فيقيم في قلايته بتقوى ووقار، لا يسقط ابداً في خطايا جسام.

- وسأله احد الرهبان قائلاً له:

اذا قدم الى قلايتي احد الاخوة الذين لا انتفع من سلوكهم، فماذا افعل؟

قال له الأب:

افحص نفسك جيداً، فإذا وجدت الافكار التي كانت تجول في قلبك قبل زيارة الأخ لك، عندها يستحيل ان لا تكتشف انك السبب الاول في انتفاع اخيك. واذا كنت تفعل هكذا بتواضع حقيقي، لا يعود بامكانك ان تلوم اخاك في شيء، لأن اللوم سينحصر بنفسك انت.

- قال احد الرهبان للأب صيصوي انه استطاع بعد زمان طويل ان يجعل ذهنه في حضرة الله على الدوام.

اجابه الأب صيصوي وقال له:

هذا ليس انجازاً عظيماً يا ولدي، كما وليس هو صنيعك، بل هو من عمل النعمة. لكن الانجاز الاعظم هو ان تشعر في قرارتك انك دون الجميع. هذا يدعى تواضعاً.

- عبر احد النساك بقلاية الأب صيصوي، والقى عليه التحية فسأله الأب عن حاله.

فأجابه وقال له:

انني اقطّع الوقت.

فقال له الأب صيصوي:

يا ليتني انا نفسي قادر ان اقطّع وقتي ايضاً، وبدون ان ارتكب خطايا. (قال الأب صيصوي هذا وهو يتنهد).

- مضى ثلاثة نساك، من مكان بعيد، قاصدين ان يروا الأب صيصوي للتحدث اليه.

وكان عند كل منهم تساؤل يتطلع الى حل او جواب عليه. ولما وصلوا اليه، سأله الاول وقال له:

كيف سأنجو يا ابت من النهر الناري؟

فأصغى اليه الأب دون ان يجيبه بكلمة.

ثم سأله الثاني:

وكيف لي ان انجو من صريف الاسنان والدود الذي لا ينام؟

فلازم الأب صيصوي الصمت، ولم يجبه بكلمة.

ثم سأله الثالث:

وماذا اعمل يا ابت لأن تذكّر الظلمة البرانية لا يفارقني، ولا يدعني في هدوء ولو للحظة؟

عندها قال الأب صيصوي:

يا اخوتي انا لا افكر بهذه الامور كلها، لأنني ارجو ان رحمة الله وحنانه ستخلصني.

فحزن النساك الثلاثة لأن تساؤلاتهم بقيت بدون جواب، فنهضوا وهمّوا بالعودة الى ديارهم. عندها قال لهم الأب صيصوي:

انتم سعداء حقاً يا اخوتي، واعترف لكم انني احسدكم على ما انتم عليه، لأن الافكار التي قدمتموها، يستحيل ان تجعلكم منجذبين الى الخطيئة. ولكن الويل لي انا القاسي القلب فأنا لا اضع في ذهني ان هناك جحيماً للبشر. وفي لامبالاتي اخطئ كل لحظة.

فتعجب النساك من تواضع البار صيصوي.

ثم سجدوا له وقالوا فيما بينهم:

ما سمعناه عنه، رأيناه بأم العين.

- قال الأب صيصوي:

الطريق الذي يؤدي الى التواضع الحقيقي هو الامساك والصلاة ونكران الذات.

- وهو نفسه قال في موضع آخر:

الكتاب المقدس يعلّمنا عن الاصنام فيقول:

لها افواه ولا تتكلم، لها عيون ولا تبصر، ولها آذان ولا تسمع.

يا ليت الراهب يكون مثلها. وبعد هذه، فالاصنام هي رجسة ودنسة. لذا، على الراهب ان يقر انه دنس ورجس، فينال الخلاص.

- يرى الأب كرونيوس ان مخافة الله هي السبيل الذي يقود النفس الى التواضع الحقيقي.

- رأى احد الشيوخ القديسين الشيطان امام عينيه، فسأله بشجاعة وقال له:

ولماذا تحاربني بصبر؟

اجابه ابليس وقال له:

لأنك بتواضعك تقاومني على الدوام. ولما قال هذا توارى عن الانظار.

- بينما كان الأب مكاريوس عائداً الى قلايته ذات يوم وهو يحمل على ظهره الخوص لعمله اليومي، مر به ابليس فاستوقفه، وهمّ بالانقضاض عليه، ولكن عبثاً، لأن قوة خفية حالت دون ذلك.

فناداه ابليس وقال له بخشونة:

لقد مرمرتني كثيراً يا مكاريوس. فأنا احاربك منذ سنوات، والى الآن لا استطيع النيل منك. ماذا عندك حتى انك اقوى مني؟ كيف تتفوق علي؟ هل لأنك تصوم؟ مع ذلك فأنا لا اتناول شيئاً. هل لأنك تسهر؟ لا تنسى انني لا انام، وليس عندي حاجة للنوم. واحدة عندك تزعجني.

فسأله الأب يريد ان يعرف ما هي فأجابه ابليس وقال له:

انه التواضع.

ولما قال هذا، توارى عن الانظار.

- سأل بعض الاخوة احد الشيوخ وقالوا له:

لماذا يحارب ابليس الرهبان بضراوة؟ كيف يتجاسر على ذلك؟

اجابهم الشيخ وقال:

اذا ادرك الرهبان اسلحتهم المنيعة، اعني بها التواضع واللاقنية والصبر، لما تجاسر ابليس على الدنو منهم.

- قال احد الشيوخ الحكماء:

لا تعوّد نفسك على التواضع في الكلام، بل درّبها على التواضع في الذهن. لأنك بدون التواضع لا يمكنك ان تتقدم في الروحيات كي تحفظ وصايا الله ومشيئته.

- وقال شيخ آخر:

المتواضع، لا يغضب، ولا يُغضب قريبه.

- قام شقيقان وتوجّها الى البريّة ونسكا معاً في قلاية واحدة. فاستشاط ابليس غضباً بسبب المحبة التي كانت بينهما وقرّر ان يوقع بينهما.

وذات يوم مضى احدهما لانارة القنديل، وبينما كان يملأه بالزيت انقلب، واندلق الزيت. فغضب الأخ الاكبر ولكمه. اما الأخ الاصغر فلم يضطرب، بل سجد امام اخيه وقال له: سامحني يا اخي بسبب اهمالي.

في تلك الليلة سمع احد كهنة الاوثان داخل الهيكل ان الشياطين راحت تتشاجر بالكلام فيما بينها. وفجأة وقف واحد منها في الوسط وقال لرئيسه بخجل:

امضي الى الرهبان واقلبُ كل ما عندهم رأساً على عقب. الا ان واحداً منهم يربكني ويخربط مشاريعي وذلك لأنه يسجد امام اخوته، فيبدد كل عملي.

فلما سمع الكاهن الوثني هذا اهتدى وصار مسيحياً وقام وتوجّه ليعيش في الصحراء، وامضى حياته محتفظاً بالتواضع في قلبه، وكانت عبارة سامحني على فمه كل حين.

- قدم بعض المسيحيين من طيبة الى احد الشيوخ وهم يقودون ممسوساً كانوا قد قيدوا يديه ورجليه بالسلاسل. فلما بلغوا الشيخ، وقف الشيخ وأقسم على الروح النجس كي يغادر خليقة الله.

فصرخ الروح النجس من داخله وقال:

لن اخرج، لن اغادره قبل ان تقول لي: من هم الحملان ومن هم الذئاب الذين تكلم عنهم المسيح.

فقال الشيخ:

انا من الذئاب، اما الحملان فلا اعرف من هم، هو وحده يعرفهم.

فصرخ ابليس وقال:

ان تواضع هذا الشيخ يرغمني على الخروج. ثم خرج من الممسوس الذي كان قد عذبه جداً.

- وفي سياق الكلام على التواضع قال احد الشيوخ ما يلي:

عندما تعمل سجدة امام احد الاخوة وتطلب منه بكل تواضع ان يسامحك، فإنك تطرد تواً كل عمل وفعل شرير يكون ضدك.

وهو نفسه قال: القناع الذي يوضع على رأس الحيوان كي يمنعه من النظر الى الوراء، علينا نحن ان نلبسه، فنلجم عيوننا بالتواضع كي لا نرى الاعمال الحسنة القليلة التي نقوم بها، فنخسر اجرتنا.

والله يسمح احياناً للأفكار الشريرة ان تهاجمنا وذلك كي لا نستكبر، بل نلوم انفسنا على الدوام. ومثل هذه الافكار تحجب في العادة الخير القليل الذي نكون قد عملناه. لأن من يلوم نفسه على الدوام لا يخسر اجرته.

- سأل احد الرهبان احد الشيوخ الحكماء وقال له:

وما هو التواضع يا ابت؟

اجابه ذاك وقال:

التواضع يا ولدي هو ان تشعر على الدوام انك انسان خاطئ، واسوأ جميع الناس. التواضع انجاز عظيم لكنه صعب وشاق. لكن يمكنك ان تحوزه بالجهد الكبير.

فسأله الأخ:

وكيف يمكنك ان تلوم نفسك كل حين وترى انك دون جميع الناس؟

اجابه الشيخ وقال له: تعلّم كل يوم ان ترى افعال اخوتك وخطاياك، واطلب من الله ان يسامحنا جميعاً. وهكذا تأتي الى بلوغ مرامك.

- استطاع احد الرهبان اثناء الصلاة ان يبلغ حالة التواضع، فكان كل حين يقول لله: يا رب اجعل فوق رأسي غطاء كي اتوارى عن وجه الارض، لأنني اتمرد على وصيتك وانا حي.

- ذات يوم اعمى الغضب قلب احد الاخوة، فقام وجرح اخاه بدون سبب. فتمالك الجريح نفسه، ونهض وقبّل يد المسيء اليه، وقال له بتواضع:

لقد اخطأت يا اخي سامحني.

- عاش احد الرهبان مع اخوته عملاً بوصية الرسول:

احملوا بعضكم اثقال بعض (غلاطية ٦:٢). فعندما كان احد الاخوة يقع في زلة، كان ذاك يرى نفسه مسؤولاً عما حصل، فيلوم نفسه، وكان يقبل كل عقاب يلحق به بشكر وفرح.

الا ان بعض الرهبان لم يدركوا فضيلة هذا الأخ، فقالوا فيما بينهم: انظروا كم هي كثيرة الزلات التي يرتكبها هذا! انه لا يصلح لشيء.

الا ان رئيس الدير الذي كان يعرف فضيلة الأخ، توجّه الى هؤلاء الاخوة بالملامة وقال لهم:

انا افضّل عملاً صغيراً يؤديه هذا الأخ بتواضع، على كل اعمالكم التي تقومون بها بزهو وغرور.

وذات يوم سمع رئيس الدير الاخوة يدينون هذا الأخ لعدم كفاءته، فدنا منهم وانتزع عمل ايديهم ورماه في النار التي كانوا يتحلقون حولها. فقام الأخ بدوره ورمى ما كان بيديه في النار، وما هي الا لحظات حتى تحوّل كل شيء الى رماد. اما عمل الأخ فبقي صامداً لم تأت النار عليه. فلما رأى الاخوة ذلك سجدوا له وطلبوا منه ان يسامحهم. منذ ذلك الحين كانوا يكرمونه، اكرامهم لأبيهم الروحي.

- قام احد الورعين الاتقياء ومضى الى احد الشيوخ ليعترف له بخطاياه.

ولما جلس اليه سأله الشيخ:

كيف هي حياتك يا اخي؟

فقال الأخ:

انا في اسوأ حال.

فسأله الأب وقال:

لماذا؟ فقال الأخ:

انا هنا منذ اربعين سنة -وتنهد- وطيلة هذه المدة اقوم بلوم نفسي. وفي صلاتي اقول للرب:

لقد املت قلبي عن وصاياك.

فلما سمع الشيخ هذه الكلمات، تعجب لتواضعه، وقرر ان يحذو حذوه.

- اعتاد احد الشيوخ، وكان طويل الباع في الروحانيات، ان يقول للمتوحدين:

اذا قررتم ان تلازموا اعماق الصحراء لا تسمحوا لذهنكم ان يسخر منكم انكم قمتم بأمر هام. بل بادروا الى اقناع ذواتكم انكم دودة اُبعدت عن المدينة الى البرية كي لا تنهش الناس.

- ويقول شيخ آخر:

اذا اقمت في البرية، ورأيت بوضوح عناية الله بك، لا تتكبر لئلا تفقد ما رأيت. انما قل لنفسك ان الله يرحمني بسبب ضعفي، فلا تتأفف وتخسر نفسك.

- روى احد الشيوخ القصة التالية على مسمع بعض الاخوة الشباب:

اتفق صديقان ان ينسكا معاً، فقاما وتوجّها الى البرية وشيّدا لنفسيهما قلاية. وهكذا حققا المقطع الانجيلي الذي يتكلّم عن الذين خصوا انفسهم لملكوت الله (متى١٥). فعندما علم بطريرك الاسكندرية بأمرهما، اصدر قراراً يقضي بحرمهما من المناولة الالهية.

اما هذان فتابعا الظن ان عملهما مرضي لله، فلم يقبلا الحرم الذي صدر عن البطريرك. فقاما وتوجها الى بطريرك اورشليم ورفعا اليه قضيتهما. وهذا لما علم بأمرهما، زجرهما وقال لهما انهما لا يستحقان المناولة. فقاما وغادرا اورشليم متوجهين الى روما ورفعا شكواهما الى اسقفها. ولما مثلا امامه، سمعا منه الشيء نفسه. وفي النهاية قررا اللجوء الى قبرص لمقابلة اسقفها ابيفانيوس.

فلما نزلا على الجزيرة، وقبل ان يصلا الى المطرانية، كشف الله للأسقف القديس امر مجيئهما، فأرسل اليهما من يقول لهما ان لا يتجاسرا على المثول امامه، بل ان يغادرا الجزيرة على عجل.

لأول مرة فهم هذان البائسان ضلالهما، فقالا فيما بينهما:

لا بد أننا اخطأنا وذنبنا عظيم. لأنه اذا قسا علينا الاساقفة فكيف يقسو علينا رجل الله ابيفانيوس حتى قبل المثول امامه؟

وعندما اتضع قلباهما، ووقفا على حقيقة خطيئتهما كشف الله للأب القديس ابيفانيوس امرهما فدعاهما اليه. فأرشدهما، وعزى قلبيهما وحلّهما من الحرم. ثم عاد وارسلهما من جديد الى مصر وزوّدهما برسالة للبطريرك قال فيها: اقبل ايها الأب القديس ابنيك هذين بالتوبة والانسحاق. عندما يتضع الانسان ويعرف خطيئته، عندها فإن النعمة الالهية تدعو الآخرين إلى الاتعاظ من دماثته.

واذا سمعت عن سلوك القديسين، وتحرّك فيك الشوق والرغبة، للاقتداء بهم، فباشر الى الطلب من الله كي يؤازرك في سعيك. واطلب مشورة احد الآباء. واذا استطعت ان تتم العمل الذي بدأته، فارفع الشكر لمن وهبك القوة لذلك. اما اذا لم تفلح في انجاز سعيك، فأقر بضعفك واتضع معتبراً نفسك غير جدير، وفقيراً في الفضيلة، وعديم الصبر.

– في احدى زياراتهم لجبال النطرون التي ينسك فيها الآف الرهبان، كان رؤساء الاديار يرجون الأب مكاريوس المصري ان يقول بضعة كلمات مفيدة للاخوة الزوار.

اما هو فأجاب:

انا لم اصبح راهباً بعد، الا ان الله اهّلني ان ارى واتحدث الى رهبان حقيقيين.

وتحلّق حوله الاخوة فراح يحدثهم من ذكرياته ويقول: منذ سنوات، وعندما كنت حبيس قلايتي، راح فكري يحضّني على الذهاب الى عمق الصحراء كي ارى ما هو هناك. اما انا فقاومت الفكرة خمس سنوات ظاناً ان ابليس يريد ان يرميني في فخ يعدّه لي.

ولكن عندما شعرت ان الفكرة ما تزال قوية فيّ، قررت ان اتوجه الى الصحراء.

مشيت اياماً كثيرة في بطاح لا اعرفها. ولست ادري كم يوماً مشيت في تلك القفار الموحشة. وكنت اصادف امامي طيوراً غريبة لم اكن اعرفها من قبل.

وفي النهاية وصلتُ الى مرفأ كبير كان في وسط شبه جزيرة راحت حيوانات القفر وطيوره تجتمع عليها كي تشرب. فجلست لارتاح، بينما رحت اراقب الحيوانات في حركاتها. وفجأة رأيت بينها رجلين عاريين. فظننتُ انهما خيال، او ان التعب قد حل بعيني فلم اكن ارى بوضوح. اما هذان الرجلان، وكما يبدو، فقد ادركا حيرتي فصرخا من بعيد وقالا:

لا تخف، نحن بشر مثلك. وبعد ذلك اقتربا مني. فتشجعت وسألتهما:

من اين انتما، ولماذا انتما ههنا؟

فقال لي الاول:

انا مصري.

اما الثاني فقال:

انا من ليبيا.

لقد تركنا العالم ونحن صغار، وترهّبنا في دير فيه شركة. وكان ذلك قبل اربعين سنة. وشيئاً فشيئاً توغلنا في عمق الصحراء حتى وصلنا الى هنا.

ثم بعد ذلك بادر الاثنان الى سؤالي وقالا: وكيف هو العالم؟ وهل ماء النيل يصل الى الصحراء كلها؟

فأجبتهما على اسئلتهما بما عندي من المعلومات. وكنت اعجب لصبرهما في هذه البرية الموحشة.

ثم طلبت منهما ان يعلماني كيف استطيع ان اصبح راهباً.

فقالا:

اقطع كل صلة لك بالعالم، فتصبح راهباً.

فقلت لهما:

ولكني انسان ضعيف ولا استطيع ان اعيش كما تعيشان.

فقالا لي:

اذاً، لازم قلايتك وابك على خطاياك كل حين.

في الحقيقة لقد اعطتني عزلتهما شيئاً من الرهبة. وكنت اشعر بالفرح في حضرتهما.

لكني بادرت الى سؤالهما وقلت:

وكيف تحتملان تبدّلات المناخ والازمنة؟ قلت هذا لأني لاحظت حالتهما وعريهما؟

فقالا لي:

الله الذي يعتني بجميع خلائقه هو الذي دبّر لنا ان نكون ههنا.

فنحن لا نبرد في الشتاء، والحر لا يؤذينا.

وكنت وانا احدثهما الاحظ قساوة الطبيعة على جسديهما، فقد احدثت فيهما اثلاماً وخطوطاً.

وبعد ذلك قلت لنفسي: انا في قلايتي مع خبزاتي. وكل يوم اقابل الاخوة الا اني لم اصبح راهباً كهذين.

- راود فكر عقلَ الأب انطونيوس الكبير راح يقول له:

لقد بلغتَ قامة ذاك من الآباء. الا ان الله اراد من ذلك ان يمّده بالتواضع، فأوعز له في الحلم ان اسكافياً يقيم في حانوت صغير في زقاق في الاسكندرية هو افضل منه.

فلما استقيظ في الصباح، حمل عصاه وتوجّه الى المدينة مريداً ان يتعرف على الانسان عن كثب، ويعاين فضيلته. وبحث كثيراً حتى تمكن في

نهاية المطاف ان يتعرف على حانوته في احد الازقة الوضيعة من المدينة. فلما وصل اليه، دخل الحانوت، وجلس على مقعد خشبي وراح يسأل الاسكافي عن امور تتعلق بسيرته.

اما ذاك البسيط، فلم يستطع ان يفهم من كان الذي يسأله، بل راح انتباهه كله ينصب على الحذاء الذي بين يديه. وكان كلما سمع سؤالاً، يبطئ كثيراً في الرد عليه. ولما سأله الأب انطونيوس عن نشاطاته اليومية، اجاب الاسكافي قائلاً: لا اعتقد يا اخي انني اقوم بأمر هام. فأنا استيقظ كل صباح، وأصلي، ثم اجلس الى عملي. وبينما انا جالس اقول في نفسي ان جميع سكان البلاد صغاراً وكباراً، سوف يخلصون في النهاية. اما انا البائس فسوف ادان بسبب كثرة خطاياي. وعندما اتوجه الى بيتي عند المساء، اقول لنفسي الشيء نفسه.

فنهض البار والعجب يملأ نفسه، وانطرح على الاسكافي وعانقه، وقبّله، وقال له متأثراً:

يا اخي، ان تجارتك صالحة، لقد فزت باللؤلؤة الكثيرة الثمن. اما انا فقد شخت في البرية، وعرقت وتعبتُ دون ان ابلغ الى تواضعك. ولما قال هذا، سبّح الله وعاد الى البرية منتفعاً.

- يقول البار افرام:

الزهرة تسبق الثمر، والطاعة تسبق التواضع.

ثم تابع يقول:

المتواضع هو مطيع بالضرورة، لا بل يحترم الجميع كباراً وصغاراً وعنده في قلبه الوداعة والمحبة.

- طلب احد المؤمنين من راهب ورع خدمة. فقال في نفسه قبل ان يسدي له المعروف:

الرب يأمرك ان تفعل ذلك. لذا اعمل بما هو مطلوب منك. واذا جاءه آخر طالباً منه ان يريحه، كان يقول في نفسه:

هذا من الربّ، وينبغي ان تصغي الى طلبه.

وذات يوم سأله اخ اصغر سناً منه ان يسدي له خدمة، فقال في نفسه: قم للعمل، وأطع اخاك في المسيح ايها المتواضع.

وهكذا كان يخدم الجميع بتواضع حتى بلغ درجة عالية جداً من الفضيلة.

- يقول الأب اشعيا:

ان من اقتنى التواضع، لا يعود عنده لسان لدينونة اخيه ولا عين يرى بها عيوب اخيه، ولا اذن يسمع بها ما هو غير نافع لنفسه. فالمتواضع لا يميز في العطاء، بل يتيقظ ويبكي خطاياه، ويحب السلام حافظاً كل وصايا الرب.

- وهو نفسه أسدى نصيحة لأحد الاخوة قائلاً:

عوّد نفسك يا اخي على ان تقول بسهولة:

سامحني، وسرعان ما يولد في قلبك التواضع. احبب هذه الفضيلة فهي قادرة ان تحفظك من خطايا كثيرة.

- وهو نفسه قال:

اذا استطعت ايها الراهب ان تأكل مرة واحدة في الاسبوع، وتعذّب جسدك بالنسك الشديد، لكن ليس للتواضع مكان فيك، فأتعابك كلها تذهب سدى.

واليكم ما يقوله القديس مكسيموس المعترف عن هذه الفضيلة:

التواضع هو صلاة دائمة مقرونة بدموع وألم. ويستمد العون من الله، ولا يدع الانسان هائماً على وجهه ومتكلاً على حكمته وقواه. والمتواضع لا يرفع نفسه فوق الآخرين، لأن هذه كلها هي امراض في النفس، وسببها الكبرياء.

- ذات يوم قرر القديس افرام السرياني معلم النسك العظيم ان يترك هدوءَه المعشوق في الصحراء وينزل الى المدينة. فقد كانت عنده الرغبة والتوق ان يسجد لرفات القديسين الموجودة في مدينة اديسا، وأن يقابل بعض رجالات الكنيسة للبحث معهم في مسائل عقائدية. وهذا كله لأنه كان يعيش في زمن كان فيه الايمان القويم عرضة لضربات الهراطقة.

فصلى وقال قبل ان ينطلق:

يا رب ارسل امامي رجلاً يعلمني وانا في طريقي الى المدينة .

ولما دخل الى اديسا المكتظة، قابل امرأة كانت تقف وهي تنظر اليه بدون خجل، فشكى الأب امره لله الذي منحه عكس ما كان يطلب. وبعدها ادار رأسه نحو المرأة وقال لها باختصار شديد:

اتساءل كيف انك لا تستحين بل تتجاسرين ان تنظري الي بالحاح.

اجابته المرأة وقالت:

انا انظر اليك لأنك تشبهني. فأنا من جنبك (ضلعك) خرجت، لذا ينبغي ان يكون نظري متجهاً اليك. اما انت فقد خرجت من تراب الارض، لذا ينبغي ان توجه نظرك الى هناك. فشعر الأب انه اخذ الجواب الصحيح، فشكر الله لأنه ليس له ما ينتفع به اكثر من كلمة تلك المرأة.

- اعتاد البار باخوميوس مرات في الاسبوع ان يجمع رهبانه ليعلمهم كلمة الله.

وذات يوم، وبدل ان يجمعهم ليعلمهم، ناب عنه الأب ثيوذور وكان حديث السن، ومبتدئاً في السيرة الرهبانية. وقد اراد الأب باخوميوس من ذلك، ان يختبر طاعة ثيوذور له. اما ذاك البار، فأطاع بدون تردد، وعمل بوصية رئيسه. فوقف ثيوذور وبدأ يتكلم بكلمة الله. الا ان هذا لم يرق الرهبان الشيوخ، الذين وقفوا وتركوا الاجتماع عائدين الى قلاليهم. ولما انتهى الأخ ثيوذور من الكلام، ارسل الأب باخوميوس من يدعو الشيوخ للمثول امامه.

ولما جاءوا سألهم:

لماذا غادرتم الاجتماع يا اخوتي؟

وماذا تريدنا ان نفعل يا ابانا بعد ان رأينا صبياً يعلّم الشيوخ؟

فتنهد الأب باخوميوس وانهمرت الدموع من عينيه، وقال:

حقاً يقال ان الكبرياء هو اصل كل الرذائل، ومن شأنه ان يخنق كل الصالحات التي يجمعها الانسان بالتعب. ثم قال لهم:

عندما غادرتم الاجتماع، لم تحتقروا ثيوذور بل الروح القدس الذي كان يتكلم بفم ثيوذور. ألم تلاحظوا ان اباكم الروحي ومعلمكم (اشارة الى الأب باخوميوس) نفسه كان يتابع كلمات الأخ ثيوذور بانتباه شديد؟ اني اؤكد لكم انني لم اتلق يوماً ما هو اكثر نفعاً من كلمات الأخ ثيوذور. ولما قال هذا، فرض على الآباء امراً لتأديبهم على انانيتهم.

- قال بعض الاخوة ان تواضع الأب باخوميوس كان فائق الوصف. فقد كان يقبل النصائح والملاحظات بشكر حتى ولو كانت من اصغر الاخوة.

- ذات يوم، وبينما كان يحيك الخوص قال له احد الاخوة المبتدئين:

انت لا تحسن الحياكة يا ابت، فالأب ثيوذور حياكته افضل من حياكتك.

فنهض الأب باخوميوس وقال للأخ:

هلم اجلس بقربي وعلّمني كيف احيك افضل.

ففعل الأخ كما قال له الأب. لكنه راح يبتسم بسبب بساطة الأب باخوميوس.

- دعا الامبراطور قسطنطين الكبير الأب انطونيوس الى زيارته في البلاط. فوقع الأب انطونيوس في حيرة اذ لم يكن يعرف ما يفعل، هل يرفض زيارة الامبراطور حباً بقلايته، ام يذهب، ويهمل قلايته. وفي النهاية قرر ان يسأل تلميذه بولس البسيط.

ولما رأى تلميذه قال له:

ما رأيك يا جدّي (قال هذا لأن علامات الشيخوخة كانت بادية على جسد الراهب بولس البسيط)؟ هل تنصحني ان اذهب للقاء الأمبراطور، ام ترى انه من الأفضل ان الازم قلايتي؟

فقال ذاك ببساطته المعهودة :

اذا ذهبت، فلن يتغير فيك شيء، بل تبقى انطونيوس. اما اذا رفضت الذهاب، فتكون انطونيوس الكبير. فسمع الأب انطونيوس لنصيحة الأب بولس، وبقي في قلايته.

- استضاف الأب اوليمبوس ذات يوم في قلايته كاهناً وثنياً ضل طريقه في الصحراء. فتعجب الضيف لقساوة الحياة في القلاية، وقال له:

بعد كل هذه الجهادات و التضحيات التي تقوم بها حباً بالله، اتساءل كم هي الظهورات والأسرار الالهية التي تعتلن لكم كل يوم؟

قال الأب اوليمبوس:

لا يحدث لنا مثل هذا.

فتعجب الكاهن الوثني وقال:

وهل تتركون الافكار الشريرة في قلوبكم كي تفصلكم عن الله وبهذا لا تعتلن لكم اسرار الله؟

وبعد حين اطلع الأب اوليمبوس الاخوة عما دار بينه وبين الكاهن الوثني، فقال الاخوة:

نعتقد يا ابانا ان كاهن الاوثان على حق فيما قال

- قال الأب مكاريوس:

عندما كنتُ صغير السن تعرضتُ للضجر الشديد مرة. فغادرت قلايتي وبدأت اهيم على وجهي في الصحراء، وذلك كي افرّج عن نفسي.

وكنت اتوق الى مقابلة انسان يقول لي كلمة انتفع منها. وفجأة رأيت صبياً كان يقفز على الاعشاب المجاورة.

وراودتني رغبة ان اطرح عليه سؤالاً فقلت له:

ماذا افعل يا ولدي فأنا جائع؟

فقال الصبي: ولماذا لا تأكل؟ (قال الصبي هذا وهو يهز كتفيه علامة على استغرابه).

فقلت له:

لقد اكلت يا ولدي، لكنني ما أزال اشعر بالجوع.

فقال الصبي:

كلْ من جديد

فقلت له: لقد اكلت واكلت وما زال الجوع ينهشني.

فقال الصبي:

تبدو لي محباً للأكل جداً (قال هذا وبدأ يضحك).

فقال له فكره: بالصواب نطق الصبي.

للحال قام الأب وعاد الى قلايته منتفعاً.

- اعتاد احد الشيوخ الحكماء ان يقول للذين يطلبون النصيحة منه:

لا تعرفون كم اشعر بالفرح في ان اكون متعلماً لا معلماً.

- ذات يوم سأل القديس مكاريوس احد رهبانه وقال له:

وما هو عمل الراهب يا اخي؟

اجابه الراهب والخجل يلفّه وقال له: وانت تسألني هذا السؤال يا ابت؟

فقال الأب مكاريوس:

ولماذا لا اطرح عليك مثل هذا السؤال؟

انت انسان ذو عقل، وعليك ان تفكر.

فقال الراهب:

ارى ان الراهب الحقيقي يبذل نفسه كل حين من اجل الخير

فقال له الأب مكاريوس: بالصواب نطقت يا اخي.

- سأل بعض الاخوة في الاسقيط الاب مكاريوس وقالوا له:

وما هو التواضع يا أبانا؟

اجابهم ذاك وقال: انه ان يسيء اليك احد الاخوة، فتبادر فوراً الى مسامحته.

فقال احد الاخوة الحاضرين:

ليس من طريق سريع الى السموات كالسير في التواضع.

- كان على ابرشيتين متجاورتين اسقفان، الاول غني وقويّ، والثاني فقير ومتواضع لم يكن يفكر بشيء، بل كان يقول لكهنته: اصبروا يا اخوتي، نحن سننتصر في النهاية.

وفي احد الاعياد الكبيرة في الابرشية، قام الاسقف الغني وطاف في زياح مهيب وهو يحمل ايقونة صاحب العيد.

فقام الأسقف الفقير واخذ كهنته ومضى الى ابرشية الاسقف الغني، وكان قد قال لكهنته: اعملوا كما اعمل انا، وبقوة الله سننتصر اليوم.

فقال بعض كهنته:

ماذا يجول في رأس سيدنا اليوم؟ ترى ماذا سيفعل؟

ولما وصل الموكب الى المدينة، واقترب الجميع من اسقف الابرشية، انطرح الاسقف الفقير الى الارض وقال بصوت يسمعه الجميع: سامحني يا سيدي نحن جميعاً عبيد لك.

فانجرح قلب الاسقف الغني وطرح القساوة من قلبه ونزل الى الاسقف ومد له يده وعانقه وقبّله، وقال له بتواضع:

انت ابي وسيدي. ومنذ ذلك الحين عاش الاثنان في صداقة عظيمة جداً.

فقال الاسقف الفقير لكهنته:

ألم اقل لكم يا اخوتي اننا سننتصر اليوم؟ اعلموا ان التواضع قوة عظيمة في حياة البشر.

- اخبر الأب سرجيوس تلاميذه القصة التالية ليظهر لهم كم هو عظيم الربح الذي يجنيه المتواضعون.

قال لهم: ذات يوم نزلت الى المدينة ارافق ابي الروحي، وكان معنا اثنان من الاخوة.

وفي الطريق، ضللنا، فوجدنا انفسنا في حقل. فلما علم صاحب الحقل بوجودنا، استشاط غضباً. فقام واقترب منا وبدأ يلعن الجميع بكلمات نابية لا يمكن التلفّظ بها.

ثم قال: انتم رهبان وتحبون الله؟ لو كنتم رهباناً، لما تطاولتم علي وداست اقدامكم حقلاً غريباً.

فقال ابي لصاحب الحقل:

من اجل المسيح، انت على حق. فلو كانت مخافة الله فينا، لكنا انتبهنا، ولم نتلف مزروعاتك. لقد اخطأنا. سامحنا حباً بالرب.

فهدأ الرجل للحال، لأن كلمات الشيخ اطفأت نار غضبه. وخجل من نفسه، فقام وانطرح الى الارض وسجد امام الشيخ وقال:

سامحني يا رجل الله وخذني معك، فأنا اريد ان اصبح راهباً. فقبله الشيخ بفرح. فلازمه الرجل الى نهاية حياته.

- قام شاب ومضى الى الأب مكاريوس كي يعترف له بخطاياه.

ولما مثل امامه سأله:

كيف استطيع ان اقتني التواضع؟

قال له الأب مكاريوس:

تجنّب مديح الناس، واحبب المهانة.

فقال الشاب: انه عمل صعب، وصعب جداً يا ابت.

عندها قال له الأب مكاريوس:

اسمع يا بني: على مقربة من ههنا مقبرة، فاذهب والق نظرة في ارجائها. وكل حجر تراه فيها، احمله واضرب به القبور. وبعد ذلك اشتم الراقدين كيفما تشاء.

فمضى الشاب وصنع كما قال له الأب مكاريوس.

ولما عاد سأله الأب مكاريوس:

وماذا قال لك الاموات عندما رجمتهم بالحجارة وشتمتهم؟ قال الشاب: لم يفتح احد منهم فمه.

فقال له الأب مكاريوس:

قم بالجهد نفسه ثانية، وعندما تدخل الى المقبرة باشر بمديح الاموات. فقام الشاب ومضى. ولما وصل بدأ يطلق الكلمات الناعمة المعسولة، وراح يمتدح الجميع. وبعد ذلك قفل عائداً الى قلاية الأب مكاريوس.

فسأله الأب مكاريوس:

وماذا قالوا لك هذه المرة؟

قال الشاب:

لم يقولوا كلمة واحدة.

فقال له:

اعمل انت ايضاً هكذا فتقتنِ التواضع. كن ميتاً اذا اردت الكرامة، واقبل المهانة لا المديح من الناس.

- قال احد الشيوخ الحكماء: الويل لمن تسبق شهرتُه اعمالَه.

وهو نفسه قال في موضع آخر:

يا اخي لا تهرب من المهانة والذل.

- بينما كان الأب يوحنا الكوخي يصلي في قلايته ذات يوم، تنهد بعمق. ولما شعر ان الأخ الذي يعيش معه قد لاحظ ما حصل، التفت اليه وسجد امامه بتواضع وقال له:

سامحني يا اخي، فأنا لا ازال مبتدئاً.

- قال الأب يوسف البيلوسي للأخوة انه عندما كان ينسك في جبل سينا، صادف هناك راهباً غريباً كان قد قدم الى الجبل للنسك فيه. وكان هذا الراهب ذا هيئة حسنة. وفي صبيحة يوم الأحد رآه الناس في الكنيسة وهو يرتدي لباساً عتيقاً، فتساءلوا.

فتشجع الأب يوسف وسأله:

لماذا اتيت الى الكنيسة يا اخي بهذا اللباس الرث والممزق؟ هذا السلوك مناف للتقوى. الا ترى في اية حالة يدخل الاخوة الى الكنيسة؟

فقال له الأخ بتواضع:

سامحني يا ابت. وصنع له مطانية كبيرة حتى الارض. ثم تابع يقول: ليس عندي ثوب آخر.

فأخذه الأب يوسف الى قلايته، واعطاه واحداً من ثيابه.

وفي صبيحة الاحد التالي رآه الجميع يدخل الى الكنيسة بثياب جديدة، وكان يشبه الملاك.

- اضطر الآباء ذات يوم ان يوفدوا للامبراطور بعض الاخوة ليطلبوا منه خدمة. وكان احد المرسلين ذاك الأخ الوارد اعلاه.

فلما سمع الأخ انه واحد من المرسلين الى البلاط، انطرح الى الارض امام الشيوخ وتمنى لو انهم يرسلون اخاً آخر نيابة عنه. ثم فسّر موقفه لهم وقال:

انا عبد احد امراء البلاط، وقد تركت البلاط خلسة كي آتي الى الاسقيط وأترهب. فإذا اوفدتموني، الى هناك، فسوف ينفضح امري، فيُحتفظ بي لمتابعة عملي هناك.

وهكذا اعفي الأخ من المهمة. وبعد ذلك قام الاخوة وتوجهوا الى البلاط. وهناك علموا ان الأخ هذا هو امير في البلاط، وقد فعل كل ذلك حباً بيسوع المسيح.

- اراد احد الشباب، وكان يستعد كي يترهب، ان يمضي الى الأب فوتيوس طلباً لنصيحته. ولما مثل امامه، سأله: كيف ينبغي ان يكون سلوكي في الدير يا ابت؟

فبدأ الشيخ يكلمه عن امور كثيرة. ومن بين الكثير قال له التالي:

انتبه يا ولدي كثيراً، كي لا تثير ضجة حول اسمك. ولا تقل: لن اذهب الى الاجتماعات العامة، ولن اتناول الطعام في حجرة الطعام مع الاخوة سيما بعد قداس الاحد. حاول الاّ تنفصل عن الآخرين في شيء، وجرّب ان تقتدي بالصالحين. وهكذا ستتجنب المديح الدنيوي، وتقتني التواضع.

- ذهبت مرة الى قلاية الأب ارسانيوس للتحدث اليه، وكان معنا وجيه من الاسكندرية، وغبطة البطريرك ثيوفيلس. فرجاه الجميع ان يقول لهم كلمة ينتفعون منها.

واخيراً قال لهم الشيخ ارسانيوس:

اذا قلت لكم هذه الكلمة، هل تقطعون وعداً ان تحفظوها؟

فقال الجميع: نعم نعدك.

فقال لهم: اسمعوا اذاً:

حيثما كنتم، وعلمتم ان هناك الخاطئ ارسانيوس، فاهربوا واحرصوا الاّ تدنوا منه وتكلموه.

فتعجب الضيوف لموقفه، ولم ينزعجوا، لأنهم رأوا في موقفه تواضعاً عظيماً.

- بلغ الى مسمع الأب ارسانيوس ان البطريرك آتٍ لزيارته في قلايته، ورجاه ان يقبله.

فقال الأب ارسانيوس:

اذا استقبلت غبطتك، فهذا سيُلزمني ان استقبل آخرين ايضاً، وهكذا سيكثر المتوافدون على القلاية. وبهذا سأرغم على ترك قلايتي والرحيل الى سواها.

فلما وصلت الرسالة الى مسمع البطريرك، قرر الاّ يزعج ارسانيوس البتة بزيارته.

- سمع محافظ الاسكندرية المؤمن، بشهرة الأب موسى الحبشي، فصعد الى الاسقيط مريداً ان يتعرف اليه عن كثب.

فلما علم الأب موسى بقدومه، غادر القلاية خلسة، ومضى الى الصحراء. وفي طريقه صادف هذا الوجيه وحاشيته لأن عبورهم حدث من تلك الجهة. فأوقفه الغرباء الذين لم يكونوا يعرفونه، وسألوه قائلين: قل لنا يا ابانا: اين هي قلاية الأب موسى الحبشي؟

أجابهم وقال:

ماذا تطلبون من هذا المختل؟ أنا لم اشاهده هنا منذ شهور. فعادوا ادراجهم خائبين.

- عندما اقام الاب مكاريوس في الاسقيط، كان يدرّب نفسه على التواضع فكان آخر الرهبان في كل شيء .

و ذات يوم سأله الشيوخ: و لماذا تفعل هكذا يا ابانا ؟

فقال: لقد تعبت طيلة اثنتي عشرة سنة كي يمنحني الله هذه الموهبة، و هل تريدونني الان ان اهدرها؟

- يقول الاب بيمن :

علّم نفسك على التواضع حيثما كنت، فتجد نفسك راحتها.

- كان الأب بطرس والأب ابيماخوس ينسكان معاً في ريثو. وفي احدى الاعياد الممتازة، اجتمع جميع رهبان الاسقيط ليتناولوا الطعام معاً.

فدعا الآباء الابوين بطرس و ابيماخوس الى مائدتهم. وبعد جهد كبير وافق الاب بطرس على الجلوس.

بعد الطعام سأله الاب ابيماخوس :

و كيف تجاسرت ان تأكل مع الآباء يا ابت؟

قال له الأب بطرس :

اذا جلست الى مائدة الاخوة سيظن الجميع اني شيخ وسوف يكرمونني. لكن عندما جلست بين الآباء الشيوخ، شعرتُ انني الاخير بينهم، وهكذا بقيت كما انا.

- قال بطريرك الاسكندرية الى الأب موسى الحبشي :

يا موسى في يوم سيامتك كاهناً اصبحت ابيض كالحمامة.

فأجاب الأب موسى و قال بتواضع: أيتكلم سيدي صاحب الغبطة عن الأمور الخارجية ام الداخلية؟ ولما اراد البطريرك ان يمتحنه ليرى تواضعه الحقيقي، اوعز للاخوة خلسة ان يطردوه من الهيكل. فلما دخل الاب موسى الى الهيكل بعد القداس، قال له الجميع - عملا بتوجيه البطريرك:

وماذا تعمل في الداخل ايها الحبشي، اخرج ؟

وكان احد الاخوة يراقبه ليرى ماذا يقول .

فأجاب الاب موسى وقال: بالصواب نطق الاخوة . فاذا كنت انا حبشياً[1]، فماذا افعل ههنا بين البشر؟ للحال تقدم منه احد الاخوة وقال له: غبطة البطريرك يريدك ان تبقى. ففعل.

- قال احد الآباء الشيوخ :

الويل لمن يكرمه الاباء والاخوة اكثر من قدره . فالدمار الذي يصيبه لا يمكن اصلاحه. وهنيئاً لمن يحتقره الجميع، لأن مجده و كرامته تنتظره في السموات.

---

١ - لفظة حبشي تفيد في اليونانية اسم حيوان ايضاً، فالاب موسى عامل نفسه كالحيوان عندما حاول الاخوة طرده من الهيكل (المعرّب).

- طلب احد الاخوة نصيحة احد الشيوخ في مسألة اراد ان يحتفظ بها طيلة حياته.

أجابه الشيخ وقال له: تعلّم ان تقبل الاهانة بشكر. هذا هو التواضع الذي يفوق كل فضيلة.

- قال احد الآباء: ليس المتواضع من يذل نفسه بنفسه، فهذا امر سهل. لأن التواضع الحقيقي هو ان يقبل المرء ان يذّله الآخرون.

- وقال شيخ آخر:

اذا امتدحك الناس، لا تقبل مديحهم، بل تذكّرْ تواً مقدار خطاياك، وماذا لو عرف بها الناس كما يعرفها الله. لأنهم لو عرفوا ما عندك، لكفّوا عن مديحك الى الابد.

فاضرع الى الرب من كل قلبك، ان يحميك كي لا تضل عندما تسمع مديحاً من احد.

- جلس الأب يوحنا الكوخي عند باب الكنيسة بعد قداس يوم الأحد. فتحلّق حوله الاخوة وطرحوا عليه بعض الاسئلة حول الحياة الروحية. فوقف احدهم، وربما ملأ قلبه الحسد، وقال للأب يوحنا: ان قلبك مملوء سماً يا يوحنا.

فقال له الأب: اجل، انت على حق يا اخي (قال هذا بتواضع).

انت تتكلم من خارج فقط. ولكن ماذا لو تكلمت على الداخل ايضاً؟ ماذا ستقول لو رأيت ما في داخلي؟

- انعقد اجتماع في الاسقيط فاجتمع الآباء جميعهم، اما الأب موسى الحبشي، فكان آخر الوافدين. فسأله الآباء كي يجربوه وعلى نحو يسمعه:

وماذا يريد بيننا هذا الحبشي؟

فقبل الأب موسى هذه الكلمات بصمت، وظل في مكانه صامتاً لا يتحرك.

فقال بعض الاخوة: انظروا، لم يتأثر ولم يضطرب.

ثم سألوه:

ألم تضطرب يا ابانا عندما سمعت هذه الكلمات؟

فأجابهم بتواضع وقال:

لقد اضطربت، لكني جاهدت كي لا اتكلم.

- قال الأب بيمن:

مهما صادف المتواضع من تجارب، فإنه ينتصر، لأنه يصمت.

- قالوا عن احد الشيوخ انه كان يظهر محبة عظيمة للذين يسيئون اليه ويحتقرونه.

وقد اعتاد ان يقول:

هؤلاء اصدقاؤنا الاوفياء، لأنهم يقودون خطانا الى التواضع. اما الذين يمدحوننا ويعظموننا، فيلحقون الضرر بأنفسنا. والكتاب الالهي يؤكد ذلك اذ يقول:

الذين يعظموننا يخدعوننا.

- احضر بعض الزوار تيناً مجففاً الى برية الاسقيط، فأخذه الكاهن ووزعه على الاخوة. ولكن التين لم يكن جيداً، فلم يرسله الى الأب ارسانيوس لئلا يُظن انه يهينه. فلما علم الأب ارسانيوس بما حصل، تذمّر وقال: لما عزلتموني عن الاخوة، فلم تحضروا إلي بركةً؟ هل اخبركم الرب انني لا استحق هذه العطية؟

فلما سمع الكاهن هذه الكلمات، تعجّب من تواضعه، وطلب منه ان يسامحه. ومنذ ذلك الحين، شرع الاخوة يقدمون له كل شيء يأتي به الزوار.

- اطلعنا الأب بالاديوس القصة التالية: في دير طيبة النسائي، عاشت اربعون راهبة، وكانت احداهن وتدعى ايسيذورا، تضيء بفضيلتها. هذه المغبوطة كانت تبدو متبالهة حباً بالمسيح. وكانت كل يوم تزدري نفسها، وترتدي الثياب الرثة، وتقوم بخدمة الجميع كعبدة، دون ان تستثني احداً. اما الراهبات فكنّ يزدرينها ويزجرنها في حجرة الطعام، وفي الكنيسة.

اما هي فكانت لا تبالي، بل راحت تأكل من فتات مائدة الاخوات. وكانت في الصيف والشتاء، لا تدخل الى الكنيسة، بل تقف تحت الدرج الخارجي لتتابع الصلوات التي كانت تقام في الكنيسة. ولم يكن يمر يوم لا تسمع فيه تعييراً وتحقيراً من الاخوات، وكان بعضهن يقمن بضربها. اما هي فكانت تقبل كل هذا كي تحيك بعملها اكليل المجد. فلم تكن تتأفف، ولم تكن تجيب، بل كانت كل حين شديدة الصبر والاحتمال.

واليكم كيف كشف الله فضيلتها للجميع:

عاش في الجبل المجاور لذلك الدير ناسك قديس يدعى بيترون. كان هذا يعكف على النسك الشديد وينهك جسده. وذات يوم قال له فكره: ترى، هل هناك في الجوار من بلغ فضيلتك؟

وبينما كان نائماً، رأى في الحلم ملاك الرب يكلمه ويقول:

قم وامضِ الى الدير النسائي، وهناك تجد راهبة. ثم وصفها له، وقال: هذه الراهبة تفوقك في الفضيلة والجهاد.

فقام الأب بيترون على عجل، ومع تباشير الفجر الاولى غادر قلايته متوجهاً شطر الدير المذكور. فاستقبلته الراهبات باكرام عظيم فقد عرفن مقدار شهرته. ولما دخل توجّه أولاً الى الكنيسة، وهناك طلب من الأم الرئيسة ان تأتي اليه جميع الاخوات كي يتعرف عليهن. فدخلت الاخوات ووقفن امامه وعبرن بعد ان سجدن له. اما هو فلم ينجذب لشيء في أي منهن. الا انه لم يجد بينهن تلك التي وصفها له الملاك، فحزن. وعندما دخلت آخر اخت، قال الأب: هل عندكن اخوات غير اللواتي امامي؟ قلن له:

كلا.

فقال الأب: واعجباه. لا بد أن في الأمر خطأ ما.

هل قمتُ بكل هذه المشقة من اجل لا أحد؟

فوقفت احداهن وقالت:

اجل يا ابانا، هناك اخت اخرى.

فطلب الأب من الأم الرئيسة ان ترسل في طلبها.

فقالت احدى الاخوات:

ولكن تلك يا ابانا انسانة بلهاء. لهذا فإننا لا نعيرها انتباهاً في اخوّيتنا.

اما هو فطلب ان يراها.

وبالجهد استطاعت الاخوات ان يقنعنها بالمجيء الى الأب. وفي النهاية مثلت امامه والغبار يغطي بشرتها. فلما رآها، ذُهل ولبث عديم الحركة في مكانه. فالوشاح الذي كانت تغطي به رأسها كان يسطع ببهاء. فسقط على ركبتيه وقال:

باركيني ايتها البارة.

فانطرحت الراهبة الى الارض وقبّلت قدميه وقالت:

باركني انت يا ابت.

فذهلت الراهبات من الكلام المسموع.

وقلن للأب:

لا تحتقر نفسك هكذا يا ابانا، فالأخت بلهاء.

فوقف وقال لهن:

كل واحدة منكن هي بلهاء وغبية. ان هذه الاخت تفوق الجميع في فضيلتها. انها اعظم مني. وتستحق ان يقال لها اماً روحية. وأني اسأل الله ان نكون بجوارها في مجيئه الثاني. وبعد ذلك، اخبرهن ماذا اعلن له الله عن المغبوطة ايسيذورا. فلما سمعت الراهبات ذلك، سقطن على الارض، وطلبن من ايسيذورا السماح. واعترفت كل واحدة منهن للأب الروحي ماذا حصل لها، وماذا فعلت. فقد كانت الواحدة منهن تسخر منها من الصباح حتى المساء. بينما راحت الاخرى ترشّها بالماء القذر. واخرى كانت تشدّها من انفها. ولم يكن هناك واحدة لم تتعرض لإيسيذورا

بالاساءة والاحتقار والتعذيب.

فصلى الأب من اجلهن طالباً ان يغفر لهن الله الاساءة وسوء المعاملة.

ثم توجّه الى الأخت ايسيذورا وطلب منها ان تسامحهن، لكنه لم يجدها.

لقد غادرت الدير على عجل كي تتجنب المديح البشري. ومنذ ذلك الحين لم يسمع بها احد، ولم يُعرف كيف انهت حياتها.

- واليكم الآن كيف كان الآباء القديسون القدماء يجربون ابناءهم وذلك كي تولد فيهم فضائل المسيح، وعلى رأسها التواضع. ودونكم القصة التالية كما رواها لنا الأب البار كاسيانوس: قدم احد النبلاء الى الدير تاركاً المدينة وامجاد العالم. ولما دخل الدير طلب ان يقبلوه راهباً عندهم. فأراد الأب الرئيس ان يجرّبه قبل ان يقبله عنده. فأعطاه بعض السلع البسيطة وعمل اليد وأرسله الى المدينة ليبيعها. وطلب منه ان لا يبيع هذه الاغراض في دكان واحد، بل يجب ان يطوف المدينة كلها ليبيعها قطعة فقطعة وان يجتاز الطرقات العامة وهو يعرضها للبيع.

فنفّذ الامير الوصية حرفياً. ولما مضى الى المدينة رآه المعارف والاقارب والاصدقاء وازدروه في داخلهم.

وفي المساء عاد الى الدير، للحال ألبسه الأب الرئيس ثوب الرهبنة وجعله واحداً من العائلة. ثم جمع الاخوة وقال لهم:

اخونا مستحق، لأنه أظهر التواضع.

- سأل احد الرهبان الشباب ناسكاً وقال له:

كيف يمكنني ان اصبح جاهلاً من اجل المسيح؟

فأخبره الشيخ القصة التالية:

احد النساك الذي في الجوار، تبنى صبياً يتيماً احتضنه ورباه في قلايته. وذات يوم سمعه يسدي له النصيحة التالية ويقول:

يا بني، اذا حدث ان شتمك احد، فبادر الى مباركته. واذا دعيت الى

مائدة، فتناول الأردأ تاركاً لغيرك ما هو افضل. واذا اخترت لباساً، فآثر العتيق تاركاً الجديد والانيق لغيرك. واذا ارسل احدهم اليك...

فاستوقفه الصبي على عجل، وقال له:

لقد ادخلتني في تفاصيل امور عديدة يا ابي.

فقال الشيخ:

اجل يا ولدي، كن جاهلاً حباً بالمسيح، فتجد سلام قلبك طوال حياتك.

- اراد الشيوخ ان يتأكدوا اذا كان الأب اغاثون وديعاً ومتواضعاً كما يقال عنه، فتوجهوا اليه ذات يوم مبدين الغضب في كلماتهم وعلى محياهم. ولما وصلوا الى قلايته، نادوه من خارج، وقالوا:

هل انت اغاثون المتكبر والرديء السمعة؟

فقال الأب اغاثون:

اجل يا اخوتي هكذا انا في حقيقتي (قال هذا دون ان يضطرب البتة).

فقالوا له:

وكيف تجرؤ على الكلام ضد الاخوة وتدينهم؟

فقال لهم:

كل الحق معكم. ولكن اتوسل اليكم ان تصلوا الى الله من اجلي كي يرحمني.

فقالوا له:

الا يكفيك بعد كل ما يقال فيك انك اصبحت هرطوقياً ايضاً.

فقال لهم:

كلا يا اخوتي، انا لست هرطوقياً.

فقالوا له:

فسّر لنا يا ابانا لماذا قبلت كل ما قيل فيك بفرح، اما ان تكون هرطوقياً فلم تستطع ان تقبله؟

قال لهم:

كل ما قيل عني حسن لنفسي ونافع. لكنني اذا كنت هرطوقياً، فهذا يجعلني بعيداً عن الله.

فذهل الآباء لدقة تمييزه، واقرّوا انه كان على صواب في كل ما قال.

- قال احد الشيوخ الحكماء: اذا مدحْنا انساناً في حضرته، فهذا يجعل ابليس ينهض كي يحاربه.

- زار انسان الأب يوحنا وامتدح براعته في العمل. فتظاهر الأب وكأنه لم يسمع، بل تابع عمله صامتاً. فامتدحه الزائر للمرة الثانية، فلازم الأب يوحنا الصمت. ولما حاول ان يمدحه في المرحلة الثالثة، قاطعه الأب وقال له:

منذ ان دخلت قلايتي يا اخي، اوشكتَ ان تطرد الله وتبعده عني.

- اعتاد الأب يوحنا نفسه ان يقول:

التواضع باب السماء. وبالتواضع دخل اباؤنا جميعهم الى مدينة الله.

- يقال ان الأب مكاريوس كان رصيناً مع الناس، ولم يكن يكلم الذين كانوا يكرمونه ويمدحونه. والاخوة الذين كانوا يعرفونه، عندما ارادوا ان يستشيروه، دخلوا معه في حديث وقالوا له: ماذا فعلت يا ابانا عندما كنت مكارياً، وكنت تسرق اغراض الغير وتخبئها؟

فابتسم الشيخ شاكراً بعد سماع هذه الكلمات النابية غير اللائقة. وعاد يحدث الاخوة.

- دعا البعض الى المدينة شيخاً ناسكاً كي يشفي بصلاته انساناً ممسوساً. فمضى الى المدينة تلبية للطلب.

وعندما رآه اقارب الممسوس، خرجوا الى الطريق بشموع مضاءة لاستقباله. لكن هذا الموقف لم يرق الشيخ. فقام وخلع ثيابه حتى بدا عارياً. ثم جلس القرفصاء وراح يغسل ثيابه على ضفاف النهر. فأعثر الذين رأوه، وهربوا من وجهه مذعورين ومُعثرين.

وبعد حين سأله احد اصدقائه:

لماذا فعلت هكذا يا ابت؟ لقد سمعت من بعض من شاهدوك عارياً انك انت نفسك ممسوس.

فقال الشيخ:

اظن ان هذه حقيقتي يا اخي.

- قال الأب سيرابيون: اصطناع التواضع ليس تواضعاً. ثم تلا عليهم القصة التالية: قدم الى قلايتي راهب شاب كي يستشيرني في مسألة كانت تزعجه. فأردت ان اغسل له رجليه كعادتي مع كل الغرباء. لكنه وقف، وكان يصعب علي ان اقنعه وقال:

لست مستحقاً ان تلمسني يا ابت.

ولما حان وقت الطعام، رجوته هو ان يصلي.

فقال لي:

انا انسان خاطئ يا ابت. انا لا استحق ان ابارك المائدة.

وبعد تناول الطعام، قال لي انه يرغب ان يطوف البرية كلها يحدّث الآباء الشيوخ.

فقلت له:

ما تزال فتياً على هذه الرحلات يا اخي. واذا كنت تريد خلاص نفسك، اغلق على نفسك في قلايتك، وانتبه لنفسك. لأن الطواف في البرية لا يفيدك بدون هذه.

وقال الأب سيرابيون:

وكنت الاحظ انه بدا منزعجاً، لأن معالم وجهه بدت تتحول الى شيء من الرعونة، وقد كان يظن انني كنت اوجه له انتقاداً لاذعاً.

ثم قال له:

حتى الآن يا اخي، كنتُ مضطراً ان اقول ذلك. كنت تدين نفسك على

انك خاطئ وغير مستحق للحياة. اما الآن، ومن اجلك، وحباً بك، فعلتُ ما فعلتُ، لكنك غضبت في داخلك. تعلّم كيف تكون متواضعاً في القلب لا بالكلام فقط.

فشعر الأخ بخطيئته، وغادر منتفعاً.

- قال احد الآباء الحكماء:

عندما يكرمك الناس، اتضع وقل لنفسك:

لو عرفوا ما انا عليه في الحقيقة، لما قاموا بهذا. وبهذا لا تتلف نفسك، بل تحفظها وتصونها.

الفصل الثامن

١ - في اللاقنية:

- اسدى الأب بيمن لأحد الرهبان الشباب النصيحة التالية:

يا اخي اذا اردت ان تكون راهباً صالحاً واخاً قدوةً في الدير ومع الأخوة، اجعل في ذهنك هذين الأمرين:

١- تجنّب كثرة الكلام.

٢- لا تقتن شيئاً فتجعله حكراً عليك، حتى ولو كان وعاء صغيراً.

وهكذا تكون حياتك في هدوء وسلام.

- اعتاد احد الشيوخ الكبار ان يقول:

كثيرون من الرهبان وزعوا املاكهم على الفقراء وتركوا الاهل والاصحاب وقدموا الى الدير حباً بالمسيح. لقد انجزوا اموراً عظيمة، لكنهم انهزموا امام امور صغيرة، فصاروا مطية ابليس، وسقطوا في حبائله. وكل هذا اصابهم لأنهم اهملوا نذر الفقر واللاقنية، فكانوا يحتفظون في قلاليهم بالثمار المجففة وامور اخرى من ثياب واحزمة وسواها...

- وجد الراهب بيسيوس الأخ الاصغر للأب بيمن ذات يوم وعاء يحتوي على نقود ذهبية. فلما عاد الى الدير من نزهته، كلّم الأب انوب على حدة وقال:

الا ترى معي ان الأب بيمن يقسو علينا عندما يطالبنا بالنسك الشديد؟ فلنتركه وشأنه ونصنع لأنفسنا ديراً صغيراً نحيا فيه بهدوء.

فسأله الأب انوب مستغرباً: ومن اين المال لهذا المشروع؟

فأراه الأخ بيسيوس المال الذي وجده.

فلما رأى الأب انوب المال الكثير في يدي بيسيوس حزن من اجله كثيراً، لكنه لم يقل كلمة.

ثم اجابه بعد حين قائلاً: لما لا نمضي الى جوار النهر علّنا نجد مكاناً يصلح لتشييد الدير؟

وهكذا، اخذ المال من الأخ بيسيوس وجعله تحت قبعته الرهبانية وانطلقا.

ولما اقتربا من النهر، قام الأب انوب بحركة بدا بعدها وكأنه ترنح، للحال سقط في الماء. ولما خرج، ابدى جانب الحزن لما حصل، وقال: لا تحزن يا بيسيوس لضياع المال، فالله يرى. ولما رأى بيسيوس انه لم يعد معهما مال، قال له:

لنعد الى الدير يا ابت.

وهكذا عاد الاثنان الى الدير وعاشا بسلام حتى نهاية حياتهما.

- سأل راهب شيخه في صبيحة احد الأيام، وقال:

يحزنني يا ابت ان عندي معطفين.

فقال له الشيخ وقد عرف بفضيلة التمييز:

ليكن لك معطفان، ولكن لا تقتن شراً ورذيلة، فالنفس يا اخي لا تحتاج الى الشرور. الا ان جسدنا يحتاج الى كساء. فعندما يكون عندك الضروري، تعلّم ان تكتفي به.

- ثم قال هو نفسه:

أحبب يا أخي اللباس البسيط والفقير اذا كنت تريد ان تطرد من قلبك الكبرياء والنفخة. لأن من يحب الرفاهية، لا يمكنه ان يقتني التواضع . والطبيعي ان يكون الأنسان الداخلي على شاكلة الخارجي.

- يريد الأب بمفو ان يكون لباس الراهب على النحو التالي:

اذا رميت ثياب الراهب في الشارع ،لا يرضى بها حتى المتسولون.

- زار مسيحي غني أحد المتوحدين في البرية.ولما همّ بالرحيل أهداه أمراً ثميناً جداً .لكن الراهب لم يرد ان يقبل الهدية. فرجاه الزائر والح عليه ان يقبله. ثم قال: خذه واعطه للفقراء.

فأجابه وقال: هذا عار مزدوج يلحق بي يا ولدي. فأنا لا أستطيع ان أقبل ما لست بحاجة اليه. كما ولا أستطيع ان اوزّع ما لست امتلكه.

- يقول أحد الشيوخ: اذا تصدقت لكن ذهنك احزنك بحجة انك اعطيت الكثير، فلا تكترث له، لأن هذا الفكر من الشيطان. لأن من يُعطي يشعر بالرضى لأنه يقوم بأمر حسن.الا ان المحروم، والذي ليس عنده ما يتصدق به، فيقتني التواضع في الفكر ودائما يقول لنفسه:

الويل لي لا أقوم بأمر حسن. هكذا عاش آباؤنا. وبهذه الطريقة وجد القديس أرسانيوس الكبير الطريق الى الله.

- أمتدح الآباء اللاقنية وعدم حب المال عند الأب اغاثون وتلميذه. عندما كانا ينزلان الى السوق ليبيعا عمل اليد، كانا يذكران المبلغ الذي يريدانه مقابل عمل اليد. فإذا ابدى الحانوتي رغبة في كثرة الكلام، كانا يصمتان، ويتركانه يدفع ما يشاء. واذا كانا يريدان امراً هما بحاجة اليه كانا يسلّمان عمل اليد ويأخذان ما يريدان دون ان يتكلما.

- حُورب الأب انطونيوس الكبير من الشيطان بشراسة، في بداية حياته الرهبانية. ولما كان ما يزال شاباً بعد، قام وتوجّه الى البرية. وفي الطريق صادف قطعة من ذهب، فنظر اليها وقال: كيف يكون في هذه البقعة النائية ذهب؟

ان هذا من حيلك يا ابليس. فأنت تريد ان ترميني في حب المال. لكن هذا لن يثنيني عن عزيمتي. ولما قال هذا اختفى الذهب.

- وذات يوم ايضاً وجد الأب انطونيوس قطعة ذهبية في الصحراء، فلم يرد ان ينظر اليها.

- سأل رئيس احد الأديار الغنية الأب بيمن وقال له:

كيف استطعت ان تقتني مخافة الله؟

فابتسم الأب بيمن، وقال له:

ان مخافة الله يا اخي لا تقتنى بمخازن مملوءة اطعمة، وبراميل طافحة بالاجبان.

- استطاع احد النساك بفضل الصلاة ان يطرد الشيطان من انسان ممسوس.

فقام هذا الأخير، عرفاناً منه بالجميل، وقدم للناسك كيساً مملوءاً نقوداً ذهبية. لكن الناسك لم يقبله البتة. وعندما راى ان الرجل كان حزيناً، اوعز اليه ان يوزع الذهب على الفقراء والمحتاجين. اما الناسك فترك لنفسه الكيس فارغاً. أخذ الناسك الكيس وحوّله الى قميص بدأ يلبسه على جسده مباشرة وذلك ليزداد نسكاً.

- ذات يوم مرض الأب ارسانيوس، ولم يكن عنده في القلاية ما يسد به جوعه. فاضطر ان يستعطي لتأمين حاجاته. وبعد ان تعافى شكر الله والفرح يملأ قلبه لأنه اهّله ان يستعطي حباً به.

- سأل الأب مرقس الأب ارسانيوس:

هل نافع للنفس ان لا يكون للراهب راحة؟ لقد رأيت قبل ايام احد الأخوة ينتزع بعض الخضار من حديقة مجاورة لقلايته.

قال الشيخ:

لا ضرر في ذلك، لكن اللاقنية الكاملة ينبغي ان تماشي تقدم الراهب في كل الفضائل. لأنه اذا لم يتقدم كل يوم روحياً، فسرعان ما تبرد جذوة الروح فيه.

- تعب الأب اغاثون وتلاميذه كثيراً كي يشيّدوا ديراً صغيراً يعيشون فيه بهدوء. وعندما اتمّوا العمل فيه، دخلوه ليعيشوا فيه. فأدرك الشيخ ان امراً رديئاً يقوم في ذلك المكان، فجمع تلاميذه وقال لهم: هلم لنغادر هذا المكان.

فلما سمع الأخوة هذا الكلام بهتوا وقالوا:

لو كان في فكرك ان لا نقيم ههنا، فلماذا تعبنا من اجل بنائه؟ ألن يسخر الناس بنا عندما يروننا فيقولون: انظروا الى الذين لا يعرفون ان يستقروا؟

اجابهم الشيخ وقال:

يستطيع الناس البسطاء ان يسخروا بنا ما شاؤوا، الا ان العقلاء منهم سيتفقون معنا على اننا حباً بالمسيح ورغبة بخلاص انفسنا، ازدرينا اتعابنا كلها. على كل انا لا ارغم احداً. ومن اراد يستطيع ان يتبعني. فلم يجد الأخوة امام حزم الشيخ بدّاً، فعدلوا عن فكرتهم وتبعوه.

- اراد الأب افتروبيوس ان يبيّن لأحد الرهبان الشباب انه ينبغي الاّ يتعلق بالدنيويات بل ان يعتبرها عابرة وزائلة ويحتقرها، فأسدى اليه هذه النصيحة:

لتكن الاعشاب طعامك، والاعشاب لباسك، وبين الاعشاب ليكن نومك.

- كان الأب مياثيوس عظيماً في فضيلة اللاقنية، حتى انه عندما كان يغادر قلايته كي يسير في الصحراء، وكان فكره يوعز له ان يذهب لينسك في مكان آخر، كان يمضي تواً فلا يعود الى قلايته، لأنه ليس له فيها ما يأخذه. اما الأبرة التي كان يحتاج اليها لعمل اليد فكانت دائماً معلقة في جيبه.

- ذات يوم اخذ زخريا ابن الأب سلوان، وبدون اذن من ابيه، بعض الأخوة، وبدأوا بتوسيع حديقة الدير. وعندما رأى الأب سلوان ذلك، لم يقل كلمة، انما ارتدى ثيابه، وهمّ بالرحيل قائلاً: صلوا من اجلي يا اخوتي. فذهلوا عندما رأوه يهمّ بالرحيل، وقالوا له:

الى اين تمضي يا ابانا؟ ماذا دهاك؟

قال: لا مكان لي في هذه القلاية.

ثم اردف يقول: لا اغادر هذا المكان، حتى يعود كل شيء الى ما كان عليه. فندم الأخوة على ما فعلوا، واعادوا كل شيء الى ما كان عليه حسب كلام الشيخ.

- مضى احد الاغنياء لزيارة الأباء في الاسقيط. وكان في جعبته الكثير من المال اراد ان يوزّعه عليهم. فلما وصل، دفعها الى الكاهن كي يوزعها على كل واحد حسب حاجته.

فقال له الكاهن: الشيوخ عندنا لا يحتاجون الى مال.

لكن الغني ألحّ كثيراً. فما كان من الكاهن الاّ ان قبل العطية. لكنه قام وجعل المال في كيس، ثم علقه على باب الكنيسة ليراه الداخلون والخارجون صبيحة قداس الاحد.

ثم قال للجميع:

اذا كان بينكم من هو بحاجة الى المال، فليمد يده الى الكيس ويأخذ ما يشاء. الاّ ان احداً من الأخوة لم يقترب ليرى ما في داخل الكيس. وبعضهم نظروا الى الكيس من بعيد، لا اكثر.

عندئذ التفت الشيخ الى الوجيه وقال:

انظر، لا احد يحتاج الى المال عندنا. لذا اشكرك واطلب منك ان تأخذه لتوزعه على الفقراء، فالله قبل عطيتك.

اخذ الوجيه المال ومضى مذهولاً لأن الآباء لا يحبون المال.

- مضى احد الأخوة ليسترشد على احد الشيوخ. وفي نهاية اللقاء سأله وقال: هل يصح يا ابت ان احتفظ بليرتين ذهبيتين فضلا عن عمل اليد، وذلك كي احفظهما لشيخوختي او لمرضي؟

قال الشيخ:

كلا، لا يليق ان تحتفظ بهما، لأنك بذلك تتعلم ان تضع رجاءك في مقتنياتك لا في الله.

- يقول احد الآباء الحكماء:

ان الراهب العديم الهم، الذي ذاق عذوبة اللاقنية، سيشعر ان جبته عبء عليه، وان وعاء الماء الذي في قلايته ثقل لا يطاق، وذلك لأن هذه تشغل ذهنه وتربكه.

- اسدى احد الشيوخ لرهبانه النصيحة التالية:

لا تعلّق على باب قلايتك جبة ثانية. وخير لك ان ترتعش من البرد من ان تقتني شيئاً ثانياً. فكيف تستطيع انت الخاطئ ان تقتني ما هو فوق حاجتك؟

كذلك لا تحاول ان تجعل في قلايتك اناء لا حاجة لك اليه، لأنك بذلك تبعد عناية الله بك.

ولا تعوّد نفسك على الإدّخار، بل اشتر ما انت بحاجة اليه فقط، ووزّع الباقي على الفقراء قبل حلول الظلام. فأنت لا تعرف اذا كنت ستعيش حتى الصباح التالي.

واذا كانت القلاية تتسع لك فقط، فلا تفكر في اخرى اكبر منها.

- اهتدى احد الوثنيين الاغنياء الى المسيحية على يدي كاهن مسيحي. وقبل موعد المعمودية، مضى وقال للكاهن: اريد ان اتصدق ببعض المال على المساكين.

فأخذه الكاهن الى بيت من افقر بيوت المدينة، ليريه بؤس الناس بأم عينيه.

ولما وصلا، قرع الكاهن الباب، فسمعا صوتاً ناعماً يدعوهما للدخول. فدخلا ليريا شاباً مفلوجاً مستلقياً على بساط ممزق. لكن وجهه كان يسطع بنور سماوي بسبب الفرح الداخلي الذي في داخله. وفي الغرفة الثانية كان هناك شاب آخر حالته تشبه حالة الاول.

فارتعش الغني لهذا البؤس الذي رآه امامه. ثم فتح كيسه كي يقدم للمريض مما فيه علّه يكفيه، رغم حالته، لحياة هادئة. فشكره المريض لكنه رفض العطية، وقال:

ليكافئك الله على محبتك يا اخي. ولكن كما ترى عندي كل ما انا بحاجة اليه. ليكن اسم الرب مباركاً، فهو يأتيني بكل ما احتاج اليه. فأنا اعمل، ومن تعبي اشتري خبزي. اما ما لست بحاجة اليه، فيكون مصدر قلق وازعاج لي.

فتعجب الغني لفضيلة الشاب المقعد. ثم قام الاثنان بعد ذلك، وتوجّها الى بيت آخر يبعد قليلاً عن بيت الشاب. فدخلا فوجدا فيه صبية في الثانية عشرة من العمر تلبس ثياباً رثة تغطي بها جسمها. ولما سألاها عن وضعها قالت:

انا يتيمة الأب واعيش مع امي. فامتدت يد الغني الى الكيس ليخرج منه مالاً، لكن الفتاة بادرت الى رفض المال قائلة له:

لقد وجدت امي عملاً اليوم، وسوف تعود عند المساء ومعها خبزتان نأكلهما معاً.

فسألها الغني: وما عمل امك؟

قالت: انها تنظّف البيوت. ولم تنته الصبية من الكلام، حتى دخلت امها منهكة من تعب النهار.

للحال رجاها الغني ان تقبل منه المال. الا ان الارملة لم تُرد حتى ان تنظر اليه، وقالت:

الله يعتني بنا كل يوم يا اخي.

فقال لها: وكيف تحتملين هذا الشقاء والبعد عن المنزل طيلة النهار؟ فلم تجبه بكلمة. فمضى الغني وقد اخذ عبرة مما رأى وعاين وهي ان هناك فقراء معادلون لعادمي الفضة، وان لهؤلاء ثقة عظيمة بالله.

- ذات يوم، قدم الى ريثو مسيحي غني وراح يوّزع على النساك مالاً كان يخرجه من كيسه.

وفي الليلة ذاتها رأى احد هؤلاء النساك بينما كان نائماً، انه وسط حقل مليء بالاشواك. وكان هناك ضابط كان يقف بجواره، فناداه، وقال:

خذ هذا المعول يا ابت واشتغل في حقل ذاك الغني الذي احسن اليك.

فلما استيقظ في الصباح، قام ومضى الى الغني وقال له:

اشكرك، خذ مالك، لأنه ليس عندي وقت لأقتلع الاشواك من حقلك. وارجو ان يكون عندي ما يكفي من الوقت لاقتلاع اشواكي

- يقول احد الشيوخ الحكماء:

الرهبان المتقدمون روحياً، لا يقبلون مالاً من أحد. اما الاقل تقدماً فيقبلون. لكن المرضى الذين لا يستطيعون ان يعملوا، فليطلبوا كل ما هم بحاجة اليه، ولكن بتواضع كبير. وليبادروا على الدوام الى لوم أنفسهم.

- قال الأب مكاريوس:

اذا كنت قد أمنتُ خبز يومي، ثم جاءني من يقدم لي طعاماً، علي ان افهم ان هذا تجربة لي الغاية منها ان يتوقف اتكالي على الله. لذا ينبغي ان لا اقبل شيئاً من أحد.

واذا كنت يوماً في حاجة، فإن الله سيرسل لي انساناً عطوفاً يغطي احتياجاتي. فهو نفسه ارسل الى دانيال طعاماً في جب الاسود.

واذا كان عندي مال، ورحت احتفظ به، وفي الوقت نفسه كنت انتظر مساعدة الناس لي، فأنا اكون كيهوذا الاسخريوطي الذي احتكر نعمة السيد حباً بالمال.

- قيل عن ناسك فقير جداً جاءه احد الأخوة بطعام يأكله. وحدث في اليوم ذاته انه جاءه آخر بشيئ يأكله ايضاً فلم يحتفظ بطعام الثاني قائلاً:

لقد افتقدني الله اليوم.يكفيني طعام واحد.

- اعتاد الأب فورتاس ان يقول:

اذا ارادني الله ان اعيش، فهو يعرف كيف يدبّر اموري. واذا كان لا يريدني ان اعيش، فهذا شأنه. وهكذا كان الأب فورتاس يحيا في فقر عظيم،دون ان يستجدي أحداً.

- وهو نفسه قال مرة اخرى:

اذا اهداني انسان شيئاً ليس حباً بالمسيح، بل بدافع الواجب، فأنني اكون ظالماً للمعطي اذا اخذته. فأنا لا استطيع ان اقبل العطية. والمعطي نفسه ليس له مكافأة من الله.

- بينما كان احد الرهبان الشباب يسير في الصحراء، وجد خشبة شعر من شكلها، انها كانت على ظهر الجمل قبل لحظات. فحملها ومضى بها الى قلايته. ولما دخل سأله الشيخ:

من اين اتيت بهذه العصا؟

اجابه قائلاً:

لقد وجدتها بينما كنت اسير في الصحراء.فقال الشيخ:

لو ان الريح دفعت بها اليك،لكان الامر مختلف. ولكن ماذا لو ان احداً اضاعها؟

فأطرق الشاب مفكراً. ثم مضى ووضع العصا حيث كان قد وجدها.

- مضى احد الأخوة في البرية الى المدينة ليبيع سلاله. ولما اقترب من السوق، وقع نظره على سلة كانت بقرب الرصيف. فأقترب منها. ولما نظر ما فيها وجد انها تحتوي الكثير من القطع الذهبية. فوقف في مكانه وراح ينظر لعل صاحبها يعود بحثاً عنها.

ولم تمضِ الا لحظات حتى اطل انسان ملأ الحزن قلبه وبدا وكأنه يبحث عن امر ثمين فقده وكان قد علّقه في حزامه. للحال اطلّ عليه الأخ وسلمه الكيس. فتأثر الرجل من دماثة الراهب وانسانيته، ومد يده الى الكيس ليخرج منه حفنة من قطع ذهبية دفعها للراهب تعبيراً عن شكره له. فقال الراهب:

شكراً لا اريد يا صديقي. وما فعلته لم يكن اكثر من واجبي. ولشدة دهشته راح يصرخ بأعلى صوته وهو يتوجه الى المارة قائلاً:

هلموا انظروا رجل الله. ولم ينهِ الرجل كلمته واعجابه حتى كان

الراهب قد توارى عن الانظار تاركاً سلاله التي جاء الى المدينة كي يبيعها.

- بينما كان الأب اغاثون عائداً الى قلايته برفقة ابنه، توقف الأبن لانه وجد على احد طرفي الطريق حبة لوبياء خضراء. فتنهد وقال للاب اغاثون: هل تسمح لي ان احملها يا أبت؟ فنظر اليه الأب اغاثون نظرة استغراب وقال:

هل سقطت منك بينما كنت تسير؟ قال كلا يا ابت.

عندئذ قال الشيخ:

اذاً كيف جال في فكرك انه يحق لك ان تلتقطها؟

- بينما كان الأب زينون يسير في برية الاردن، اضناه التعب، فجلس في ظل تينة. ولما كان جائعاً، همس له فكره ان يمد يده ويلتقط حبة تين ويأكلها. للحال قال الشيخ لنفسه:

مآل المجرمين الى الجحيم. جرّب اذا ان كنت تتحمل سعيرها، وبعدها مد يدك وكلْ ما تشاء. ثم تناول عصاه وراح يضرب نفسه بدون شفقة قائلاً:

اذا كنت لا تحتمل العقاب ايها الحقير، فكيف تجرؤ على السرقة؟ ولما قال هذا فارقته التجربة.

- قال الآباء بالاعجاب والتقدير عن الأب يوحنا الفارسي، انه لشدة صلاحه بلغ درجة عالية جدا من الصلاح.

وذات يوم اقترض من احد الأخوة قطعة ذهبية ليشتري وعاء ينقع فيه الخوص. فأقرضه ذاك ما اراد. فمضى وابتاع الوعاء المطلوب. وفي اليوم الثاني جاءه انسان يريد ان يستعير منه الوعاء كي يغسل فيه بعض ثيابه، للحال نهض وسلمه ما جاء من اجله.

وبعد ايام حان موعد دفع الدين، ولم يكن عند الأب يوحنا ما يوفي به دينه. فمضى الى الأب يعقوب مدبر الاسقيط يطلب منه مالاً. وفي الطريق

وجد كيساً فلم ينحنِ ليلتقطه. فمضى وعاد الى قلايته ،ولم يعد يرغب بالذهاب الى الأب يعقوب (المدبّر).

وفي صبيحة اليوم التالي، قرع الأخ باب قلاية الأب يوحنا. فقام الأب يوحنا وهم بالذهاب الى عند الأب يعقوب واعداً الأخ انه سيسدد له المال غداً. وفي طريقه صادف الكيس الذي كان قد رآه بالامس، لكنه ايضاً لم ينحن ليلتقطه، بل عاد الى قلايته.

وفي اليوم التالي جاء الأخ والغضب باد على وجهه، وراح بصوت مسموع يطلب من الأب يوحنا ان يسّدد له الدين.

فقال له الأب يوحنا:

اهدأ يا اخي، ارجوك، امهلني اليوم ايضاً فأرد لك مالك.

وبعد رحيل الأخ ، قام الأب يوحنا وتوجّه الى الأب يعقوب، فصادف في الطريق الكيس الذي كان قد رآه قبل يومين. فصلى، وأخذه وسلّمه الى الأب يعقوب قائلاً: يا ابت، لقد وجدت هذا في الطريق، لعل احد الأخوة اضاعه وهو الآن حزين بسببه؟

فقام الأب يعقوب وطاف بين قلالي الاسقيط يسأل الأخوة اذا كانوا اضاعوا شيئاً، فلم يجد من اضاعه.

للحال، وقف الأب يوحنا وقال للأب يعقوب:

طالما ان احداً من الأخوة لم يفقد شيئاً، اعطني هذا الكيس لأسدد به ديني، لأن الأخ الذي اقرضني المال بدأ يطلبه مني.

فتعجب الأب يعقوب لموقف الأب يوحنا، فهو رغم حاجته الماسّة الى المال، لم ينحن ليأخذ ما ليس له.

- وقيل عن الأب يوحنا نفسه، انه عندما كان احد يأتيه يطلب منه شيئاً، كان يقول:

ادخل يا اخي وخذ ما انت بحاجة اليه. فكان الأخ يدخل ويحمل ما يريد ويمضي الى وجهته.

وعندما كان الأخ يعيد ما كان قد اخذه بالأمس، كان يقول له: ادخل يا اخي، وضعه حيث اخذته البارحة.

اما اذا كان الأخوة لا يعيدون اليه اغراضه، فلم يكن ليطلبها منهم.

- يخبرنا الأب بالاذيوس عن شاب تقي وغني من الاسكندرية، مضى يوماً لزيارة الاماكن المقدسة، فطاف بعدد من الاديار والقلالي في فلسطين. وعندما عاد الى موطنه مصر، كان قلبه يطفح بالشوق الالهي. للحال وزّع ثروته على الفقراء كي ينخرط في السيرة الملائكية ويصبح راهباً. الا انه احتفظ بعقار له في الاسكندرية مع بعض الاشجار. وكان محافظ المدينة قد اراد ان يشتريها منه لموقعها وجمالها. وقد عرض ان يدفع ثمنها مهما اراد صاحبها. لكن بيصاريون لم يقبل، لأنه كان يفكر في ان يهبها لدير نسائي كان على مقربة من هناك.

ولما حان الوقت كي ينخرط في الرهبنة، مضى الى الأب ايسيذور البلوسيوتي كي يبوح له بما في قلبه. فأرشده الأب ايسيذور، وزوّده بعدد من الارشادات والافكار، وكان من بين ما قاله له: بع العقار الذي لك، واعط ثمنه للدير القريب. فأنا لا اريدك ان تسلّم الراهبات عقاراً واراضي لأن هذا من شأنه ان يبدّد سلامهن.

الا ان بيصاريون لم يشأ ان ينصاع لنصيحة الأب ايسيذور، بل قام واهدى الراهبات العقار والاشجار كما سبق وفكّر.

وهكذا، انعتق من كل اهتمام دنيوي، فقام وتوجّه الى الصحراء ليقيم في قلاية صغيرة وبسيطة في اسقيط الآباء.

ومرّت الايام، وكان الراهب يجاهد الجهاد الحسن، فلا يدع الاهتمامات الدنيوية تشغله.

وذات مساء رأى حلماً مزعجاً جداً. لقد رأى نفسه في بيت لحم في كنيسة الميلاد. وبينما هو هناك اضاء نور من السماء الهيكل. وللحال بدأ رجال الله يفدون وهم يرتدون الحلل الذهبية وكانوا ينشدون التراتيل.

وشاهد وسط الوافدين امرأة آية في الجمال ازدان اعلى رأسها بالجواهر الثمينة فبدت كأنها ملكة.

ولم يكن بيصاريون قد عاد الى نفسه من رؤية هذا المشهد، عندما سمع صوت هذه الملكة يناديه باسمه.

ثم قالت له:

منذ ان اهديت الارض الى الراهبات، شرعن يُغضبن الله بتصرفاتهن.

فارتعش بيصاريون لدى سماعه هذه الكلمات وقال:

كنت اريد ان اريحهن فحسب. فهن نساء. والنساء آنية ضعيفة. ولكن لم يكن يجول في خاطري ان اشيح بصرهنّ عن الله.

ثم قالت الملكة: انا اعرف ان نيتك كانت حسنة يا ولدي، الا ان عدو النسل البشري وجد مدخلاً الى نفوسهن فاتلف حسن سيرتهن. ثم ان الله يستطيع، لكونه المعتني بالجميع، ان يرسل لهن نهراً من ذهب، الا ان هذا لا يناسب خلاصهن.

ولما قالت هذا، رفعت يدها المباركة ورسمت بها اشارة صليب وهي تتجه الى ناحية بيصاريون.

وبعدها، قالت:

هذا هو نموذج الرهبان. اقتدوا جميعكم به ان كنتم تريدون ان ترضوا الله.

ثم قالت له:

اصلح غلطتك فتجدني حامية لك على الدوام.

ثم قالت للمعمدان: اختم قلبه يا يوحنا، كي لا يعتقد ان ما يسمعه من نسج الخيال.

فمد السابق يده، وختم صدر بيصاريون وهو يرسم عليه علامة الصليب.

للحال غاب النور، وتوارى الحاضرون عن الانظار.

ولما افاق بيصاريون، مضى الى الأب ايسيذوروس واخبره بكل ما جرى.

فقال له الأب ايسيذوروس:

كان ينبغي ان تسمع لي يا ولدي. الا تعلم ان العقارات مجلبة للهمّ الدنيوي؟ ولا تنس ان الارض تحتاج الى عناية وعمل، وهذا شأن الرجال. وابليس لا يترك الانسان رجالاً او نساء من شروره. فإذا كان لا يليق بالرهبان ان يقتنوا شيئاً، فكم بالاحرى يكون حال الراهبات؟

فقام الراهب بيصاريون في اليوم نفسه ونزل الى الدير النسائي واستطاع ان يقنع الراهبات ببيع الارض لمن اراد ان يشتريها (المحافظ). وبعد ذلك عاد هذا الراهب الصالح الى قلايته وأمضى حياته بسلام.

٢- في العمل:

- يقول الأب بلاديوس:

عندما حان موعد رحيل البار بمفو من هذا العالم، راح يقول لأخوته المجاهدين معه انه منذ ان اصبح راهباً، لم يمض يوماً من حياته بدون عمل، كذلك لم يأكل يوماً خبزاً لم يتعب من اجله.

- ويقول بلاديوس نفسه:

عاش في مصر مئات الرهبان. وكان لكل اسقيط كنيسة يصلي فيها رهبانها. وكانوا جميعاً يضيفون الغرباء. وكان الأباء يستضيفون جميع الغرباء ويطعمونهم عندما يقوم هؤلاء بزيارة برية مصر. فضلاً عن كل هذا، كان عند الأباء العادة التالية: كانوا يريحون ضيوفهم طيلة اسبوع كامل، وبعد ذلك كانوا يسلمونهم بعض الاعمال في الحديقة او في

المطبخ او في مكان آخر، وذلك كي لا يبقى الضيوف بدون عمل. كذلك كانوا يعطونهم كتاباً نافعاً ليطالعوه بعد الانتهاء من العمل. وكانوا يوصونهم بعدم التحدث الى الأخوة كي لا يتشتتوا اثناء العمل المادي والروحي. وكان جميع آباء الاسقيط ينشغلون بعمل اليد وذلك لتأمين احتياجاتهم وضيافة الأخوة الغرباء.

- ويخبرنا كاتب سيرة الشهيد البار لوكيانوس، ان لوكيانوس هذا، شهيد المسيح، كان منذ مطلع شبابه قد اخضع جسده للروح بصوم منقطع النظير، وسهر مع صلوات، فضلاً عن اتعاب جسدية كثيرة.

وكان يتعب كثيراً من اجل قوته، ومن اجل اراحة الفقراء، وادخال التعزية الى قلوبهم. ولم يكن يضع في فمه خبزة لم يتعب من اجل الحصول عليها. ولم يأكل يوماً، الاّ بعد ان يكون جميع من معه قد اكلوا.

- مضى الأب اموي برفقة الأب بيتيميوس الى قلاية الأب أخيل، فوجداه غارقاً في عمله. فسألاه:

منذ متى بدأت عملك يا ابانا؟

فقال: لقد بدأت عملي عشية البارحة. وقد انجزت حتى الساعة عشرين حصيرة لست بحاجة اليها. الاّ اني اخاف ان اكون متوانياً امام الله، عندما اتكاسل في وقت اكون فيه قادراً على العمل.

فتعجب الضيفان من كلماته، وغادراه منتفعين.

- استغرب الأخوة لما علموا ان اخاً لهم يعمل في يوم عيد احد القديسين الشهداء. ولما سألوا الأخ عن سبب ذلك، قال:

في مثل هذا اليوم كان رجل الله الشهيد يتعذب حباً بالمسيح، وفي النهاية سفك دمه. فكيف لا اقبل انا ان يتندّى جبيني عرقاً في اليوم نفسه؟

- زار بعض الرهبان احد النساك في قلايته في وقت كان فيه ذهنه مخطوفاً بالصلاة. وكانت يداه لا تتوقفان عن حياكة الخوص.

فسألوه قائلين:

قل لنا يا ابانا: ماذا يجب على الراهب ان يعمل كي يخلص؟

فأجابهم قائلاً:

كما ترون يا احبائي. وكان يقصد انه على الراهب ان يصلي ويعمل.

- قال احد الشيوخ:

عندما تنهض في الصباح يا اخي، قل لنفسك: يا جسدي، اعمل لتأكل. ويا نفسي تيقظي، لتخلصي.

- مضى احد رهبان الاسقيط الى سينا، فأكرمت ضيافته في قلاية الأب سلوان. واذ رأى رهبان الأب سلوان يعملون، قال:

لا تعملوا فوق الطاقة لأن الكتاب يقول: واختارت مريم النصيب الذي لا ينزع منها (لوقا ٢٤:١).

اما الأب سلوان فلم يجبه بكلمة. بل اوعز الى تلميذه زخريا ان يقود الضيف الى قلاية فارغة، وأعطاه كتاباً كي يقرأه.

دخل الراهب القلاية وراح يقرأ حتى انهكه التعب. فضربه الضجر وجاع اخيراً. وعند الثالثة بعد الظهر، اخذ ينظر الى باب القلاية علّه يأتي من يدعوه الى تناول الطعام. ولكن شيئاً كهذا لم يحصل. فقرر ان يمضي بنفسه ليقف على حقيقة الأمر. فرأى الشيخ في الحديقة يسقي الارض. فلما اقترب منه سأله: ألم يأكل الأخوة اليوم يا ابت؟ قال هذا وهو يتكلم بصراحة، لأن الجوع بدأ ينهش احشاءه.

اجابه الشيخ قائلاً:

اجل، لقد أكلوا جميعهم.

فقال الضيف:

وكيف نسي الأخوة ان يدعوني الى الطعام كي آكل معهم؟

اجابه الأب سلوان ببساطة:

انت يا ولدي انسان روحاني ولست بحاجة الى طعام مادي. اما نحن فنحيا في الجسد، لذلك نحتاج الى طعام، ومن اجله نكد ونعمل. اما انت فقد اخترت النصيب الصالح، وكنت تقرأ طوال النهار، لذا فأنت مكتفٍ بما تعمل.

فأدرك الراهب غلطته وطلب السماح من الشيخ سلوان.

فقال له الأب الحكيم:

تعلّم يا ولدي ان مريم ايضاً كانت بحاجة الى مرثا. وانه بسبب خدمة مرثا، أُكرمتْ مريم وامتُدحتْ.

- نسك الأب يوحنا الكوخي مع اخيه الأكبر وهو في ريعان الشباب.

وذات يوم حمله حماس روحي، فقال لأخيه:

يا اخي، اريد ان اعيش كالملائكة، بدون همّ، فلا انشغل بالماديات، بل اسبح الله بلا انقطاع. فأسألك ان تسمح لي بالذهاب الى عمق الصحراء لأذوق السيرة الملائكية.

فقال له اخوه:

ليس ما يمنعك من الذهاب يا اخي، فأنت حر ان تفعل ما تشاء.

وفي صبيحة اليوم التالي، اعدّ الراهب يوحنا نفسه للتوجه الى البرية الداخلية، دون ان يحمل شيئاً معه. ولما حان الوقت، ودّع اخاه وتوغل في الصحراء اسبوعاً كاملاً.

وبعد هذه المدة، عاد في صبيحة احدى الايام منهكاً من الجوع والبرد، وراح يقرع باب قلاية اخيه. فتظاهر اخوه انه لا يعرف صاحب الصوت.

فقال يوحنا: انا يوحنا اخوك.

فقال الأخ الاكبر:

يستحيل هذا، لأن يوحنا اصبح ملاكاً، ولم يعد يعيش مع البشر.

فقال يوحنا:

افتح لي يا اخي، وراح يرجوه ان يفعل بحرارة. ثم قال: انا متعب للغاية واريد ان ارتاح. فأراد اخوه ان يصلح سيرته، فتركه خارجاً حتى الصباح التالي. ولما طلعت الشمس فتح له وادخله.

فقال الأخ الأكبر:

ارى انك ما تزال انساناً. (قال هذا وهو يبتسم). ثم اردف يقول:

اجلس واعمل لتعيش، فالامور السامية ليست لك.

ومنذ ذلك الحين راح يوحنا يعمل بجد.

- ذات يوم، قام الأب مكاريوس وتوجّه الى جبل الأب انطونيوس الكبير للتحدث الى رئيس النساك والمتوحدين. فمشى اياماً في تلك الصحراء القاحلة الى ان وصل اخيراً الى مغارة الأب انطونيوس. فقرع الباب بورع.

فخرج الأب انطونيوس وسأله:

من انت؟ وماذا تريد؟

فقال الأب مكاريوس:

انا مكاريوس واريد ان اسمع منك بعض التعليم والتوجيه.

لكن انطونيوس صمت. ثم قفل عائداً الى الداخل، واغلق الباب، فقد اراد ان يمتحن صبر مكاريوس. فبقي الأب مكاريوس خارجاً رغم تعبه وطول رحلته. لكنه ظل واقفاً لا يريد ان يجلس حتى يسمح له الأب انطونيوس بذلك. وبعد ساعات، فتح الأب انطونيوس باب القلاية وادخله.

ولما دخلا، قال الأب مكاريوس:

لقد سمعت الكثير عنك وعن منجزاتك يا اخي، فأردت ان اراك. وها قد تحققت رغبتي الآن.

فطلب منه الأب انطونيوس ان يجلس. وأعد له مائدة صغيرة جعل عليها خبزتين وكوب ماء. وبعد الانتهاء من الطعام، رطّب الأب انطونيوس

الخوص وبدأ يحيكه. فقال الأب مكاريوس: بارك يا ابت، هل استطيع ان احيك الخوص مثلك كي لا اكون بدون عمل؟ فسمح له الأب انطونيوس ان يعمل. فجلس الى جانبه يحيك الخوص.

استمر الحال هكذا من المساء حتى الصباح، وكان الاثنان يتكلمان عن الامور الروحية، وعن خلاص النفس، بينما راحت ايديهما تحيك الخوص بدون توقّف، حتى وصل الخوص الى باب القلاية.

وفي الصباح، لما رأى الأب انطونيوس ان الأب مكاريوس عمل كثيراً، اخذ يديه وقبّلهما باعجاب قائلاً:

ان قوة عظيمة تكمن في هاتين اليدين المباركتين.

- سأل راهب شاب احد الشيوخ قائلاً:

كيف استطاع الآباء القدماء ان يبلغوا درجة عالية من الفضيلة؟

ولماذا ان الأباء اليوم، ورغم كثرة العمل، لا نجدهم يتقدمون؟

اجابه الشيخ وقال:

كانت الصلاة عمل القدماء يا ولدي. اما اليوم فقد اصبح العمل اولاً، والصلاة تأتي في المرتبة الثانية. لهذا فالآباء اليوم يتعبون، ولكن بدون ان يقطفوا منفعة داخلية. لقد نسوا قول السيد: اطلبوا اولاً ملكوت الله، والباقي كله يزاد لكمً (متى ٦:٣٣).

- مضى احد الأخوة كي يعترف بخطاياه عند الأب بيستامون. وقال له: عندما يحين الوقت كي ابيع عمل اليد يا ابت، تنتابني موجة من الحزن والكآبة.

فقال له الشيخ:

ولماذا يحصل هذا يا ولدي؟ ألعل الآباء، وايضاً الأب صيصوي انتابهم الشعور نفسه عندما كانوا يبيعون عمل اليد كي يعيشوا بثمنه؟

فقال الأخ :

هل من سبيل آخر احصل به على خبزاتي يا ابت؟ أليس من الافضل ان اعيش بدون همّ؟

اجابه الشيخ الحكيم قائلاً:

وحتى لو توفر لديك اكثر مما انت بحاجة اليه، لا تحتقر العمل، فالله قد سبق ان باركه، لأن الصلاة مع العمل، هي عمل الراهب على الدوام يا اخي.

ثم اسدى له نصيحة اخرى قائلاً:

اعملْ، ولكن بدون تعلّق. وعندما يحين الوقت لتسليم عملك، قل الثمن المطلوب مرة واحدة. اما اذا كنت تود ان تخفّض الثمن قليلاً، فهذا متروك لك. افعلْ هذا، تجدْ راحتك على الدوام.

الفصل التاسع

١- في الامساك :

قال الأب يوحنا الكولوفي:

كان الآباء القدماء يأكلون خبزة وملحاً مرة واحدة في اليوم، ولم يكونوا يشبعون، لهذا كانوا أقوياء واشداء في العمل الالهي.

- منذ ان اصبح الاب ذيو سقوروس راهبا، كان يأكل مرة في اليوم.

وكان طعامه خبزة واحدة وقليلاً من الماء. وكان كل سنة يبتكر نسكاً جديداً. على سبيل المثال:

لم يكن يغادر قلايته، بل كان يلازم الصمت.وهكذا قطع كل رغباته.

- عاش أخ في دير القديس ثيوذوسيوس في فلسطين، وكان طيلة خمس وثلاثين سنة لا يأكل الا الخبز مرة واحدة في الاسبوع، ولم يكن يغادر الكنيسة.

- وضع الأب مكاريوس الشرط التالي على نفسه عندما كان يجلس الى مائدة الطعام مع الأخوة: اذا قدموا له النبيذ ليشربه محبة بالاخوة، كان ينقطع عن الماء ليوم كامل.

وقد ظن الأخوة أنهم بهذا يفرحون قلبه. فكان هو يقبل النبيذ اليوم، ويعذب نفسه في اليوم التالي بالانقطاع عن الماء. فلما عرف أبنه سر جهاده، قال للاخوة:

يا اخوتي، أرجوكم حباً بالرب أن لا ترغموا الأب مكاريوس ان يشرب النبيذ. لأنه اذا شرب النبيذ اليوم، سيبدأ شهادة العطش غداً.

- ذات يوم مضى الأب يوحنا رئيس احد الاديار في مصر، الى اعماق الصحراء، لمقابلة البار بيسيوس الناسك الذي كان في البرية طيلة أربعين سنة لم يغادرها يوماً.

ولما جلس معه. سأله:

ماذا جنيت يا أبت من حياتك في اعماق البرية عندما كنت لا تقابل احداً؟

أجابه الأب بيسيوس قائلاً:

منذ ان اتيت الى هنا لم تلفحني الشمس أثناء الطعام. فقال الأب يوحنا: ولا انا ايضاً.

- قال احد الرهبان عن ابيه الروحي:

لم يستلقِ طيلة عشرين سنة لينام، بل كان يتكىء على الجدار قليلاً عندما كان يعمل. وكان يأكل طعامه مرة كل يومين، واحياناً مرة كل أربعة أيام، أو اسبوع. وكان يأكل بيد، بينما اليد الأخرى تظل مرفوعة الى السماء للصلاة.

وذات يوم سأله تلميذه:

ولماذا تفعل هذا يا أبت؟ اجابه الشيخ قائلاً:

اني أجعل أمام عيني دينونة الله كل حين. ولا استطيع أن أحيا لأنتظرها .

- وذات يوم خرج الشيخ نفسه من قلايته فوجد تلميذه نائماً عند عتبة الباب. فوقف بقربه وراح ينظر اليه بدهشة وهو يحرك رأسه. ثم تساءل في داخله وقال:

ترى أين تجول أفكاره حتى أنني اراه نائماً هكذا بدون هم ؟

- قال احد الأباء الحكماء:

قابلت ناسكاً عُرف بشدة الأمساك والجهاد، ولم يضع في فمه طيلة سبعين سنة غير الأعشاب البرية وبعض الخضراوات.

- مرض أحد المتوحدين في البرية، وكان يكتوي من ألمه، اذ لم يكن هناك من يعينه في وحدته. فرأى الله صبره فأرشد اليه أحد الرهبان الشباب ليعتني به. فوجده في اسوأ الاحوال. فجلس بجانبه وراح يعزيه ويحركه ويعد له طعاماً يأكله. فتحسنت حالته، فقال للأخ:

صدقني يا اخي - قال هذا وهو يشكره من كل قلبه- انني نسيت ان عند الناس راحة. وفي اليوم التالي جاءه الأخ ببعض النبيذ ودفعه اليه كي يشربه.

فلما راى النبيذ تنهّد وبكى قائلاً: لم اتوقع مثل هذه العناية في حياتي.

- نصح الأبَ يوسف الأبُ بيمن كيف يكون تعاطيه مع الطعام قائلاً:

تناول القليل منه مرة في اليوم، دون ان تشبع.

ثم قال له:

يا ابت، عندما كنت شاباً، ألم تكن تأكل مرة كل يومين؟

اجابه الأب قائلاً:

وكثيراً ما كنت اصوم اسبوعاً كاملاً.

فقال الشيخ:

لقد عرف الآباء بالخبرة، ان يأكلوا مرة واحدة كل يوم. هذا هو الاسلوب الوسيط. اما الخروقات والتجاوزات فهي من الشياطين.

- اعترف احد الاخوة للأب سرماتا قائلاً:

يا ابت ان فكري يعذبني، فهو يقول لي: كلْ واشربْ ونمْ. فأجابه الشيخ قائلاً:

عندما تجوع، كلْ. وعندما تعطش، اشرب. وعندما تنعسْ، نمْ.

- قال احد الشيوخ:

هناك اناس يأكلون كثيراً ويجوعون. وآخرون يأكلون قليلاً ويشبعون. فالامساك يكون اكبر عند الذين يأكلون كثيراً ويجوعون، اما القليلو الاكل، فإمساكهم اصغر.

- وهو نفسه كان ينصح الاخوة ويقول:

انتبهوا لأجسادكم كي لا تمرض، فتصبحون بسببها عبءاً على الاخوة.

- زار احد رهبان مصر الأب مايسوس في جبل سينا قائلاً له:

وكيف يا ابت اعتدتم على الامساك حيث تقيمون؟

اجابه الشيخ قائلاً:

اننا نصوم يومين، وفي اليوم الثالث نأكل خبزاً.

فقال له الأب رجل التمييز:

الامساك الاعظم هو ان تأكلوا نصف خبزة كل يوم.

- سأل احد الرهبان اباه الروحي قائلاً: لأي سبب تتولد حرب الجسد في الانسان؟

اجابه الشيخ قائلاً:

تتولد حرب الجسد في الانسان من كثرة الاطعمة وكثرة النوم. كذلك فإن الطبيعة البشرية تطلب اللذة، اما النسك فيجففها.

- قدّم احد المؤمنين للنساك في جبل الأب انطونيوس اناء مملوء نبيذاً. فقام المسؤول عن خدمة الاخوة وقدم كأس نبيذ للبار صيصوي، فأخذه وشربه. ولما كان الأخ المسؤول طاعناً في السن، فقد همّ بسكب كأس آخر.

فقال له الأب الرئيس:

كفّ عن زجيّ في التجربة يا اخي. لعلك نسيت ان الشيطان موجود؟

- قال احد الآباء القديسين:

اذا قال لك فكرك اليوم عيد، فكلْ اكثر، لا تسمع له يا اخي. لأنك اذا فعلت هكذا تعيّد يهودياً لا مسيحياً. فالعبرانيون يعدّون اطعمة كثيرة لكل عيد. اما طعام الراهب فليكن النوح مع الدموع.

- عاش الأب إلاذيوس وهو يأكل خبزاً وملحاً طوال حياته كحال جميع رهبان الاسقيط. وعندما كان يقترب موسم الفصح، كان يقول لنفسه:

اليوم، ومن اجل العيد العظيم، ينبغي ان اتعب اكثر.

ولما كان قد اعتاد ان يأكل جلوساً، لذا فقد قرر ان يأكل وهو واقف في الفصح.

- اعتاد احد الشيوخ الروحانيين ان يقول لتلاميذه في ايام الأعياد:

يا اولادي، فلتشبع نفوسنا اليوم بكلمة الله، ولتبتهج بأخبار الآباء القديسين.

- يقول القديس افرام السرياني:

العيد للانسان الروحاني هو حفظ الوصايا الالهية، اما التعزية فهي من الابتعاد عن الشر. والفخر، فهو من مخافة الله. اما البهجة السماوية، فيهبها الملك السماوي للروحاني كي يرث الخيرات الابدية.

- يقول احد الآباء القديسين:

ان عيني الخنزير خلقتا كي تنظرا الى الارض. والامر نفسه هو حال من تسوده شهوة حب الاطعمة. فهو لا ينظر الاّ الى ما هو اسفل، وليس قادراً ان يرتقي الى ما هو فوق.

- سأل احد الرهبان الأب ايسيذوروس البيلوسيوتي قائلاً:

لماذا تخشاك الشياطين يا ابت؟

اجابه قائلاً:

منذ ان اصبحت راهباً، لم اجعل متعة ولذة في حلقي.

- يقول احد الشيوخ الحكماء للرهبان الشباب ما يلي:

تجنبوا يا اخوتي الأكل حتى الشبع، واشكروا الله على كل ما يرسله لكم.

- عاش خارج الاسقيط مسيحي كان يحب البار مكاريوس حباً عظيماً.

فمضى اليه ذات يوم وهو يحمل له سلة مملوءة عنباً. وكان الشيخ يحبه كثيراً، ففرح به وبعطيته. ولكن لما عاد الزائر الى بلده، قام الأب مكاريوس في الحال، وارسل السلة الى ناسك مريض كان قد اعرب عن رغبته في ان يذوق هذه الثمار. فلما وصلت السلة الى الشيخ المريض، قبلها بفرح عظيم الا انه عاد وفكّر في نفسه انه من غير اللائق ان يرضي نفسه. فقام وحمل السلة الى جاره قائلاً له انه لا يرغب بما في داخلها. فأخذها الجار، ولما غادر الشيخ، قام، وحملها الى راهب آخر. الى ان طافت السلة الاسقيط كله دون ان يلمسها احد. اما الراهب الاخير الذي وصلت اليه، فقال في نفسه:

اظن ان الأب مكاريوس يحب العنب، فلأذهب اليه. ثم قام وحملها ومضى الى الأب مكاريوس.

فلما رأى الأب مكاريوس السلة، عرفها للحال، ولاحظ ان ما في داخلها على حاله ولم يمسه احد. فمجد الله لعفة الاخوة. وكان هذا بالنسبة اليه علامة على تقدم روحي كبير عند الجميع.

- اعتاد الأب بيور ان يتناول طعامه وهو يمشي.

وذات يوم سأله الاخوة قائلين:

لماذا تفعل هذا يا ابانا؟

اجابهم قائلاً:

ليس الاكل عملاً، بل شبه عمل.

وهكذا فعندما اتناول طعامي وانا امشي، لن اشعر بلذة الأكل.

- زار احد الشيوخ الحكماء ديراً مجاوراً، فاستبقاه رئيس الدير الى المائدة مع الاخوة، وكان الطعام هو نفسه للجميع. وبينما كان الجميع يأكلون، لاحظ الشيخ ان بعض الاخوة كانوا يأكلون عسلاً، وكان البعض الآخر يأكلون خبزاً. فتعجب وتضرع الى الله ان يكشف له الأمر الغريب الذي يراه امامه.

فجاء ملاك من السماء وكشف له ان الذين كانوا يأكلون العسل كانوا يتقدمون من المائدة، تماماً كما لو كانوا يدخلون الى الكنيسة، فكانوا يأكلون العسل لحاجة الجسد، الا ان اذهانهم كانت منشغلة بالصلاة.

اما الذين بدوا لك وهم يأكلون الخبز، فهؤلاء كانوا يشكرون الله على الطعام الذي يرسله لهم كل يوم.

- مرض احد الشيوخ، وانقطعت شهية الطعام عنده فأراد ابنه ان يعزيه، فرجاه ان يسمح له ان يقدم له قليلاً من الحلوى. وأمام الحاح الابن، سمح له الأب ان يعد ما رغب به. ولكن بسبب العجلة، ارتكب الراهب خطأ، فبدل ان يضع عسلاً وضع شيئاً آخر.

فلما تناوله الأب لاحظ ان ابنه اخطأ، لكنه لم يشأ ان يحزنه، فلم يقل شيئاً. وهكذا أرغم نفسه على الأكل، ومع ذلك بدا الأمر مستحيلاً. فالطعام كان حامضاً جداً. فقام الابن ووضع قليلاً من الحلوى في فمه، فأدرك غلطته، فقال:

الويل لي لقد قتلتك يا ابت. لقد احتملت كل هذا الوقت دون ان تقول شيئاً.

فقال الشيخ: لا تحزن يا ولدي، فلو كان الله يريدني ان اتناول الحلوى، لكنت وضعت العسل بدل الحامض.

- وضع احد الشيوخ القانون التالي لمائدة الطعام:

عندما تجلس لتتناول طعامك يا اخي، انتبه الا يغلبك شيطان محبة البطن الذي يحضّك على الأكل بشراهة، وعلى تذوّق كل اصناف الطعام. اما انت فتعلّم ان تأكل بهدوء ولياقة حافظاً قياس العفة والامساك.

- يخبرنا كاتب سيرة البار سابا المتقدّس، انه عندما كان فتى مضى وصار راهباً في احد الاديار. وذات يوم ارسله رئيس الدير لمساعدة احد الاخوة في حديقة الدير. وحدث انه لما كان في البستان، ان وقع نظره على تفاحة حمراء شهية، فهمّ بأكلها لأنه كان جائعاً. فمد يده ليقطعها لكنه للحال انزلها وهو يرتجف، لأن صوتاً ناداه من اعماقه وقال له:

ان تفاحة كهذه طردت آدم من الفردوس، فهل تريد يا سابا ان يصيبك الشيء نفسه؟

وهكذا كف عن التفكير بها، انما عاقب نفسه على اشتهائها، فقد اوشكت ان تقوده الى ارتكاب عمل اثيم. ومنذ ذلك الحين، لم يضع الأب سابا، تفاحة في فمه. بمثل هذه المواقف اكتسب القديسون شخصية قوية.

- قال الأب بيمن:

من ثلاثة لا يمكنني ان أنعتق:

١- من الطعام

٢- من اللباس

٣- ومن النوم

الا انني اجاهد كي استخدم هذه الثلاثة في حدّها الادنى.

- قيل للأب بيمن ان احد الرهبان في الاسقيط لم يكن يشرب نبيذاً.

فأجاب والدهشة تعلو وجهه: نبيذاً؟

وكيف يشرب النبيذ وهو ما لا يُسمح به للرهبان؟

- قال رهبان الاسقيط، بالاعجاب والاحترام، عن الأب سرماتا:

لقد اخضع هذا الأب النوم بكثرة الامساك. حتى انه عندما كان النوم يناديه، كان يستجيب، وعندما لم يكن يناديه، لم يكن يخضع له.

٢- في الصوم :

- قال الأب ايبريخيوس:

الصوم فخ لجميع الشهوات. اما الذي يحتقره فيشبه حصاناً اهوج فُك من عقاله.

- كان الأب يوحنا الكولوفي يدعو الاخوة الى محبة الصيام، وكان يقول لهم:

الجندي الصالح الذي يخطط للاطباق على مدينة العدو الحصينة يفرض عليها حصاراً اولاً ثم يمنع عنها الماء والطعام.

بهذا تضعف مقاومة العدو، وفي النهاية يستسلم. وشيء مماثل يصيب شهوات الجسد التى تحارب الأنسان بدون هوادة في شبابه. فالصوم المضبوط يقيد الأهواء والشياطين ويبعدها عن المجاهد. وكان يقول لهم أيضاً:

الأسد العظيم كثيراً ما يقع في الفخ بسبب جوعه، فتخور قوته ويفقد عظمته.

- قال الأب بيمن :

لو لم يذهب زعيم المشعوذين، عند ملك بابل، الى اورشليم، لما كان الهيكل احترق. وهذا يعني ان ذهن الأنسان لا يمكن لنيران الشهوات الجسدية ان تلتهمه، الا عندما يخضع الانسان لشهوات الجسد.

- جاء البعض بممسوس الى اباء الأسقيط وطلبوا منهم ان يصلوا عليه ليشفى. الا ان الآباء أبوا اجراء الصلاة بداعي تواضعهم. فكان الممسوس يتعذب جداً. فحزن عليه احد الشيوخ، وقام ورسم عليه أشارة الصليب بالصليب المطبوع على حزامه فقال له الروح الشرير، قبل ان يغادره:

اذا كنت تريدني ان اخرج منه، فاسمح لي ان أدخل فيك: فقال له الشيخ :

هلّم أدخل يا شيطان.

فأحتمل البار عذابات جمة بصبر كبير، وكان يواظب على الصيام والصلاة، فلم يكن يأكل البتة، بل كان يكتفي بالعصير الذي يستخرجه من بعض النباتات التي كان يشربها عند المساء. وفي النهاية هُزم أبليس، وأنعتق الشيخ .

فقال الشيخ لأبليس:

لماذا تخرج الأن ؟لم يطردك أحد؟

فقال ابليس:

لقد بلبلني صيامك. قال هذا وتوارى عن الأنظار.

- عندما تم توزيع قمح الأسقيط على الرهبان، أعطي الأب ارسانيوس ربع الكمية التي اخذها سواه، لأنه كان قليل الاستهلاك. ومن هذا القليل المتبقي له، كان يأكل هو وتلميذه، ويضيف الغرباء والنزلاء. كان هذا المبارك صواماً حقيقياً. كذلك فقد اعتاد ان يتناول من كل ثمرة مرة واحدة فقط، في موسمها، وذلك كي يشكر الله ويطرد شيطان المجد الباطل فلا يحاربه.

- ذات يوم صيفي حار توجه الأب أخيل الى قلاية الأب أشعيا فوجده يأكل وقد جعل ملحاً في صحن مملوء ماء وراح يغمس قطعة خبز فيه ويأكل. فلما رآه الأب اشعيا عمد الى اخفاء الصحن تحت الحصيرة التي كان يحيكها كي لا يعثره. لأن الأكل هكذا هو عمل مترف غريب عن رهبان الاسقيط.

فسأله الأب أخيل :

وماذا تأكل يا أخي؟

قال هذا لأنه رآه يلوك شيئاً دون أن يكون أمامه صحن او طاولة.

فأجابه الأب اشعيا قائلاً:

سامحني يا أبت (قال هذا وقد ضرب الأحمرار وجهه لشدة الخجل)

ثم أردف يقول: كنت خارج القلاية أقطع بعض النباتات، فجف حلقي بسبب الحر، لهذا فقد جعلت في القصعة ماء وملحاً كي أستطيع أن ابلع خبزتي. ولما سمع الأب اخيل هذا، خرج ونادى قائلاً:

هلموا انظروا اخيل يأكل داخل قلايته.

- صعد بعض المؤمنين الى الأسقيط لمقابلة احد الآباء الشيوخ. ولما اضطروا للبقاء بجواره طيلة النهار، طلبوا منه قليلاً من الزيت لطبخ الطعام الذي احضروه معهم كي يأكلوه.

فقال لهم : هناك هو الوعاء الذي احضرتموه لي قبل ثلاث سنوات. انزلوه وافعلوا ما تشاؤون.

فلما أنزلوا الوعاء وجدوه محكم الأغلاق، تماماً كما أغلقوه قبل ثلاث سنوات. فتعجبوا لشدة صومه وتقشفه.

- زار أحد الأخوة الأب اشعيا فأراد هذا الأخير أن يطعمه، فأعد له قليلاً من العدس.

فقال الأخ:

هل لي بالمزيد يا أبت؟

فقال الشيخ:

فلنشكر الرب يا ولدي لأننا أقمنا الفصح اليوم.

- كان الأب مرقس البار صواماً عظيماً. فقد استطاع ان يبقى لأسابيع عدة دون ان يشعر بالجوع، ودون ان يضعف جسده. لقد أقام في البرية خمساً وستين سنة كان فيها يعمل ليلاً نهاراً وذلك كي يريح المتوحدين ويخدمهم.

ولم يكن يقبل هدية من احد. واذا حدث ان اعطاه احد شيئاً، كان يشكره من كل قلبه دون ان يأخذه.

وكان الاخوة يسمعونه يقول: اشكرك يا اخي ولكني لست بحاجة الى أي شيء، فالله كريم، وما يزال يعطيني القوة لأعمل وأعيش انا والذين يفتقدونني.

- اسدى احد النساك لأحد الاخوة نصيحة تتعلق بمقدار الصوم، وقال له:

لا تبالغ في صومك يا ولدي لأن كثيرين ارادوا ان يصوموا فوق طاقتهم فهلكوا.

- سأل بعض الاخوة الأب مكاريوس قائلين:

كيف يبقى جسمك هو نفسه في صومك وفي تناولك للطعام؟

فقال لهم:

النار تأكل الخشب القوي. لكن عندما يلهب العشق الالهي قلب الانسان، يشتد الجسد ويتقوى.

٣- في العفة والطهارة :

يورد لنا بالاديوس باعجاب تلك الجهادات التي تفوق حدود الوصف التي عرفها واختبرها اولئك الرهبان في النفس والجسد حباً وعبادة لله، وذلك كي يحفظوا فضيلة العفة الملائكية.

واليكم بعض مما نقله لنا.

حارب شيطان الشهوة الجسدية افاغريوس المغبوط الشماس. فخرج من قلايته وامضى ليلته في العراء حتى تجمّدت لحمانه.

كذلك فإن مجاهداً آخر هو عمون تلميذ الأب بمفو لم يشفق على جسده يوماً. ولكن عندما حاربته شهوة الجسد، راح يعذب جسده بالحديد المحمّى، لهذا كان يبدو كالجريح على الدوام للذين يرونه.

كذلك فإن فيلاريموس الشجاع الذي اصبح فيما بعد اسقفاً، هذا عندما كان شاباً، راح يجاهد حتى الدم لإخضاع شهوات الجسد. ومرة

حبس نفسه داخل القلاية وربط جسده بالسلاسل، ولم يأكل خبزاً او مطبوخاً بل الاعشاب فقط. هذا العظيم جاهد طيلة ٨١ سنة، وفي النهاية خرج منتصراً. ولم يعد شيطان شهوة الجسد يقوى عليه.

اعترف احد الرهبان للأب بيمن ان شهوتين كانتا تحاربانه:

١- الغضب

٢- شهوة الجسد

فقال له الأب بيمن:

ماذا يقول النبي داوود يا ولدي؟

لقد قتلت الاسد والتنين.... اتعرف ما يعنيه بهذه الكلمات؟

انه يعني انه ينبغي ان نكبح جماح الغضب بطول الاناة. اما شهوة الجسد فنجففها بالتعب الجسدي وبالصوم المغبوط.

- مضى راهب شاب الى الأب فوقا وكان حزيناً جداً.

ولما بلغ اليه قال له:

لم اعد احتمل حرب الجسد يا ابت. لذا سأمضي وأحبس نفسي في المغارة التي في اعلى الجبل. فخير لي ان اموت جوعاً من ان تغلبني شهوة جامحة. ولكن ارجوك يا ابت، ان تأتيني بجسد الرب ودمه بعد اربعين يوماً. واذا كنت غادرت هذه الفانية، فأرجو ان تواريني الثرى وتصلي علي.

فتعجب الشيخ من شجاعة الأخ. وبعد انقضاء المدة المحددة، حمل الشيخ الجسد والدم الكريمين ومضى كي يناول الأخ. ولما اقترب منه وجده بين حي وميت. فناوله جسد الرب ودمه، ثم رطّب له خبزتين بقليل من النبيذ كان قد احضره معه. وبنعمة الاسرار الالهية تعافى الأخ. ومنذ ذلك الحين فارقته حرب الجسد.

- حارب شيطان شهوة الجسد تلميذ احد الشيوخ فكان يجاهد بقوة دون ان يشفق على جسده. فلما رأى الشيخ ان تلميذه متألم، حزن من اجله وقال له:

اتريد يا ولدي ان اضرع الى الله كي يعتقك من هذه الشهادة؟
طرح عليه هذا السؤال عندما رآه يوماً حزيناً جداً ومتألماً.
فأجابه الأخ:
انا اتعب كثيراً، الا اني ارى منفعة عظيمة داخل نفسي من جراء هذا الجهاد. لكن ارجوك يا ابت صلّ من اجلي كي يهبني الله القوة كي احتمل.
فقال الشيخ:
لقد تقدمتَ حقاً يا ولدي، وتفوقتَ علي.
- قال احد الاخوة لأبيه الروحي:
اوشكت ان اموت بسبب افكار الدنس يا ابت.
قال له الشيخ:
اتعلم يا ولدي ماذا تفعل الامهات عندما يفطمن اولادهن؟
انهن يضعن المر على صدورهن فيرفض الطفل الرضاعة.
هكذا انت ايضاً، اجعل في ذهنك ذكر الموت والعذاب الابدي فتنفطم عن الافكار الدنسة. هكذا كان على الدوام جواب الأب الحكيم لكل الذين يحاربون بشهوة الجسد.
- كان احد الاخوة يجاهد بضراوة كي يحتفظ بالنقاوة الداخلية فضلاً عن نقاوة الجسد. وعندما كان ابليس يجربه بشهوة الجسد، كان ذلك الشاب يقول له بقوة وعنفوان:
اذهب عني يا ابليس الى الظلمة البرانية. الا تعلم انني غير مستحق؟ ولكن مع ذلك فأنا عضو في جسد المسيح.
- قررت احدى النساء العائشات في الخطيئة ان توقع في حبائلها احد الشيوخ المتوحدين الذي كان يعيش في الجبل بعيداً عن المدينة. وكان هذا معروفاً من الجميع بحسن سيرته. فتنكرت بثياب داكنة وفضفاضة كي تحجب جمالها ومفاتنها ثم قامت ومضت اليه. ورافقها في مسيرتها بعض البنات اللواتي رحن ينتظرنها عند سفح الجبل. فوصلت الى قلاية

الناسك عند المغيب. قرعت المرأة باب القلاية. ففتح الشيخ الباب. ولما رآها اضطرب قائلاً في نفسه:

كيف تأتي امرأة الى هنا في هذا الوقت؟ لعل هذا من حيل العدو.

ثم سألها:

من انت؟ وماذا تريدين؟

اما هي فأجهشت بالبكاء دون ان تتكلم.

وأخيراً قالت له:

لقد مشيت لساعات في هذه البراري وانا اهيم على غير هدى. وكان معي بعض من اصحابي. ولكني لا ادري كيف وصلت الى هنا. ولكن ارجوك، حباً بالله، لا تتركني خارجاً وحدي لئلا تلتهمني الوحوش.

فارتبك الشيخ قائلاً في نفسه:

كيف اجعل امرأة داخل قلايتي؟ مثل هذا الامر لم يحدث لي ولا مرة واحدة. ولكن كيف اترك خليقة الله خارجاً عرضة للوحوش المفترسة؟ ان موقفاً كهذا غير انساني، لا بل هو جريمة. وفي النهاية اشفق عليها وادخلها. وما ان دخلت هذه حتى كشفت عن حقيقتها. فبدأت نيران التجربة تستعر في قلب الناسك.

وضع الشيخ بساطاً على الارض وطلب من المرأة ان تنام عليه. اما هو فتوجه الى القسم الداخلي من القلاية وركع وبدأ يصلي بحرارة قائلاً:

في هذا المساء علي ان اقوم بحرب ضارية ضد العدو المنظور وغير المنظور، فإما انتصر، او اهدر كل اتعابي سدى.

وعند منتصف الليل اشتدت عليه وطأة التجربة. ولبضعة لحظات احس ان مقاومته ستفتر. فقال في نفسه: الذين يلوثون اجسادهم بالاثم يهلكون. فاصبر يا رجل، لأن احتمال التجربة اقصر واسهل من احتمال عذابات جهنم.

وبعد ذلك قام وأضاء قنديلاً وجعل اصبعه فوقه حتى احترقت. وكان هناك نار اخرى تضطرم في جسده، فلم يكن يشعر بالنار وهي تلهب يده.

وبعد هذا مدّ اصبعاً ثانياً حتى احترق. ولم تطلع شمس الصباح حتى كان الرجل قد احرق اصابع يده الخمسة.

اما تلك الشريرة فكانت تتابع خلسة تلك الجهادات التي كان الشيخ يمارسها في لحمه، فلما رأت شدة مقاومته اضطربت.

في هذه الاثناء قامت صديقاتها واقترين من القلاية كي يسخرن من الشيخ، فوجدنه يصلي خارجاً. فقلن له:

هل مرت بك امرأة من هنا يا ابانا؟

اجابهن: انها نائمة في الداخل

فدخلن فوجدنها مائتة. فاضطربن وقلن له:

يا ابانا انها مائتة.

للحال، كشف يده وأراهن اصابعه المحروقة، وقال:

انظروا ما فعلت بي ابنة ابليس. الا ان ناموس المسيح يأمرني ان اقابل الشر بالخير.

فقام وصلى ودفن الجثة في التراب.

٤ - في اللاهوى :

قال احد الشيوخ:

اذا استطعت ان ترى الازدراء كالمديح، والفقر كالغنى، والحرمان كالبحبوحة، عندها فأنت لا تعود تخشى الخطيئة. ومن يصل الى هذه القامة لا يعود يخشى فخاخ الاهواء السمجة، ولا ينخدع من ابليس.

- قال الأب لونجينوس للذين يجاهدون كي يبلغوا اللاهوى:

اعط دماً وخذ روحاً.

- قال أب آخر: يستحيل ان يصبح الانسان عديم الهوى الا اذا سكن الله في داخله.

- صادف راهب شاب بعض الراهبات المتوجهات الى المدينة. للحال غيّر طريقه كي لا يلقي عليهن التحية. فلاحظته المتقدمة بينهن، فأوقفته وقالت له:

حسناً فعلت يا اخي بسبب ضعف طبيعتك، ولكن لو كنت راهباً كاملاً، لما فكرت اننا نساء.

- عاش ناسك في البرية طيلة (٥٠) سنة لا يأكل خبزاً وخمراً. وكان يقول على الدوام انه امات اهواء الجسد وحب المال والمجد الباطل.

فلما سمع به الأب ابراهيم، قام ومضى اليه ليتحقق من الأمر.

ولما دخل قلايته وجلس سأله قائلاً:

هل قلت يا اخي انك امت اهواء الجسد وحب المال والمجد الباطل؟

فأجابه الناسك:

نعم. قال هذا وهو مقتنع بما يقول.

فقال له الأب ابراهيم:

لنفترض يا اخي انك دخلت قلايتك فوجدت على سريرك امرأة. هل عندك القدرة على التفكير انها ليست امرأة؟

قال الناسك:

كلا. (قال كلا مكرهاً).

ثم تابع يقول:

لكنني طبعاً اجاهد كي اطرد هذه التجربة.

فقال الأب ابراهيم:

اترى يا اخي ان الهوى ما يزال حياً فيك؟ ثم اردف يقول:

لنفترض انك كنت تسير في الطريق فوجدت قطعة من ذهب مع بعض المال. هل تأخذه ام تحتقره، وتتابع سيرك؟

قال الشيخ:

اقاوم ولا المسه.

فقال الأب ابراهيم: اترى يا اخي كيف ان حب المال ما يزال حياً فيك لكنه مقيد ومربوط فقط؟

ثم قال له الأب ابراهيم من جديد: لنفترض ان انسانين قدما لزيارتك، وتعرف ان الاول يمدحك على الدوام، بينما الثاني يسيء اليك جداً. فهل تعامل الاثنين معاملة واحدة؟

فقال الناسك بصراحة: سأجاهد كي اعامل المسيء الي، جيداً.

فقال له الأب ابراهيم:

اذاً يا اخي، كفّ عن الاعتقاد انك بلغت اللاهوى.

فالاهواء كلها ما تزال حية فيك. لهذا فأنت تحتاج الى الجهاد طوال حياتك.

الفصل العاشر

١ - في التمييز :

- قال القديس انطونيوس:

هناك اناس افنوا اجسادهم بالنسك والجهاد، ومع ذلك اعوزهم التمييز، فلم يستطيعوا ان يقتربوا من الله.

- قال احد الشيوخ:

التمييز هو اعظم الفضائل عند الآباء القديسين.

- وقال شيخ آخر:

لا تقم بأي عمل قبل ان تفحص ضميرك. وضميرك سيخبرك ان كان ما انت مقبل عليه مرضياً لله ام لا.

- قال الأب امون:

يمكنك ان ترى انساناً يمسك فأساً يحاول به ان يقطع شجرة كبيرة لكنه لا يفلح.

ويمكنك ايضاً ان ترى انساناً آخر خبيراً يستطيع ببضعة ضربات ان يقطع الشجرة نفسها (الانسان الخبير هو الذي حاز فضيلة التمييز).

- قال احد الآباء:

الدرس، السهر، والصلاة، يمكنها ان تجمع الذهن المشتت. اما الصوم والتعب الجسدي فمن شأنهما ان يجففا الشهوة الجامحة.

كذلك فان الغضب يبدده الترتيل وطول الاناة مع المحبة. لكن هذه كلها تكون بتمييز، وتُعتمد في الوقت المناسب. اما المحاولة غير المناسبة والتي ليست في حينها فمن شأنها ان تؤذي لا ان تنفع.

- يقول الأب انطونيوس الكبير:

الحداد الذي يضرب كتلة الحديد، سبق ان فكر بما ينوي ان يصنع. فهو يعرف اذا كان يريد سكيناً، منجلاً، شوكة، وسواها.

كذلك هو حال رجل الله، فعليه ان يفكر اولاً اية فضيلة يريد ان يقتني وذلك كي لا يتعب عبثاً.

- قال أب آخر:

القفزات الفجائية الكبيرة هي من صنع ابليس.

- وقال الأب بيمن:

اذا كنا لا ندرس، فنحن لن نتقدم في الفضائل.

- قال احد الشيوخ الحكماء:

لم اقم يوماً بخطوة الى الامام قبل ان افكر اين سأضع قدمي. وفي العادة افضّل ان لا اتحرك حتى يقود الله خطاي.

- وقال الأب نفسه:

في كل اعمالي، الكبيرة منها والصغيرة، افكر بالثمر الذي اطمح اليه قبل ان ابدأ السعي والعمل.

- قال احد الشيوخ الحكماء:

كما ان النار تلتهم الحطب، هكذا فإن الاعمال الحسنة تبدد الاهواء.

- قال الأب نيسترو وهو يرشد احد ابنائه:

عليك ان تعرف يا ولدي اية فضيلة تريد قبل ان تسعى اليها.

فقال الراهب:

واية فضيلة هي الاولى يا ابت؟

فقال الشيخ: انها تلك التي تلائمك كثيراً. فنظر اليه الأخ بشيء من الاستغراب.

للحال اردف الشيخ يقول:

يا ولدي، الكتاب الالهي يعلمنا ان ابراهيم كان مضيفاً وكان الله يقيه ويحفظه. وداوود احب التواضع، فقاده الله اليه.

لذا، اخترْ انت الفضيلة التي تتوق اليها نفسك وتشعر انك تريدها، وبعد ذلك اعمل من اجلها، فتخلص.

- يقول الأب صيصوي رجل التمييز:

آثر يا اخي عملاً خفيفاً دائماً، على عمل مضنٍ يتوقف بعد حين.

- قال الأب مرقس:

لا تقم بأي عمل قبل التفكير به. وليكن كل عمل تسعى اليه، مرضياً لله. لأن من يتعب عبثاً، لا يؤدي ثماراً. والذهن عندما ينسى ما هو مرضي لله، فإن عمل الفضيلة لا يعود يجديه نفعاً.

٢- في الضمير :

- يقول الأب اغاثون:

لا تدع ضميرك يلومك ويعاتبك في أي شيء.

- يقول القديس مكسيموس المعترف:

لا تتمرد على صوت ضميرك، فهو دائماً يقود خطاك نحو الصحيح، ويعطيك رأياً الهياً وملائكياً، ومن شأنه ايضاً ان يعتقك من الافكار، فيجعلك اهلاً لأن تدنو من الخالق عندما تغادر الحياة الارضية الزائلة.

- يقول الآباء القديسون:

ضمير الانسان هو اشبه بنبع، فكلما توغلت في النبع، تزداد نقاوة مياهه. اما اذا جعلنا على الضمير تراباً وغباراً، فإننا سنفقده بعد حين.

٣- في اليقظة او الانتباه :

- قال البار بيساريون لتلاميذه قبل رحيله بقليل عن هذه الفانية:

على الراهب ان يكون كالسارافيم.

- اعترف احد الرهبان لأبيه الروحي بضعفاته فقال:

عندما اغادر قلايتي يا ابت، وأجد اخاً يضحك، ابادر تواً فاضحك مثله. لكن هذا يبدّد يقظة ذهني. وعند عودتي الى قلايتي، اجد ان عودتي الى مرحلة ما قبل المغادرة امر مستحيل. فماذا افعل؟

اجابه الشيخ قائلاً:

طبيعي يا ولدي ان تتمكن من الاحتفاظ بيقظة ذهنك عندما تبتسم. لهذا السبب، عليك ان تكون في القلاية، وخارجها، منتبهاً لنفسك وصاحياً.

- كان شيخان في الاسقيط يتحدثان، فقال احدهما للآخر:

يبدو لي يا ابت، انني بنعمة ربنا يسوع المسيح قد اصبحت ميتاً عن العالم.

فقال الثاني:

لا تكن على هذه الدرجة من الثقة بالنفس يا ابت، قبل رقادك. فإذا كنت تظن انك مت عن العالم، فابليس لم يمت بعد.

- عندما كان احد الشيوخ يحتضر، وقف امامه ابليس وصرخ في وجهه قائلاً:

اتظن انك خدعتني ايها الابله؟

اجابه الشيخ قائلاً:

لست على يقين من انني فعلت. ولما قال هذا رقد.

- عندما اوشك الأب اغاثون ان يغادر هذا العالم، ظل في فراشه ممدوداً طيلة ثلاثة ايام وعيناه مفتوحتان وهما تحدقان في البعيد.

وفي اليوم الثالث، سأله تلاميذه ان يقول لهم اين كان طيلة اليومين الاخيرين؟

فقال ذاك وهو يرتجف:

كنت امام محكمة الله.

فقال تلاميذه:

وهل تخاف انت ايضاً يا ابانا؟

قال الشيخ:

حاولت ان احفظ وصايا المسيح طيلة حياتي. ولكنني انسان. فكيف لي ان اعرف ان كنت ارضيت الله؟

فقال تلاميذه: لستَ متأكداً انك ارضيت الله؟ قالوا هذا والدهشة تعلو وجوههم.

قال:

لست أدري، لأن دينونة ألله ليست كدينونة الناس.

فأراد الأخوة المزيد كي يستفيدوا لخلاص نفوسهم.فأومأ اليهم الأب كي يكفّوا عن الكلام، فهو مشغول. كانت هيأته كالملاك. ورآه تلاميذه وهو يغادر هذا العالم الى ذاك، بفرح كلي، فهو كان منطلقاً للقاء المسيح معشوقه.

- يقول الأب الحكيم نيسسترو:

المسيحي الصالح يحاسب نفسه صبحاً ومساءً ويقول: ماذا عملت مما يريده الله مني؟ وماذا اهملت وتوانيت عن القيام به؟

اذا فعلتَ هكذا، فإنك تسلك بمقتضى مشيئة الله.

- سأل الأب موسى الأب سلوان قائلاً:

وهل يستطيع الانسان ان يبدأ كل يوم من جديد؟

اجابه الأب سلوان قائلاً:

اذا كان هذا الانسان محباً للفضيلة، ليس فقط كل يوم، بل كل لحظة ايضاً، يمكنه ان يبدأ من جديد.

- يقول احد الآباء:

الله يفعل هكذا مع الناس:

مع التائبين، ينسى لهم الدين، تماماً كما فعل مع الزانية والعشار.

اما من الابرار فيطلب الفائدة. وهذا ما كان الرب يشير اليه عندما قال للرسل الاطهار:

«إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين، لن تدخلوا ملكوت السموات».

- يقول الآباء عن الأب عمون الذي نسك في جبل النطرون انه كان شديد التدقيق والانتباه على نفسه.

وذات يوم كان يجتاز الصحراء برفقة الأب ثيوذور الى ان وصلا حتى ضفاف النهر. وكان يتوجب عليهما ان يعبرا النهر. ولكن في ذلك اليوم كان يعوزهما خشبة لم تكن هناك في ذلك الحين.

فقال الأب ثيوذور:

فلنخلع ثيابنا ونعبر النهر سباحة. ولم يكن امامهما خيار آخر. لكن الأب عمون ظل متردداً، فهو كان شجاعاً في كل شيء، لكنه كان يخاف الماء.

وفي النهاية قال:

ابتعد قليلاً يا ثيوذور اذ ليس من اللائق ان يرى المرء عري انسان آخر. فاستجاب الأب ثيوذور لرغبة صديقه. ومع ذلك بقي الأب عمون متردداً، فلم يرد ان يخلع ثيابه. ولما كان الاثنان يقفان عند ضفة النهر، بغتة وجدا نفسيهما على الضفة الثانية، وكان الأب عمون ما يزال بكامل ثيابه.

٤- في السبل الحسنة :

- يضع ألاب أشعيا المتوحد القوانين التالية من أجل السلوك الرهباني اللآئق: والتي يليق بعامة المسيحين حفظها أيضاً وبدون استثناء. الخلق الحسن هو فضيلة ملائكية، والسلوك الحسن ينبغي أن يتسم به مسلك ابناء الله جميعهم .

يبدأ الأب أشعيا قوانينه فيقول:

اذا ذهبت للعمل في بيت غريب وأضطر صاحب البيت أن يترك البيت لحاجة، وبقيت أنت وحدك، فلا ترفع عينيك بدافع الحشرية لتنظر الى محتويات البيت. ولا يليق ان تفتح شيئاً مغلقاً، ولا خزانة، ولا وعاء، ولا كتاباً... وقبل ان يترك صاحب البيت بيته، أطلب منه ما يشغلك الى حين عودته. وما يُطلب منك، افعله بأخلاص ودقة وأمانة. واذا حدث ان سمعت اناساً يتكلمون في الغرفة المجاورة، فينبغي ان لا تعير الصوت انتباه ولا تترك محادثات غريبة في ذاكرتك .وقبل كل شيئ، لا تنقل هذا الأمر الى من استضافك في بيته وذلك كي لا تتضررا أنتما الاثنان.

اما اذا كنت شاباً، فتجنب الألبسة الفاخرة. لا تضحك بقوة وفمك مفتوح بحيث انك تظهر أسنانك. تعلّم ان تحني رأسك الى اسفل بكل خفر. وعندما تكون في مكان غريب، أنتعل حذاءَك على الدوام. وفي قلايتك حاول ان تتحرك بهدوء. وعندما تسير، حاول ان تكون يداك معقودتين وبقرب الحزام. لا تحرك يديك كما يفعل أهل العالم .كذلك لا تحرك رأسك يميناً ويساراً. وعندما تسير، حاول ان تشغل ذهنك بأمر روحي، وصلّ الى الله من كل قلبك. وعندما تدعوك الحاجة للنزول الى المدينة، ليكن نظرك الى اسفل على الدوام وذلك كي لا تكون عرضة لحرب الافكار، بعد حين، عندما تعود الى قلايتك. واذا حدث ان القت عليك امرأة التحية، فردّ التحية بهدوء، ولتكن عيناك متجهتين الى اسفل. لا تدع عينيك تنخدعان بالنظر الى اليمين واليسار، ولا تمعن في لباس المرأة.

واذا نزلت الى الشارع مع بعض الأخوة، لازم الصمت قدر المستطاع. ولكي تُفلح في هذا، ابتعد قليلاً عن الأخوة. واذا كنت تسير مع اناس تقدموا في السن، لا تسرع الخطى. واذا كان كبير السن يحمل أمراً ثقيلاً، فلا تقبل ان يحمله هو، بل قم بالمهمة عنه. واذا كنتما شابين ويحمل أحدكما شيئاً ثقيلاً، فحاولا أن تتبادلا الحمل. ومن يحمل الغرض، هو الذي يحدّد السرعة في الحركة.

وحيثما كنت، تحاشَ الدالّة. وحاول دائما ان تتحرك بهدوء وخفر. واذا ذهبت الى غريب، لا تنم في بيتٍ يمكن ان تخطأ فيه .واذا دُعيتَ الى الطعام، لا تجلس الى جانب أمراة. ومن الأفضل أن تُحزن من يضيفك على ان تخطأ في داخل قلبك.

واذا كنت تسير مع بعض الأخوة، وكان بينكم مريض، فدع المريض يقرر سرعة الحركة. واذا توقف كي يرتاح، فتوقفوا أنتم أيضاً. واذا أرسلك الأب الرئيس الى المدينة مع أحد الاخوة، وكان لك عمل في بيت أحد الأصدقاء، فلا تجلس كي تأكل اذا دُعيت، الا اذا كان الاخ الآخر معك. واذا كنتم كثيري العدد، وكنت تشعر بالخجل كي تدعوهم جميعاً، فلا تحتقرهم بأن تذهب بمفردك كي تأكل. أتفق معهم، وقم بتواضع بوحي ما اتفقتم عليه. لا تنفصل عن الأخوة، ولا تتجنب الاعمال الصعبة. وعندما تكون مع اخوة، بادر الى تفضيلهم على نفسك، حتى ولو كانوا ادنى رتبة منك. وكن في كل شيئ آخر الناس. واذا دعيت الى بيت ومعك اخوة، فلا تقل لهم أنهم مدعوون بسببك. أكرمهم وقل لهم اننا جميعاً عبيد الله. واذا كنت مع الاخوة وكان بينك وبين صاحب البيت محبة روحية، فلا تنفصل عن الجميع من أجله كي تحدثه، فقد يكون أحد الأخوة مريضاً في ضميره فتحاربه أفكار الحسد ضدك. جاهد على الدوام كي لا تكون سبباً لخطيئة احد الأخوة. وعندما تكون مع بعض الأخوة، ويدعوك أحد معارفك لزيارته، فلا تقل لهم ان اهل البيت سيفرحون لرؤيتك، وذلك كي تكون مرضياً لله عندما يستقبلك معارفك.

واذا قمت مع الاخوة بزيارة اخ فقير، فلا تثقل عليه، بل خذ طعامك معك واكتفِ بما يُقدّم لك دون ان تطلب شيئاً.

واذا دخلت قلاية راهب أجنبي، فأجلس حيث يُطلب منك، ولا تنتقل الى قلاية اخرى الا اذا دعيت. وعندما تسافر مع بعض الاخوة، كن لطيفاً مع المرضى، وأسمح لهم أن يرتاحوا او يأكلوا قبل الاوان. وعندما تصلون الى مكان غريب، لا تُقم دالة مع أحد، وذلك كي يستفيد أهل العالم من

لطفك، وحسن تصرفك لا سيما صمتك. ولا تنسَ ان الدالة وما يشبهها، تعشش في الذين لا يصلّون ولا يتذكرون خطاياهم كل حين.

واذا كنت عقدت العزم ان تأكل في الوقت المحدّد فقط، أو ان لا تأكل مطبوخاً، أو أي شيئ آخر، فحاول ان لا تظهر ذلك عندما تكون مع الآخرين، وذلك كي لا تخسر أجرك. فربنا يسوع المسيح يدعونا كي نعمل في القلب، لا في العلن.

- قال أحد الاخوة لأبيه الروحي:

اذا كنت مع بعض الاخوة ورأيت امراً غير لائق، فهل أتكلم؟

أجابه الشيخ قائلاً:

اذا كان الاخوة أكبر سناً، فالافضل ان تصمت.

ثم سأله الاخ قائلاً:

ماذا افعل يا ابت لأن افكاري تزعجني وتدعوني الى الكلام؟

فقال الشيخ:

اذا كانت نفسك تنزعج مما يبدر عنهم، فأذكر الغلطة مرة واحدة بتواضع. واذا لم يسمعوا، فأترك الامر بين يدي الله. وهكذا يكون تصرفك مرضياًلله.

- قال احد الشيوخ لزائر غني كان يعترف له بخطاياه:

لا تحتقر من يقوم بخدمتك، فأنت لا تدري ان روح الله يرتاح فيه.

- قال الاب مكاريوس مخاطباً احد الرهبان:

لا تغضب، لئلا يصدر عنك ما ليس لائقاً، فترضي غرورك فقط. ولا تحاول ان تصلح الناس، بينما تسيئ الى نفسك.

٥ـ في ان الانسان الروحاني يستفيد من كل ما هو مضاد :

- قال اباء الاسقيط عن الأب يوحنا الكولوفي انه لم يدع فكره يوماً يجول في الدنيويات. كما انه لم يتكلم مرة عن الامور الباطلة.

- وذات يوم مضى بعض الاخوة ليجربوه، فقالوا له:

المجد لله يا ابانا. لقد هطلت الامطار كثيراً هذه السنة فارتوت الارض والنباتات. وهكذا لن يكون عندنا شح هذه السنة، وسوف يجد الاخوة ما يكفي من الخوص لعملهم اليومي.

أجابهم الاب يوحنا قائلاً:

الامر نفسه يحدث للنفس البشرية عندما تلطّفها نعمة الروح القدس فتزهر وتنبت فضائل كثيرة. قال هذا لكونه لم يألف يوماً الكلام عن الامور الدنيوية.

- عندما تبوأ الأب أثناسيوس سدة بطريركية الاسكندرية، دعا الاب بمفو كي يذهب الى المدينة لمسألة ذات صلة بالكنيسة. ولما وصل، كانت امرأة أول مخلوق صادفه الناسك لدى دخوله المدينة. فلما رآها بكى بمرارة.

فسأله الأب الذي كان يرافقه: لماذا تبكي يا أبت؟

أجاب الأب قائلاً : لسببين يا ولدي:

أولاً لان هذه المرأة أضاعت نفسها. وثانيا لانني كسول ولا اعيش كي ارضي الله كما ترضي هذه المرأة الرجال الذين يعاشرونها.

- وشيء مماثل حصل للاب نونو وللبارة بيلاجيا كما تروي لنا كاتبة سيرتها. ذات يوم بينما كان بطريرك انطاكية جالساً مع الاساقفة في وسط الكنيسة التي بنيت على أسم القديس يوليانوس، سمع الجميع ضجة أتت من الشارع المجاور. في تلك اللحظة كان هناك عربة فخمة تمر بجوار الكنيسة. وكان في داخلها بيلاجيا التي راحت تجلس داخل العربة كالأميرات المتعجرفات. فضجّ الناس في الشارع بالحديث عن الحلى والزينة التي كانت بيلاجيا تتبرج بها. وعبق الجو بالعطور التي كانت بيلاجيا قد سكبتها على جسمها.

للحال اشاح الاساقفة بعيونهم عنها، وذلك كي يتجنبوا تجربة الشهوات الشيطانية التى ستجيش في الأعماق لمجرد النظر الى بيلاجيا. فقط أسقف واحد هو نونو، راح يتابعها بنظره، حتى غابت عند نهاية الشارع. بعد ذلك التفت الى الآباء الأساقفة، وبصوت يملأه الحزن، قال لهم:

الويل لنا يا اخوتي في المسيح. هذه المرأة دينونة لنا. أرأيتم مقدار الزينة والتبرج على جسدها؟ وكل هذا كي تجتذب عشاقها وطالبيها. اما نحن الكسالى فماذا عسانا نفعل كي نزين نفوسنا ونجتذب محبة الختن السماوي الى قلوبنا؟

ولما قال هذا، صلى بحرارة من اجل خلاص تلك النفس الخاطئة فاستجيبت صلاته وافتقدت النعمة الالهية بيلاجيا فتابت عن سيرتها الاثيمة واعتمدت على يد الاسقف نونو، وكانت نهايتها مع الابرار.

- نزل الأب مكاريوس مع تلميذه الى المدينة. وفي الطريق سمع طفلاً يقول لأمه:

يا ماما، هناك رجل غني يحبني، لكنني لا اريد ان اسمع صوته. وهناك فقير احبه وهو يبتعد عني.

فوقف الشيخ وراح يتابع الصبي وهو يسمع حديثه الى امه بكل اهتمام.

ثم قال لتلميذه:

هل سمعت ما قاله الصغير لأمه؟

قال: نعم. ولكنها كلمات مبهمة، ولم افهمها.

فقال الاب البار:

كلا يا ولدي، ليس حديث الصبي مبهماً.

فكّر فقط ان ربنا غني بالرحمة، ويحبنا، اما نحن فلا نسمع له. لكن ابليس لا يحبنا، لا بل يكرهنا، ويريد ان يلحق بنا الضرر على الدوام، اما نحن فنرفض الرب ولا نتبعه، ونعمل كل ما يرضي ابليس ويفرحه.

الفصل الحادي عشر

١ - في التجارب والمحن :

قال الأب أنطونيوس الكبير:

لا يمكن للانسان ان يدخل ملكوت السماوات بدون شدائد وتجارب.

- وقال أب آخر:

اذا امتلكنا التواضع، لا نعود بحاجة الى تأديب الرب، فالشرور كلها تتولد من الكبرياء. واذا اعطي للاناء المختار بولس ملاك الشيطان كي يحزنه، كي لا يستكبر، فكم لنا نحن المتكبرين، الا يرسل الله الشيطان الينا،في أخطائنا، كي نتضع؟

- سأل أحد الشيوخ الاب صيصوي قائلاً:

ماذا اعمل اذا هاجمني بربري وانا في البرية؟ هل يُسمح لي ان اقتله؟

اجاب الاب قائلاً:

الافضل ان تسلّم امرك للرب. وكلّما كنت في تجربة، فكر انها تأتي دائماً من خطاياك. فكّر بالشر الذي يصادفك ،وأعتبره هدية وهبة من الحنان الالهي.

- قال احد الشيوخ :

الشجرة التي لا تعصف بها الريح، لا يكون لها جذور قوية، ولا تنمو كما يجب. كذلك فان الانسان الذي لا تنزل به التجارب، لا يمكنه ان يقتني شخصية قوية.

- كان احد الاباء الشيوخ يقول للرهبان الشباب:

ابعدوا التجارب، لا يصبح احد قديساً. لأن من يتحاشى التجارب، لا يمكنه ان يحظى بالسيرة السماوية.

- قال الاب ايبريخيوس:

عندما تتعب نفسك من ضغط التجارب، فلتعمد شفتاك الى ترتيل التسابيح الالهية، وليهذ قلبك بالسماويات، فتجد راحة. تذكّر المسافر المتعَب الذي شغل شفتيه بالغناء، كي تعبر عنه مشقة السفر.

- سمح الله ان يجرّب احد رهبان الاسقيط بضراوة، وذلك كي يستفيد الاخرون من صبره. فهذا بدون رغبة منه، ازدراه جميع الاخوة وتجنّبوه. حتى انهم لم يكونوا يريدون ان يلقوا عليه التحية. واذا طلب مرة خبزاً او اي امر ضروري آخر، لم يكن يجد امامه من يقدمه له. وعندما كانوا يتناولون طعام الغداء يوم الاحد، لم يكن احد يناديه. وذات يوم عاد الى الدير، آتياً من الحقل، فلم يجد خبزة واحدة يسد بها جوعه، ولا ماء يروي به عطشه. ولم يشعر احد من الذين حوله بحاجاته. ومع ذلك لم يتأفف، ولم يقل كلمة ضد احد. انما احتمل كل ذلك بشجاعة قائلاً لنفسه ان هذه كلها بسبب خطاياه، وانه يستحق ما هو اسوأ.

فلما رأى الله صبره، اعتقه من التجربة. وفي تلك الليلة عينها، قرع انسان غريب باب قلايته، وسلّمه حمولة خبز، واطعمة اخرى كان قد حملها اليه على ظهر الجمل. ولم يتمكن الاخ من تقديم الشكرللغريب الذي توارى عن الانظار. فبدأ الراهب يبكي و يقول في صلاته: يارب لست مستحقاً ان ابكي قليلاً حباً بك. الهذا السبب أبعدت التجربة عني؟

وفعلا، فأن فعل التجربة توقف. وفي صبيحة اليوم التالي، عاد جميع الاخوة الى معاملته بلطف ومحبة.

- مضى احد الشيوخ الى قرية مجاورة لقلايته كي يبيع عمل يده. وفي الطريق صادف ابليس. للحال لما رآه ابليس، اختطف السلال من يده وتوارى عن الانظار لأنه كان يمقته مقتاً عظيماً. اما الراهب فلم يحزن بل رفع عينيه الى السماء وقال:

اشكرك يا الهي لانك اعتقتني من حمولتي، فلم اتكبد مشقة التعب للذهاب الى القرية.

فلم يحتمل ابليس صلابة موقف الشيخ، فقام وعاد اليه وراح يرمي السلال في وجهه صارخاً: خذ سلالك ايها الشيخ. فجمعها الشيخ وتابع طريقه الى القرية.

- ذات يوم بينما كان الاب موسى جالساً مع الاخوة عند باب القلاية وكان الجميع يتحدثون في امور روحية، توقف الشيخ فجأة عن الكلام، وقال لهم:

اليوم سيهاجمنا البدو. لذا انصحكم ان تهربوا كي تنجوا من الموت.

فقالوا له : وانت ماذا ستفعل يا ابانا؟

اجابهم بعد لحظة صمت، وقال لهم:

انا انتظر هذه اللحظة منذ زمان طويل، لأنني بسببها سوف انعتق من خطاياي والا كيف يتحقق قول السيد: الذين يأخذون بالسيف بالسيف يؤخذون (متى٢٥:٦٢)؟

فقال له الاخوة:

ونحن ايضاً لن نهرب. قالوا هذا بفمٍ واحد. سنبقى ههنا ونموت معك.

فقال لهم: هذا شأنكم. ابصروا انتم. لكني حذرتكم.

للحال وصل المهاجمون،وذبحوا الاب القديس مع سبعة من تلاميذه. الا ان واحداً منهم تمكن من الهرب والاختباء، فنجا من الذبح، فرأى ثمانية اكاليل تتوج الشهداء.

٢- الجهاد الروحي :

عاش في الاسقيط راهب محب للالم، راح يجاهد بكل قواه من اجل هذه الفضيلة. وذات يوم تعب، فضربه الكسل، لكنه سرعان ما عاد الى نفسه وقال:

يالك من بائس ايها الانسان! الى متى ستظل تحتقر خلاصك؟ الا تخشى الموت والدينونة الرهيبة؟ بهذه الافكار استرجع نشاطه وحيويته، فعاد يجاهد حباً بالله.

وذات يوم بينما كان يصلي، تجمّعت حوله الشياطين وحاولت ان تثنيه عن صلاته، فقال لها:

الى متى ستظلين تعذبينني ايتها الارواح النجسة؟ الا يكفيك انك بالأمس اوقعتني في الكسل؟

فقالت له الشياطين:

عندما كنت كسولاً لم تكن تزعجنا. اما الآن ولأنك تجاهد، فنحن سنحاربك. عندما سمع الأخ هذه الكلمات، بدأ يغصب نفسه في الجهاد، وفي النهاية تمكن بنعمة الله من التقدم في الفضيلة.

- عاش اخ يهيم على وجهه على الدوام ولا يبالي بخلاصه. هذا نزل مرة الى المدينة ليبيع عمل اليد. فحل الظلام، ولكي لا يبقى في العتمة خارج قلايته، لجأ الى قبر مجاور دخله ونام فيه. ولما اغمض عينيه لينام من شدة التعب، لمح امامه شيطانين راحا يسخران منه ويقولان:

انظر الى هذا الراهب، لقد قرر ان ينام داخل القبر. فلنهاجمه كي يترك مسكننا. فقال الشيطان الثاني:

ولماذا نتعب انفسنا معه؟ انه من جماعتنا. فهو يشرب ويأكل ويعربد ويتوانى عن واجباته، ويفعل كل ما نطلبه منه. دعنا نذهب كي نجرّب الذين يحاربوننا في الليل والنهاربصلاتهم ونسكهم. فلما رآى الأخ كيف ان الشياطين تحتقره، قرر ان يبدأ من جديد ان يكون راهبا صالحاً يعيش حسب مرضاة الله.

- يقول احد الشيوخ:

اذا عزمت ان تحيا وفق الناموس الالهي، فأنك ستجده معينا لك في كل شيء. اما اذا كنت بارادتك تنتهك وصايا المسيح، فأن ابليس سيكون

عوناً لك. لذا، اظهر حسن استعدادك، كي يمدّك الله بالقوة للتقدم في الفضيلة.

- كان الاب يوحنا الكولوفي يصلي الى الله على الدوام كي يعتقه من اهوائه التي كانت تعشش في قلبه بسبب ضعفاته. فلما اعطاه الله ما اراد، صار بلا همّ. ولكن بقي في اعماقه شيء من القلق. فمضى الى ابيه الروحي بيمن كي يعترف له، وقال له :

يا ابت، اني ارى نفسي في راحة عظيمة. ولم اعد اشعر بأية حرب ضدي.

فقال له الاب بيمن:

اضرع الى الله كي يعيد لك الحروب والتجارب التي عرفتها من قبل. الا تعرف يا اخي اننا بالجهاد الروحي نتقدم في الفضيلة؟

فقام الاب يوحنا وسار حسب وصية معلمه،فلم يعد يصلي كي ينعتق من الحروب والاهواء، بل شرع يقول الى الله بتواضع:

يا رب، اعطني القوة والثبات ساعة التجربة.

- سأل راهب شاب الاب بيمن قائلاً:

ماذا اعمل يا ابت فالشياطين تحاربني بضراوة؟

فقال له الاب بيمن:

أنت من تحاربه الشياطين يا ولدي؟ صدقني ان الشياطين لا تحارب من يعيش حسب مشيئته، لأن مشيئة الانسان هي التي تتحول الى شيطان يحارب صاحبه كل يوم . هل تعرف من الذين تحاربهم الشياطين؟ انها تحارب الالهي موسى والقديسين المماثلين له.

- تقول البارة سنكليتيكي:

كلما تقدّم المجاهدون، كلما كثر معاندوهم.

- سأل احد الرهبان الأب صيصوي وقال له:

ماذا اعمل يا ابت فالاهواء والشياطين تحاربني؟

فقال له الأب صيصوي:

لا تقل ان الشياطين تجربك يا ولدي، لأننا في العادة نُجرّب من نزواتنا ورغباتنا.

- عندما كان الأب موسى الحبشي في بداية الحياة الرهبانية، حاربته الشهوات الجسدية بضراوة. فقام ومضى الى الأب ايسيذور وهو يرتجف هلعاً. فأصغى له الأب ايسيذور وسمع مشكلته، ثم اعطاه بعض الارشادات، وطلب منه ان يعود الى قلايته. فتردّد الأب موسى في العودة، لئلا تضطرم نيران الشهوة فيه من جديد. فأمسك الأب ايسيذور بيده وأصعده الى غرفة صغيرة كان هو قد اعدّها لنفسه فوق قلايته. ثم وقف نحو الغرب وقال له:

انظر يا ولدي. فرأى الأب موسى مجموعة كبيرة من الارواح الشريرة وهي تحمل القوس والنشّاب وبدت مستعدة للحرب.

ثم قال للأب موسى:

انظر الى الشرق يا ولدي:

ولما تطلّع نحو الشرق رأى طغمات من الملائكة بدت مستعدة للتصدي للعدو.

فقال الأب ايسيذور:

هذه الملائكة يرسلها الله كي تعين المجاهدين. أترى كم ان اعداد الملائكة التي يرسلها الله لنصرتنا يفوق اعداد الشياطين؟

فشكر الأب موسى الله من صميم قلبه لهذه الرؤيا. وقام وتشجّع، وعاد الى قلايته ليتابع جهاده بثبات.

- رأى احد الشيوخ الارواح الشريرة تحيط بالانسان لتجرّه الى الشرور. وكان بجواره الملاك الحارس يحمل سيفاً راح يطرد به الشياطين.

- انطلق الأب مكاريوس مرة الى اعماق البرية للصلاة والتأمل بكلام الحياة. وفي الطريق صادف مخلوقاً غريباً يحمل اوعية بعضها كبير،

وبعضها الآخر صغير. فاستغرب لهذا المنظر. فنظر اليه المخلوق الغريب وقال:

لماذا تنظر الي باستغراب يا راهب؟ هل عندك ما تقوم به في هذه البرية التي يخاف الجميع ان يقصدوها؟

فقال الأب مكاريوس:

انني ابحث عن الله في كل مكان.

ثم قال للمخلوق:

ومن انت؟ تبدو لي من العالم، ولكن اغراضك تدعو للاستغراب والعجب.

فانزلق لسان ذاك، فباح بحقيقة امره وقال:

انا ابليس وهذه ادواتي التي بها احارب الناس واغريهم فيتبعوني ويعملون ما اريد.

فسأله الأب مكاريوس:

وماذا تفعل بهذه الاوعية المعلّقة حول جسمك؟

فقال: في كل وعاء هناك ما يناسب كل واحد من البشر.

فالذي يحب ان يصلّي، ارش في عينيه ما يجعله يبادر الى النوم تواً. كذلك فإن الاوعية التي اعلقها على اذني، من شأنها ان تحضّ الانسان على التمرد، واستعملها للايقاع بالرهبان المبتدئين. اما الاوعية المعلّقة الى انفي، فاستخدم محتواها ضد الشباب كي اجرّهم الى الشهوات الجسدية. ثم ان الاوعية المعلقة الى فمي، فإني اسكب محتواها على الذين يمارسون العفة والامساك كي اجعلهم يعشقون بطونهم. كذلك هناك عقاقير اخرى للثرثرة والنميمة... اما الاوعية المعلقة الى رقبتي، فإني استخدم محتواها للتحريض على الكبرياء والغطرسة. والتي اعلقها على بطني، استخدمها كي اقود الناس الى اللااحساس. وهناك اخرى للحسد والقتل والسرقة وسواها من الشرور. وبهذه اقود الناس من

الطريق القويم الى الضلال فالضياع. اما انت فلم استطع يوما ان ادنو منك، لأنك تحاربني على الدوام.

فظل الأب مكاريوس مذهولاً من هذه العقاقير والحيل الشيطانية. وهكذا رسم على نفسه اشارة الصليب، وقال: ليكن اسم الرب مباركاً. وليبدّد الرب قوتك يا ابليس بواسطة قديسيه. فهو الذي حماني من الاعيبك وما يزال، وحفظ الذين يجاهدون من اجل حفظ وصاياه.

ولما قال مكاريوس هذا، أختفى ابليس كالدخان أمام عيني مكاريوس. فقام مكاريوس وتابع طريقه الى وجهته.

٣- في ان الشر سهل، اما الفضيلة فصعبة :

- قال أحد الرهبان الشباب للأب بيمن:

لقد ضعف جسدي من شدة النسك يا أبت، الا ان اهوائي ما تزال قوية في داخلي فماذا أفعل؟

فقال له الأب الحكيم:

الأهواء يا ولدي هي أشبه بالاشواك الكبيرة. واذا أراد الانسان أن يقتلعها،فعليه ان يجرح يديه.

- قال احد الاخوة في الاسقيط للأب ثيوذور الفرمي عن أحد الرهبان أنه ترك الرهبنة وعاد الى العالم. فقال له الاب:

وهل تتساءل عن عمل سهل؟ هذا أمر اعتيادي.لكن اذا سمعت ان انساناً غلب فخاخ العدو، فهذا هو الامر الصعب.

- تحدّث أحد الشيوخ عن سمو السيرة الرهبانية التي كانت في عصرها الذهبي في زمانه، فقال:

سيأتي زمان، حيث لا ينجو في الاديار الا قلة من الرهبان فقط. أما اذا كانوا خمسين، فلست أدري اذا كان سينجو منهم واحد. فرهبان

الزمان الرديء، يحبون الاطعمة الشهية، وتراهم يبحثون كيف يرضون أنفسهم وبطونهم.

وقال هو نفسه في موضع آخر:

اذا توجهتَ الى البرية ووجدتَ فيها رهباناً يحبون الراحة، فلا تصاحبهم. بل كن صديقاً للاخ الفقير الذي يعوزه فتات الخبزلكنه لا يعطي نفسه راحة. آثر العيش مع أثنين او ثلاثة غرسوا في قلوبهم مخافة الله، بدلاً من العيش مع آلاف سبق ان أبعدو مخافة الله عن قلوبهم.

- ذات يوم كان احد الشيوخ يصلي، فأختطف الى احدى السموات. فشاهد ثلاثة رهبان يقفون عند شاطىء ميناء كبير. وفجأة سمع صوتاً من السماء يقول:

أتخذوا أجنحة من نار وأقتربوا مني. فطار اثنان باجنحة من نار وعبرا الى الضفة الثانية. أما الثالث فتخلّف وتوسل طالباً من يعطيه جناحين للطيران، فهو لم يكن لديه أجنحة. وبعد توسلات وتضرعات كان له ما أراد، الا أنها لم تكن اجنحة من نار. وبعد جهد عظيم تمكن من الطيران والوصول الى الضفة الثانية.

فذهل الشيخ لما رأى. للحال سمع صوتاً من السماء يقول:

الاثنان الاولان يمثلان جيل الرهبان القدامى الذين كانوا يجدون خلاصهم بسهولة فقلوبهم كانت تطفح بالعشق الالهي.أما الثالث فيمثل الشباب الذين سيجدون خلاصهم بصعوبة، لان محبتهم ستكون قد خبت وبردت.

٤- في الشجاعة المسيحية :

- مضى الأب دانيال لزيارة أحد الروحانيين في عمق الصحراء. فوصل اليه بعد منتصف الليل. ولما لم يكن لديه مكان يلجأ اليه، دخل احدى أهرامات مصر ليبيت فيها. وهناك وجد جمجمة فأخذها وجعلها

تحت رأسه كوسادة، ثم استرخى لينام. فتعجب الشياطين من شجاعته. فأرادوا ان يرعبوه، فبدأوا يتكلمون فيما بينهم بصوت مسموع. وراحوا يقولون كما لو كانوا يخاطبون امرأة:

تعالي معنا يا سيدة.

للحال سمع صوتاً نسائياً يقول وكأنه صادر عن الجمجمة:

لا أستطيع، فهناك غريب يمنعني من الحركة.

فلم يكترث الأب دانيال، بل ربت بيده على أعلى الجمجمة قائلاً:

اذا كنت لا تستطيعين، فاذهبي الى الظلمة الخارجية. فنادت الشياطين بأعلى صوتها قائلةً:

لقد هزمتنا.لقد هزمتنا. وللحال اختفت مذعورة.

- سأل أحد الرهبان أباه قائلاً:

لماذا أشعر بالخوف يا ابت عندما أسير في الصحراء؟

أجابه الشيخ قائلاً:

لأنك ما تزال حياً. أنت لم تمت بعد عن السيد يا ولدي.

- وجد أحد النساك في الصحراء أثراً لمعبد وثني، فقرر ان يسكن فيه.وفي ليلته الاولى هاجمته الشياطين كي ترغمه على الرحيل، وقالت له:

أترك هذا المكان أيها الراهب.

فأجابهم الناسك قائلاً:

أنتم لا مكان لكم خاص بكم ياشياطين.

ولما عجزت الشياطين عن أقناعه، قامت والتقطت الخوص الذي كان يحيكه ورمته بعيداً عن المكان. ثم بدأت تجرّه من يده بقصد اخراجه. ولما وصل الجميع الى باب المعبد، تمسّك الناسك بالعامود، ونادى بأعلى صوته قائلاً: يايسوع ساعدني. للحال أختفت الشياطين مذعورة. ولما

شعر الناسك انه تعب من هذه الحرب، جلس وبدأ يبكي. للحال سمع صوتاً ناعماً يقول له: لماذا تبكي الآن؟

قال:

أنا ابكي من اجل شرور الشياطين، وكيف اننا نستخدم طرقاً عديدة لضرب خليقتك يا رب.

فأجابه الصوت قائلاً:

ولكن، لمّا دعوتني، اسرعت لنجدتك. فلما سمع هذه الكلمات، شكر الله من كل قلبه، وظل في ذلك المكان لا يبالي بشيء.

- ذات يوم مضى ابليس الى مغارة أحد النساك كي يزعجه ويحضّه على هجرها. الا ان الناسك لم يهتز، بل كان يتابع عمله بأحتقار. فأراد ابليس ان يخدعه، فدنا منه بهيئة الرب يسوع المسيح. للحال أغلق الناسك عينيه. فناداه الشيطان قائلاً:

لماذا تغلق عينيك؟ انا المسيح يقف امامك.

فقال الناسك:

أنا لا أرجو ان ارى المسيح في هذا العالم. قال هذا وهو ما يزال يغمض عينيه. ولما رأى الشيطان ثباته وشجاعته، توارى عن الانظار، ولم يعد يجسر ان يجربه.

الفصل الثاني عشر

١ - في الافكار :

- سأل راهب أباه الروحي قائلاً:

ما هي الافكار التي استبقيها في ذهني، والافكار التي ينبغي ان أتخلص منها؟

اجابه الشيخ قائلاً:

ينبغي ان تتخلص من كل ما هو تحت السماء. اما الفكر الذي ينبغي ان تحتفظ به، فهو الانشغال بيسوع المسيح الذي به فقط يكون خلاص نفسك.

- اعرب احد الاخوة للأب صيصوي عن شديد حزنه، فقال:

انني اجاهد بشدة يا ابت، الا انني حتى الساعة لم انعتق من الاهواء .

اجابه الشيخ قائلاً:

وكيف ستنعتق من الاهواء يا ولدي، طالما انك تحتفظ بحاوياتها. وأعني بذلك الافكار الشريرة.

دع عنك الافكار الشريرة، فتنعتق.

- يقول احد الاباء الحكماء:

الانسان ليس مسؤولاً عن الافكار التي تهاجمه. انما تبدأ مسؤوليته عندما يتمسك بهذه الافكار ويعيش معها.

- قال الأب أنوب:

منذ ان اصبحت راهباً، لم يخرج من فمي كلام كذب ونفاق.

- وهو نفسه قال:

وهذه الثلاثة يطلبها الله من الانسان الذي نال المعمودية المقدسة:

ايماناً صحيحاً في النفس.

حقيقة ناصعة على اللسان.

ورصانة في الجسد وحركاته.

٢- في التعليم :

- يقول الاب بيمن:

لكي يعلّم انسان انساناً آخر، ينبغي ان يكون المعلم سوياً وعديم الهوى. اذ كيف يبني المرء بيت قريبه، ويهدم بيته؟

- وهو نفسه قال:

ان من يعلّم، ولا يعمل بما يعلّمه، يشبه نبعاً يروي كل ما حوله، الا انه مملوء نجاسة وفساداً.

- يقول الأب ايبريخيوس:

الانسان الحكيم حقاً، هو الذي يعلّم ليس بالكلام، بل بالأفعال.

- ويقول اب حكيم آخر:

يشبه من يعلّم بالكلام فقط، شجرة مورقة، ولكن ليس فيها ثمار.

- قال احد آباء البرية الكبار لأحد الرهبان الذين كانوا يستضيفون الناس عندهم ويعلّمونهم:

انتبه يا اخي، ان المصباح ينير كثيرين، لكنه في العادة يحرق ذاته.

- تُسدي الأم ثيوذورا النصيحة التالية للاباء الروحين والمعلمين:

على المتقدم والمعلم ان يبتعد عن حب المال بالكلية،وعن الكبرياء والمجد الباطل أيضاً، وان لا ينجذب الى المشاحنات والكلام الرديء،

وان لا يغرّه المديح والهبات، وان يطرد الغضب بطول الاناة، وان يكون حليماً مع المشاكسين، فيحمل في قلبه الوداعة مع العطف والاخوّة. وفوق كل هذه، عليه ان يقتني التواضع.

٣- في المعاشرة الحسنة:

- يقول احد الآباء الحكماء:

ان من يدخل الى دكان بائع العطور، يخرج معطّراً حتى ولو أنه لم يشترِ شيئاً. والشيء نفسه يحصل للذي يعاشر القديسين. فهو باقترابه منهم، يقطف شذى عطرهم الروحي، وفضيلتهم.

- اعتاد ثلاثة من النساك ان يذهبوا الى جبل الاب انطونيوس مرة في السنة،وذلك كي يسمعوا له ويتزودوا بما هو نافع لهم. فلما زاروه، سأله اثنان منهم عن نسك النفس والجسد. وهكذا اتاحا للاب انطونيوس الفرصة ان يسكب عليهم نهر الحكمة الالهية الذي ملأ قلبه. اما الثالث فراح يسمع وهو صامت لا يسأل البتة.

وذات يوم سأله الاب انطونيوس:

انت منذ زمان بعيد تزورني يا اخي، لكنك لم تسألني يوماً عن شيئ. الا ترغب بالتعلم؟ قال ذاك:

يكفيني يا ابت ان اراك، فرؤيتك تعلمني الكثير.

- عاش الاب بفنوتيوس في مغارة نائية تقع على بعد ٨١ كلم من قلالي الآباء. وكان اعتاد أن يزور آباء الاسقيط مرتين في الشهر كي يغتذي بتوجيهاتهم وتعليمهم. وقد غرس في ذهنه ما سبق ان تعلّمه من الآباء. لا بل حاول ان ينقله كله لابنه، فكان يقول:

حيثما كنت يا ولدي لا تقارن نفسك بأحد وذلك كي تجد نفسك راحتها. فالشيطان يسخر منك عندما يوهمك انك افضل من سواك.

- صام احد النساك سبعين يوماً وكان يضرع الى الله ان يكشف له معنى مقطع كتابي لم يكن يفهمه. ولما شعر ان الله لم يكشف المعنى له، قال في نفسه ذات يوم:

لماذا اتعب كل يوم وانا انتظر ان يكشف الله لي معنى هذا القول؟ لماذا لا اذهب واسأل ابي عنه، علّه يعرف ما انا بحاجة اليه؟ ولما همّ بالتوجه اليه، ارسل له الله ملاكاً كشف له ما كان يريد.

فسأله الشيخ عندما رآه بعد حين:

ولماذا انقطعت عن زيارتي كل هذا الزمان يا ولدي؟

اجابه الملاك؟

كي تتضع وتطلب مشورة سواك؟

- مضى احد الشيوخ الى قلاية الاب يوحنا الكولوفي مسرعاً ليطلب منه شيئاً. فلما قرع الباب، فتح له الاب يوحنا، فراح الاثنان يتحدثان في امور روحية. فغابت الشمس ثم اشرقت من جديد، دون ان ينتبها.

- سأل احد الرهبان شيخاً قائلاً:

ما الافضل يا ابت؟ هل ازور الاباء ام اتلقى التعليم، او اجلس في قلايتي فلا ابارحها البتة؟

فقال الشيخ:

زيارة الاباء يا ولدي هي عادة قديمة عند الرهبان.

٤- في درس الاسفار الالهية:

- قال احد الشيوخ:

رأيت الشيطان جالساً بقرب قلاية احد الاخوة، فدنوت لأرى ما كان يفعله ذاك. فرأيته جالساً يطالع الاسفار الالهية، وكان غارقاً في التأمل. فلما انتهى من القراءة، اغلق الباب، فقام ابليس ودخل الى قلايته ليجربه.

- قال احد الشيوخ:

ان الذين دوّنوا اسفار العهدين القديم والجديد، فعلوا ذلك بالهام الروح. والاباء يحاولون ان يطبّقوا في حياتهم ما جاء في هذه الاسفار الالهية. اما في الاجيال اللاحقة، فقد ضعف الاهتمام بالكتاب المقدس. وعند الشباب وحديثي السن منهم، صار الكتاب المقدس على رفوف المكتبات لا يبارحها.

- مضى بعض الاباء لزيارة الاب انطونيوس، وكان بصحبتهم الاب يوسف، فاراد الاب انطونيوس ان يجرّبهم، فاختار مقطعاً كتابياً وسأل كلاً منهم على حدة كيف يكون تفسيره:

فبدأ كل منهم يفسر المقطع المذكور وفقاً لقدرته ومعلوماته.

بعد هذا بدأ الاب انطونيوس يقول لكل منهم:

هل عجزت عن تفسير هذا المقطع؟

ولما وصل الدور الى الاب يوسف، قال له الاب انطونيوس:

وانت ماذا تقول يا يوسف؟

قال يوسف:

انا لا اجيد فن التفسير يا ابت.

فقال الاب انطونيوس:

الجواب الصحيح يا اخوتي هو ما قاله اخونا يوسف. قال هذا وهو معجب بتواضع الأخ.

- اجتمع آباء الاسقيط للتحدث في الشؤون الروحية، لكنهم نسوا ان يدعوا الأب كوبري. ثم شرعوا يتحدثون عمن هو ملكيصادق. وفي النهاية لم يتفقوا على رأي. وهنا تذكروا ان الأب كوبري غير موجود بينهم، فأرسلوا يدعونه، علّه يفيدهم في شيء. فلما سمع ذاك بالمسألة التي لم يتفقوا عليها، رغم انهم استرسلوا في الكلام، قام وضرب فمه بيده ثلاث مرات قائلاً:

الويل لك ايها الراهب كوبري. لقد تركت كل ما كان الله يطلبه منك، وشرعت تبحث عما لن يطلبه منك.

فلما سمع الآباء جوابه، تفرّقوا وعادوا الى قلاليهم وهم غارقون في التفكير والتأمل.

الفصل الثالث عشر

١- في الحقيقة :

- قال احد الشيوخ الحكماء:

الراهب الحقيقي هو:

فم حق،

وجسد طاهر،

وقلب لا عيب فيه.

- وقال أب آخر:

الكذب هو من علامات الانسان العتيق. اما الانسان الجديد، فهو المولود بدم مخلصنا يسوع المسيح.

- وقال الأب نفسه:

الاساس هو العمل الصالح. اما الكذب فهو الموت.

- قال الأب اشعيا المتوحد هذه النصيحة:

لا تعوّد نفسك على التحدث بأمور لم ترها بأم العين، بل بما عاينته ووقفت عليه. ولا تصدق بيقين ما سمعته فقط. عوّد لسانك ان ينطق بالحق على الدوام. فالكذب يولد من شهوتنا في ان يُعجب الناس بنا. إلى ذلك، فالكذب يبعد مخافة الله عن القلب.

- قال الأب مرقس الناسك:

فم المتواضع يلهج بالحق.

- قال الأب يوحنا الكولوفي:

عندما تحاربني الافكار الشريرة، اعمل ما سوف يعمله المسافر الذي يلاحظ فجأة ان هناك وحشاً كاسراً يتحرك للانقضاض عليه، فيتوجه الى شجرة، ويتسلقها، كي ينجو. وانا ايضاً، عندما تحاربني الافكار الشريرة الجأ الى الله بالصلاة، فانجو من هجماتها.

- حاربت الافكار الشريرة الأب جلاسيوس، وكانت تحضّه على التوجه الى اعماق الصحراء. ولما قاوم كثيراً، لكنه وجد ان جهوده لم تُجدِ، قال لتلميذه في المساء:

مهما كنت افعله في الغد، فلا تستغربه ولا تقل شيئاً.

وفي اليوم التالي استيقظ واخذ عصاه وراح يسير يميناً ويساراً داخل ساحة القلاية. وعندما تعب، جلس ليرتاح. ثم عاد من جديد ليمشي كما كان يفعل قبل حين. وظل على هذه الحالة طيلة النهار. وعند المساء قال لفكره:

ان من يسير في الصحراء، لا يأكل خبزاً، بل يشبع من نباتات القفر. اما انت فعجوز ومريض. لذا قم وكلْ لتهدأ. فقام وتناول بعض الخضروات التي كان قطفها من حديقة القلاية.

ومن جديد عاد وقال لفكره:

لا تذهب الى عمق القفر، فهناك لن تجد سقفاً تنام تحته.

فقام الأب ونام على الارض خارج القلاية.

وفي اليوم الثاني والثالث قام بالشيء نفسه. حتى ارهقه التعب في النهاية وخارت قواه. عندها قال لنفسه بتشدّد:

ما دمت يا فكري لا تقوى على احتمال عذابات البرية، فلماذا تطلب التوحّد في اعماقها؟ اجلسْ اذاً في قلايتك، وابك خطاياك، فتخلص.

- بينما كان الأب مكاريوس في زيارة للاسقيط، صادف الشيطان في الطريق، وكان يحمل اموراً غريبة جداً، وكان متجهاً الى الاسقيط.

فسأله الأب مكاريوس:

الى اين تذهب؟

اجابه ابليس قائلاً:

انا ماض كي ابث الافكار في الرهبان.

فسأله الأب مكاريوس:

وما هذه التي تحملها؟

اجابه ابليس:

انها الوجبات التي سأقدمها لهم.

فقال الأب مكاريوس:

لكنها كثيرة جداً.

اجابه ابليس وقال:

طبعاً. ومن لا يقبل هذه، اقدم له تلك او ذاك. على كل، واحد من هذه سوف يناسب ذوق هذا او ذاك من الرهبان.

فسأله الأب مكاريوس:

وهل يوجد في الاسقيط رهبان يتبعونك؟

فاضطر ابليس ان يقول مكرهاً:

لقد انتفض اغلبهم ضدي. ولكن واحداً منهم يحبني ويصادقني.

فسأله الأب مكاريوس بشغف:

وما اسمه؟

اجابه ابليس:

انه يدعى ثيوبمبتس.

فمضى الأب مكاريوس وهو يفكر بما حصل. ولما وصل الى الاسقيط اقام له الاخوة استقبالاً حاراً، ودعاه كل منهم لزيارته في قلايته.

فطلب الأب مكاريوس ان يرى الأخ ثيوبمبتس. ولما وصل الأخ الى قلاية الأب مكاريوس، سأله عن صحته.

ثم اردف الأب مكاريوس يقول:

وهل تحاربك الافكار الشريرة يا اخي؟

فتردد ثيوبمبتس قليلاً، وكان يستحي ان يقول للأب انه كان يقبل افكاراً شريرة.

لكنه قال:

اموري بخير يا ابت. قال هذا وهو يحاول ان يبدو لا مبالياً.

فتنهّد الأب مكاريوس بعمق وقال:

يا اخي انا ناسك وطاعن في السن وما ازال احارب بأفكار الشهوة والناس يحترمونني.

فتشجّع الأخ ثيوبمبتس لدى سماعه كلمات الأب مكاريوس. فأعطاه الأب مكاريوس قانوناً، فعاد الى القلاية. وفي الطريق صادف الأب مكاريوس ابليس، لكنه كان منفعلاً جداً هذه المرة.

فسأله الأب مكاريوس:

وما هي اخبارك اليوم؟

فقال ذاك:

انها رديئة جداً. فجميع الرهبان لا يحتملونني. لذا فإنني غضبتُ وقررتُ ان اغادر هذا المكان.

فتضرع الأب مكاريوس الى الله شاكراً اياه بحرارة لأنه يحفظ الناس من شرور ابليس.

٢- في الاعتراف :

- قال احد الشيوخ الحكماء:

لا شيئ يفرح ابليس كالراهب الذي لا يبوح بأفكاره في الاعتراف.

- ويقول اب آخر:

اذا ازعجتك الافكار الشريرة، فبح بها في الاعتراف فتنعتق من وطأتها للحال. وكما ان الافعى تختفي ما ان تخرج من وكرها، هكذا فأن الفكر الشرير يتبدّد عندما يُعلن.

- كان هنالك راهب حاربته ذات يوم افكار الشهوة الجسدية. وكان هذا يجاهد لسنوات، دون ان ينتفع شيئاً. ولكي يغلب هذا الهوى في النهاية، وقف صبيحة احدى الايام وسط الكنيسة بعد القداس الالهي وقال بصوت مسموع يصل الى آذان جميع الرهبان:

صلوا من اجلي يا اخوتي كي يرحمني الله. فانا احارب في الجسد طيلة اربعة عشر عاماً. ولما قال هذا، شعر للحال انه انعتق من الهوى. وهكذا، فان ما عجز عنه لسنوات بالنسك والتعب، حققه في لحظة، عندما باح بما في قلبه.

- قال احد المتوحدين لتلاميذه:

لما كنت شابا حاربتني اهواء نفسية. وكنت في حينه، اسمع الاخوة يقولون ان الاب زينون روحاني عظيم ينتفع به كل من يبوح له بخطاياه. ففكرت مرات عدة ان اذهب اليه للاعتراف، الا ان الخجل كان يعيقني عن هذا السعي.

وكان فكري يقول لي:

انت تعرف جيداً ما ينبغي ان تعمل، ولا جدوى من ان تبوح بما عندك لسواك.

وذات يوم، وبعد ان كنت قد عقدت العزم ان اذهب كي ابوح بخطاياي، شعرت بالراحة، وهذا من حيل العدو الذي كان يريد ان يعيقني عن

الاستشفاء. لقد وصلت مرات عدة الى قلاية الأب زينون، ولكنني كنت دائما اعود ادراجي قبل ان اقرع بابه. وكنت على يقين ان ذاك كان قد ادرك ما انا عليه، لكنه لازم الصمت كي يعلّمني الانصياع والتواضع فآتي الى الاعتراف من تلقاء ذاتي. ولعله كان يصلي من اجلي. وعندما كنت في قلب معركتي مع الهوى، قلت لنفسي:

الطبيب بجوارك ايها البائس، وما تزال حتى الساعة لا تطلب الشفاء؟ كيف تبقى هكذا، بينما غيرك يأتي من بعيد وينتفع؟ فقررت ان اتوجه الى الاب زينون كي اعترف له بحالتي من دون تأجيل.وعندما كنت في الطريق اليه، ساورتني افكار كثيرة جعلتني أتردّد.

وفي النهاية قال:

اذا وجدتُ الشيخ، سأقول له ان مشيئة الله تريدني ان اعترف وابوح لك بكل شيئ. ولكن اذا وصلت اليه ورأيت ان عنده كثيرين من الزوار، سأعود ادراجي الى قلايتي ولن اعود افكر بالاعتراف بعد اليوم.

ولكن لما وصلتُ، وجدتُ الشيخ لوحده، فأستقبلني بحفاوة. واشار الي ان اجلس بجواره. وقام هو يسدي الي النصائح النافعة. الا انني الى حين، شعرت بالخجل يجتاحني من جديد. فسددت فمي، ولم اتكلم. ولما توقّف الشيخ عن الكلام. انتصبتُ ، وتوجهت نحو الباب. فنهض ذاك ليرافقني، حتى سبقني الى الباب. اما انا فخرجت اسير وراءه ببطء. وهنا لاحظت ان الشيخ ادار رأسه، ورأى حزني وانزعاجي. ثم اقترب مني وجعل يده المباركة على صدري وقال بحنان عظيم:

ماذا بك يا ولدي؟ لماذا تتألم؟ اكشف حزنك والمك . أنا انسان مثلك.

شعرت في تلك اللحظة ان قلبي ينشطر الى نصفين، وركعت عند قدميه وراحت دموعي تنهمر على خدي بغزارة.

واخيراً قلت له:

ارحمني يا ابت. فقال لي:

ما بك يا ولدي؟

فقلت له:

الم تدرك بعد لماذا اتعذب؟

فقال لي:

ينبغي ان تقول كل شيئ بنفسك يا ولدي كي ترتاح.

فأعترفت له بكل شيئ.

فقال لي:

ولماذا كتمت امرك طيلة هذه السنوات، لا بل انك كنت طيلة ثلاث سنوات تأتي الي وتعود قبل ان تقرع باب قلايتي؟

فقلت له:

نعم يا ابت هذا ما حصل حقاً.

فقال لي:

عد الى صلاتك، وحاول الا تدين احداً من الاخوة. فعدت الى قلايتي وانا اشعر ان قلبي خفيف. ومنذ ذلك الحين، انعتقت من الهوى الذي كان يمرمرني.

– حورب احد الاخوة بأفكار الشهوة الجسدية. فقام ومضى الى احد الشيوخ في البرية كي يعترف له.

اما ذاك الشيخ فلم يكن يتقبل اعترافات الاخرين كما هو حال بعض الاباء، فاضطرب لدى سماعه اعتراف الاخ، وقال له:

انت لست جديراً بالسيرة الالهية.

فخارت قوى الاخ من شدة الاحباط. فقرر ان يترك الرهبنة ويعود الى العالم.

وفي الطريق صادف الاب ابو للو الذي كان واسع الشهرة في المسائل الروحية. فلما وقعت عينا الاب ابوللو عليه،فهم مقدار الاضطراب في قلبه.

فقال له:

لماذا انت مضطرب يا ولدي؟

فلم يجبه الاخ بكلمة.

فألحّ عليه الاب ابوللو ان يتكلم. وفي النهاية باح له الاخ بمشكلته وبحالته وكيف انه ينوي العودة الى العالم.فقال له الشيخ:لا تيأس يا ولدي. فأنا شيخ كما ترى، وما ازال حتى الساعة اواجه هذه الافكار.عد الى قلايتك وكن شجاعاً في جهادك، لان رحمة الله لا تتركك لوحدك.

اعادت كلمات الاب الامل الى قلب الاخ.فقام وعاد الى قلايته وقرر ان يتابع جهاده اليومي حتى تفتقده النعمة الالهية وتعتقه من الحرب التي هو فيها.

وبعد عودة الاخ الى قلايته، اراد الاب ابوللو ان يتوجه بكلمة لذاك الشيخ القليل الخبرة. فقام ومضى الى قلايته، وصلى الى الله ان تنزل تلك الحرب على ذلك الشيخ. وما ان انهى صلاته حتى رأى سهاماً نارية تنزل باتجاه قلاية ذلك الشيخ. فبدا ذاك يتململ وبدا كالسكران من وقع هذه الحرب، الرهيبة. ولم يكن قادراً ان يحتمل تلك الحرب، فقام وسلك درب الاخ الذي كان يريد ان يعود الى العالم.فصادفه الاب ابوللو وقال له:

الى اين تذهب يا اخي؟

ومن شدة خجله، لم يرفع رأسه كي يجيبه بكلمة.

فقال له الاب ابوللو:

عد الى قلايتك وصلّ، فأنت لم تُعطَ الفرصة كي تواجه عدو شهوة الجسد، لهذا فأنت لم تحتمل يوما واحداً مثل هذه التجربة.ثم قال له:

في المرة المقبلة لا تسدِ النصح لاحد اذا كنت انت نفسك قليل الخبرة. ثم ارشده وصلى الى الله من اجله. وبعد حين انعتق الشيخ من الحرب. فقال له الاب ابوللو:

الان عد الى قلايتك، وصل الى الله كي يريح قلبك.

٣- صانعو السلام

- في ليلة من ليالي الشتاء الباردة، اضطر بعض الاخوة في احد الاديار ان يسهروا كي ينجزوا عملاً مهماً. الا ان واحداً منهم وكان مريضاً، لم يستطع ان يحتمل شدة البرد، فقام وترك عمله وعاد الى قلايته. فقام احد الاخوة وقال: كيف يعود ذلك الأخ الى قلايته اما انا فأبقى في العمل والتعب؟ فأضطر الاخرون ان ينادوا الاخ المريض كي يعود الى العمل من جديد.

ولما مضى الاخ لابلاغ المتعَب بالرسالة، قال له:

لقد ارسلني الاخوة كي اسألك عن صحتك. (قال هذا لانه رآه مريضاً جداً). لذا لا تقلق يا اخي فنحن سنقوم بالعمل مكانك.

فقال الاخ المريض:

اصلي كي يقويكم الله في عملكم. انا يا اخي كنت اريد ان اعمل معكم، الا ان مرضي يمنعني.

فعاد الاخ وقال الى الاخوةما قاله له الاخ المريض. واكد لهم انه مريض جداً.

وهكذا استطاع الاخوة ان يحتفظوا بسلامهم الداخلي بفضل حكمة الاخ وتمييزه.

حل بين اثنين من الرهبان جدال طويل حول مسألة ما. وذات يوم مرض احدهما فقام احد الاخوة ومضى لزيارته. فأسرّ له الاخ بالمشكلة

التي بينه وبين احد الاخوة. وطلب منه التوسط لاحلال السلام بينهما، فقد اوشك ان يفارق الحياة والمشكلة ما تزال تعذبه.

فعاد الى قلايته وتضرع الى الله ان ينير قلبه كي يتمكن من الوصول الى خاتمة سعيدة. فدبّر الله الأمر بأن ارسل احد الاخوة يحمل سلة تين. واختار الافضل بين حبات التين، وقام من دون تردد واخذها الى الاخ المريض، وقال له:

يا اخي، هذه ارسلها لك الشيخ فلان.

فتعجب الراهب كيف ارسل ذاك التين له.

فقبلها شاكراً وشكر الاخ الرسول.

فسُرّ قلب صانع السلام فقام وحمل بقية التين للاخ المريض وقال له:

هذه ارسلها لك الراهب الفلاني يا اخي، فقال له:

الا ترى يا اخي ان المصالحة قد حلت بيننا الآن؟

اجابه الاخ وقال:

اجل بصلواتك يا اخي. المجد لله على كل شيئ.

وهكذا، استطاع الراهب، بالقليل من التين، ان يصلح بين الراهبين وان يدخل الراحة والسلام الى قلبيهما.

٤ - في الكهنوت:

- ذات يوم قرر بعض شيوخ الاسقيط ان يُرقّوا الاب اسحاق الى درجة كاهن. فلما علم الاب اسحاق بالامر هرب، وأختبأ في قرية تقع على الطريق المؤدي الى المدينة. فلحق به الآباء. ولما وصلوا الى القرية، جلسوا ليستريحوا قليلاً، وتركوا الحيوانات التي معهم ترعى لوحدها. فتحركت الحيوانات بحثاً عن الكلأ، وشاءت العناية الالهية ان تقودها الى حيث الاب اسحاق يختبئ. فلما توجه الاباء الى حيث كانت الحيوانات،

رأوا الاب اسحاق، فقرروا ان يربطوه ويجروه بالقوة الى الاسقيط. اما ذاك فلم يسمح لهم، بل قال:

انا لا استحق هذه المكانة السامية. الا انني ارى ان ارادة الله تريد ذلك. وحيثما سأذهب لا استطيع ان اهرب من الكهنوت.

- بينما كان احد الاساقفة يسير بين قرى ابرشيته، وصل الى قرية نائية فطلب ان يرى كاهنها. وبعد حين قدم قروي بسيط كان قد عاد تواً من الحقل.وكان ما يزال بثياب العمل. فلم يرق ذلك للأسقف، فقد اراد ان يكون الكاهن ذا اطلالة اخرى تليق بالكهنوت.

وفي اليوم الثاني ،وكان يوم احد، استعد الكاهن للقداس الالهي. وكان الاسقف يريد ان يراقب كل شيئ يقوم به، وكان يظن ان هذا الكاهن القروي سيرتكب الكثير من الاخطاء.

ولكن يا للعجب، فعندما بدأ القداس الالهي، غمر الكاهن نور سماوي راح يضيئه دون ان يحرقه. ودام الحال هكذا حتي نهاية القداس الالهي.

وبعد ان وزّع الكاهن القربان على الناس، دعاه الاسقف. ولما مثل امامه، قام الاسقف وركع عند قدميه وطلب منه ان يباركه. فذهل الكاهن وقال: كيف يمكن ان يبارك الادنى من هو اعلى شأناً؟ ينبغي ان تباركني انت يا صاحب السيادة. فقال الاسقف:

من المستحيل ان ابارك من رأيته يقف في قلب النور الالهي.

فقال الكاهن:

وهل هناك يا سيدي كاهن او شماس لا يغمره النور السماوي اثناء القداس؟ قال الكاهن هذا والدهشة تعلو وجهه.

فلم يستطيع الاسقف ان يجيب بشيئ. انما تعجب من نقاوة قلب هذا الكاهن. وبعد ان انهى زيارته الى القرية غادرها منتفعاً.

الفصل الرابع عشر

١ - في الكبرياء

- باح احد الرهبان لابيه الروحي اثناء الاعتراف بافكار الكبرياء التي كانت تحاربه.

فقال له الشيخ:

يا ولدي يحق لك ان تتكبر فانت ابدعت السماء والارض.

فخجل الاخ من كلمات الشيخ، وانحنى امامه قائلاً:

سامحني يا ابت،فانا لم افكر يوماً انني قمت بامر كهذا.

فقال له الشيخ:

اذا كان خالق السماء والارض نفسه، عاش متواضعاً في هذا العالم، فكيف ايها الغبي تتجاسر ان تستكبر؟ قال الشيخ هذه الكلمات بنبرة وقسوة.

وبعد ذلك اردف يقول:

يشبه المتكبّر شجرة عديمة الثمر لا تستطيع ان تصمد في وجه الريح. واذا كانت صلاة المتواضع تشكر الله وترضيه، فان طلبة المتكبر تغضبه.

قام احد الرهبان في طيبةبجهادات تفوق الحد دون ان يأخذ بركة من احد. ولم يمض وقت حتى سادته افكار النفخة والكبرياء. فقال له ابليس:

لقد بلغت درجات عالية لم يصل اليها انسان حتى انك اصبحت جديراً بموهبة صنع العجائب، فيتمجد فيك الاب السماوي.

فراح هذا يضرع في صلاته الى الله ان يهبه هذه الموهبة.

وذات يوم قرر ان يستشير اباه الروحي وهو رجل قديس معروف بالتمييز، ولان ارادة الله شاءت ان يفعل ذلك كي لا يخسر تعبه وجهاداته سدى. فلما التقى بابيه الروحي، كشف له كل افكاره، وايضاً الصلاة التي يرفعها على الدوام.

ثم اخبره كيف انه يصلي الى الله كي يهبه صنع العجائب. فراح الشيخ يصغي اليه.وللحال فهم مرضه، وفهم لماذا كان يتكلم هكذا.

وفي هذه الاثناء راح الاخوة يتوسلون الى الاب كي يعطيه رأيه في كل ما يقول. لكن الشيخ لازم الصمت طويلاً، وفي النهاية قرر ان يتكلم ، فقال:

انا متردد يا ولدي في ان ارشدك، فأنا على يقين من انك لا تريد الاصغاء الي.

فوعده الاخ بالاصغاء والطاعة، تماماً كما لو ان الله نفسه يكلمه.

واخيراً قال الشيخ:

خذ هذه القطع النقدية، واذهب الى المدينة واشترِ لحماً وخبزاً ونبيذاً. فاستغرب الاخ هذا الطلب، وقال في نفسه:

وماذا يريد الشيخ من هذه الامور؟ الا انه، لا يستطيع ان يرفض له الطلب، فقد سبق له ان وعده بالاصغاء والطاعة. فقام ومضى الى المدينة حزيناً ومشغول البال. وفي الطريق راح يفكر ويقول:

وكيف يشتري راهب خمراً؟ وماذا يقول الناس عندما اشتري مثل هذه الأشياء؟ ولكن بعد خجل وتردّد، تشجع واشترى ما طُلب منه وعاد الى الشيخ. فقال الشيخ:

خذ هذه الاطعمة الى قلايتك، وتناول كل يوم خبزة واحدة وقليلاً من اللحم والنبيذ. وبعد ان تكون قد تناولتها كلّها، عد الي في قلايتي. فعاد

الراهب الى قلايته حزيناً. فهو بعد هذه الاصوام سيعود الى تناول اللحم من جديد؟ لكنه قال في نفسه:

ولماذا يريدني ابي ان افعل هكذا؟

في هذه الاثناء راوده تفكير يدعوه الى عدم اطاعة الشيخ. الا انه عاد وتذكر انه قد قطع وعداً بالطاعة.

فلما كان وقت الطعام بلّل الخبز وتناول اللحم والنبيذ وهو يبكي ويقول:

الويل لي انا البائس الخاطئ، لقد تخلى الله عني.فلما رأى الله تواضعه كشف له مصدر هذا العقاب. ومضت عشرة ايام قام بعدها وعاد الى قلاية الشيخ. فأستغرب الشيخ لما رآه نحيلاًرغم الاكل والشرب، وقال له:

يا ولدي، اشكر الله لانه لم يسمح لروح الكبرياء ان تهيمن على قلبك، فتقودك الى الهلاك.

ان ما اصابك هو من حيل العدو. فهذا عندما يعجز عن ايقاع الراهب باليأس والتواني، يلجأ الى امور تفوق القدرة وتؤدي بالراهب في النهاية الى الكبرياء. والان سأكشف لك ما رأيت عندما آتيت الى هنا لاول مرة. لقد رأيت شيطانين يتبعانك وهما في هيئة حيوانين يحاول كل منهما ان يجرّك الى جهته. وكان الاول شيطان المجد الباطل، اما الثاني فشيطان الكبرياء. اما الان فقد اختفيا. فبدل ان تطلب من الله ان يهبك صنع العجائب، في امور غير مهمة، بادر تواً الى شكره لانه اعتقك من فخاخ ابليس. هذه اعظم عجيبة.

فشكر الاخ الشيخ على نصائحه، وعاد الى قلايته منتفعاً.

٢ - في المجد الفارغ:

- يقول البار كسيانوس بأن الهوى المرتبط بالمجد الفارغ(الباطل) فائق الحساسية ومتعدد الاشكال، لهذا يصعب على الانسان ان يدركه. اما

هجمات الاهواء الاخرى على الانسان فهي اكثر وضوحاً، ويتم تداركها بسهولة اكبر بقوة وفعل الصلاة واليقظة. المجد الباطل يتمّ تقصّيه بصعوبة. فهو يتجلى باشكال شتى، بالعمل والصوم والكلام والافعال. ومن شأنه ان يبلبل السهر والصيام والصلاة والمعرفة والهدوء وطول الاناة وكل الفضائل الاخرى. وابليس يجر الناس الى المجد الباطل باللباس الفاخر والناعم، ويدوسهم بالامور الحقيرة وغير اللائقة. والذين لا يقوى عليهم (ابليس) بالمديح والكرامة والمنصب المرموق، تراه يقنعهم بانهم اناس مهمون وذوو شأن ولهذا السبب يحتملون الاهانات. والذين لا يقوى عليهم بكلماته المعسولة، يضربهم بالصمت والهدوء، وآخرين بالصوم والنسك واية فضيلة اخرى. كل عمل روحي يمكنه ان يعطي لابليس الذريعة كي يجرب الانسان.

- مضى احد الشيوخ يوماً لزيارة احد الرهبان، وكان قد اقام في قلاية جديدة لبعض الوقت. فلما دنا من قلايته سمعه يتكلم بصوت عال، فظن انه يقرأ، فوقف حيث كان، وراح يسمع.

كان هذا الراهب الشاب قد انهزم امام شيطان المجد الباطل فقد سيم شماساً وراح يوجه الموعوظين بصوت عال، بالخيال طبعاً. فلما سمع الشيخ هذا، دفع باب القلاية ودخل دون ان يقرعه كما هي العادة. فوقف الراهب ليستقبله، فسأله وهو مضطرب: هل لك زمان عند الباب يا ابت؟

فقال له الشيخ:

وصلت عند كلمتك الاخيرة. (قال هذا بشيئ من اللامبالاة). فخجل الراهب وطرح نفسه عند قدمي الشيخ واعترف له بكل شيء ثم طلب منه ان يصلي من اجله كي يعتقه الله من هوى المجد الباطل اللعين الذي كان يعذبه ليس في العالم فحسب، بل في القفر ايضاً.

- قال الآباء الشيوخ ان العظيم ارسانيوس والاب ثيوذوروس الفرمي فقط رفضا المجد العالمي. فأرسانيوس قلّما كان يكلم انساناً. اما ثيوذوروس فكان يتكلم، الا ان كلماته كانت قاطعة كالسكين.

وقال احد الشيوخ ان الاباء القدماء عندما كانت تنكشف فضيلتهم للناس، لم يكونوا ينظرون اليها على انها فضيلة، بل خطيئة.

- يقول احد الاباء الحكماء ان المجد الباطل يدك الاستعداد الحسن، والالفة، مع الفضيلة. والذي ينشر خبر اعماله الحسنة، هو اشبه بذاك المزارع الذي يبذر الحَب فوق الارض فتأتي طيور السماء وتأكله. اما من يحجب عمله الروحي عن عيون الناس، فهذا اشبه بمن يجعل الحَب في باطن الارض،وبعد حين يجني ثمراً وفيراً.

٣- في الدالة :

يقول احد الشيوخ:

تجنّب العلاقات الخاصة مع الاب الرئيس ومع الاخوة، ولا تذهب الى ذاك واولئك في قلايتهم كي لا تقتني الدالة والرغبة بالقيادة.

- اراد احد الشباب ان يصبح راهباً في دير، فمضى الى الاب اغاثون كي يعترف له بكل شيئ. ولما مثل امامه سأله قائلاً؟ كيف ينبغي يا ابت ان اسلك؟

فقال له الشيخ:

ليكن سلوكك مع الجميع، كما كان في يومك الاول لدخول الدير. واذا حفظت هذه النصيحة، تكون دائماً في راحة. ثم اردف يقول:

تجنبً الدالة فهي اسوأ العيوب، ومنها تتولد شرور عظيمة.

- كان الاب بمفو متشدداً مع نفسه كثيراً، فهو منذ ان اصبح راهباً لم يضحك ولا مرة واحدة. وذات يوم حاولت الشياطين ان تقوده الى الضحك، فلم تفلح لانه فهم حيلها. ولما ظنت انها نالت منه شرعت تصرخ بصوت واحد وتقول: بمفو يضحك. بمفو يضحك.

فقال لها الاب بمفو باحتقار:

انا لم اضحك، بل سخرت من ضعفك. لأنك واعوانك اجمعت على امر كهذا.

- قال احد الشيوخ:

الدالة تدكّ الفضيلة كما النار تلتهم الهشيم.

- قال الاب موسى لتلاميذه:

لنعتنق يا اخوتي الورع والكرامة والسبل الحسنة والسلوك اللائق نحو الجميع بدون استثناء، وذلك كي نطرد الدالة التي هي ام الشرور.

- رأى احد الشيوخ راهباً يضحك على نحو غير لائق، فقال له:

كيف تستطيع بمثل هذا الضحك ان تحتفظ بمخافة الله في قلبك؟

فصمت ذاك ولم يجبه بكلمة.

٤- في الغضب:

- قال احد الشيوخ:

لا يمكن للغضوب ان يصير اهلاً لملكوت السموات.

- قال الاب بيمن:

الراهب المفتخر بذاته، والغضوب، والمحب للانتقام، لا يمكن ان يوجد. لذا فأن من كانت فيهم هذه العيوب، ليسوا رهباناً، حتى ولو كانوا حازوا الاسكيم.

- قال الاب ايسيذور:

عندما كنت شاباً، نزلت الى المدينة كي ابيع سلالي، فشعرت ان الغضب بدأ يدب الى قلبي، فتركت سلالي وعدت الى القلاية.

- صار احد المتوحدين اسقفاً بالقوة. ولتواضعه ووداعته لم يكن يوبخ احداً.

وذات يوم راح الكاهن يوبّخ المدبّر لانه لا يحسن تدبير اموال الكنيسة.ومع ذلك لم يتدخل الاسقف ليضع الامور في نصابها.وذات يوم رأى الاسقف بعض الكهنة وقد ثار غضبهم وجاؤوا الى الاب المدبّر في مسالة ما، فقام الاسقف وتوارى عن الانظار واختبأ في خزانة. فبحث الكهنة في كل مكان حتى اهتدوا الى مكان الاسقف، فقالوا:

لماذا تختبئ وتهرب من امامنا ايها السيد القديس؟

اجابهم قائلاً:

انا اخشاكم اكثر من خوفي من الدير وذلك كي لا اهدر في وقت قصير ما جاهدت كي اقتنيه طيلة ستين سنة ضارعاً الى الله في القفر.

- قال الاب ايبريخيوس:

ان من لا يستطيع ان يكبح لسانه، لا يستطيع ان يكبح الاهواء كلها.

- قال الاب امون:

جاهدت جهاد الدم طيلة اربع عشرة سنة، وكنت اصلي الى الله في الليل والنهار كي يعينني على غلبة الغضب.

٥- في الحقد والضغينة:

يرى احد الاباء الشيوخ ان الحقد اسوأ الشرور واكثرها ايلاماً للقلب.

السارق مثلاً، او انسان خاطئ آخر، يخطئ. لكنه يستطيع ان يتوب، فيلوم نفسه، ويتنهد ويبكي، فتتغير سيرته.اما الحقود، فالحقد يأكله عندما يأكل، وعندما ينام، وعندما يسير، تماماً كما لو ان في داخله سماً قاتلاً. الحقد لا يترك صاحبه حتى عندما يصلي، وهكذا تتحول صلاته الى لعنة. ان كل اتعاب الحقود لا تجدي. وحتى لو انه سفك دمه من اجل يسوع المسيح ملك المحبة، فالمسيح لا يقبله في اخداره السماوية. هوى الحقد يعرّي النفس من النعمة الالهية، ويحيل اكثر الناس فضيلة الى جثة هامدة. واليكم ما نقرأه عن الحقد في الشهادات الكنسية القديمة:

عاش شاب مسيحي تقي وورع ، يدعى نيكيفوروس في مدينة من الشرق ايام الامبراطور يوليانوس. وفي المدينة نفسها عاش كاهن غيور يدعى سبريكيوس. وكان بين الاثنين صداقة روحية متينة. ولما كان نيكيفوروس اصغر سناً من سبريكيوس، فقد كان يطيعه، فضلاً عن احترامه الشديد له. وكان سبريكيوس يحب نيكفوروس ويسدي له النصح كل حين. الا ان ابليس ماقت الخير زرع الزوان بين الصديقين، فانقطعت اشاوج الصداقة الرائعة التي كانت تربط بينهما. فنسي سبريكيوس انه خادم المسيح يسوع وراح يحقد على نيكفوروس حتى انه لم يعد يود ان تقع عيناه عليه. ولكن الشاب نيكفوروس حاول مرات عدة ان يتقرب من صديقه القديم ويعتذر منه، لكن مساعيه ذهبت سدى، ولم تكن لتجدي.

وفي تلك الاثناء حل في الشرق اضطهاد عظيم، والقي القبض على سبريكوس فذاق شتى العذابات وذلك كي ينكر الايمان ويمضي فيذبح للاوثان. في البداية احتمل هذه العذابات، واعترف بالمسيح بشجاعة، لكن في النهاية زج في حبس انفرادي وراح حاكم المدينة يفكر في طريقة يميت بها هذا الكاهن العنيد. اما نيكفوروس فراح يتابع جهادات صديقه. وعندما علم انه قد زج في السجن، دفع مالاً كثيراً حتى يتمكن من لقائه في السجن. وعندما وقف امامه، انطرح عند قدميه، وبدموع وتنهدات راح يتوسل اليه كي يصالحه كي لا ينفصلا الى الابد. فقال نيكفوروس:

سامحني يا اخي، فانا السبب بكل ما حل بصداقتنا.اما سبريكوس فظل بارد القلب كالحجر لا يتأثر امام توسلات صديقه، ولم يُبد الرغبة في ان ينظر اليه. فغادر نيكيفوروس الزنزانة حزيناً جداً من موقف صديقه الغريب.

وجاء قرار الوالي بان يموت سبريكيوس بحد السيف. فقاده الجلاد الى مكان الاستشهاد. اما نيكفوروس فوقف على مقربة من المكان وهو يتوسل لصديقه عله يغيّر موقفه. وكان يفكر ويقول:

بعد حين سيغادر صديقي الى العالم الآخر والحقد مزروع في قلبه. الاّ

ان سبريكوس ظل على عناده كالصوان. ولما حان الوقت لتنفيذ حكم الاعدام كي يفوز الشهيد باكليل الظفر ويدوّن اسمه في سفر الشهداء الممجدين، غادرته النعمة الالهية. ولما كان الجلاد يرفع سيفه ليقطع رأس الكاهن، اضطرب الكاهن البائس كما لو انه افاق من سبات عميق، وراح يصرخ ويقول:

لماذا تريدون قتلي. فجاءه صوت يقول:

انت تستحق الموت لأنك رفضت تقديم الذبائح لآلهتنا. اما نيكفوروس فراح يتابع ما يجري، وكان يرى ملاكاً من السماء يستعد كي يكلل الشهيد. اخيراً تقدم من الجلاد وقال له:

ان يسوع يريد شهيداً بقربه اليوم. انا مسيحي. اقطع رأسي. انا اريد ان اكون مكان سبريكيوس. فكان له ما اراد.اما سبريكيوس الحقود فظل على حقده وموقفه.

٦- في الثرثرة والنميمة :

سال احد الاخوة شيخاً قائلاً:

ما هي الثرثرة يا ابت؟ وما هي الدينونة؟فاخبره القصة التالية:

بالثرثرة يظهر الانسان عيوب اخيه الداخلية. اما بالدينونة فينال من الامور الظاهرة عند اخيه. واذا قال المرء ان فلاناً من الاخوة حسن وصالح، لكن يعوزه التمييز، فهذا ثرثرة ونميمة. لكن اذا قال بان فلانا طماع ومحب للمال، فهذه دينونة، لانه بعمله هذا، يدين اعمال اخيه. الدينونة هي اسوأ من النميمة والاغتصاب.

- مضى بعض الهراطقة الى البار بيمن وبدأوا امامه حديثاً ضد اسقف الاسكندرية. للحال وقف الشيخ وطلب من تلميذه ان يُعد المائدة للزوار. اما هو فغادر القلاية كي لا يلوث اذنيه.

- يقول احد الشيوخ:

اذا كنت تدين اخاك، وانّبك ضميرك، فقم للحال وابحث عن اخيك، وعندما تجده اعترف له بما فعلت واطلب منه المسامحة.وانتبه كي لا يجتذبك ابليس الى هذه الخطيئة، لان النميمة هي موت النفس.

واذا جاءك انسان آخر وبدأ يدين شخصاً ثالثاً في حضرتك، فانتبه كي لا تنجذب اليه فتقول له: انت على حق. هكذا هو الأمر. والافضل ان تصمت وتقول:

انا يا اخي تحت لعنة ايضاً بسبب خطاياي. ولا يحق لي ان ادين الاخرين. بهذه الطريقة تخلص نفسك وتخلص اخاك ايضاً.

- يعطي الاب ايبريخيوس النصيحة التالية للصوامين والمجاهدين: كلوا اللحم، واحتسوا الخمرة، لكن لا تنهشوا لحم اخوتكم بالنميمة. وايضاً:

لما تكلمت الافعى ضد الله، نجحت في اخراج الجدين من الفردوس. الامر نفسه يقوم به من يمارس النميمة ضد اخيه، فانه يثقل نفسه ويجتذب الى الشر الذين يسمعونه.

- ذات يوم رأى احد الشيوخ احد الاخوة يسقط في خطيئة ثقيلة، فلم يدنه، بل راح يبكي ويقول:

هذا سقط اليوم وانا غداً.هذا سيتوب اما انا فلست متاكداً من توبتي.

- يقول الكتاب الالهي: لا تدينوا لئلا تدانوا (متى ٧:١). ويقول الالهي بولس الامر نفسه في (١كور٥:٤) وايضاً في (رومية ٢:١). اما الناس فيهملون خطاياهم ويدينون الناس وكأنهم عديمو الخطأ.

- مرض احد الرهبان، الكسالى روحياً، واوشك ان يموت. فأحاط به رئيس الدير وسائر الاخوة كي يشجعوه في اللحظات الاخيرة. الا أن الجميع لاحظوا ان الأخ كان يواجه موته بهدوء وسلام داخليين.

فقال له رئيس الدير:

نحن نعلم يا ولدي انك لم تكن تقوم بكل واجباتك، فكيف تغادرنا الآن الى الحياة الابدية بكل شجاعة؟

فقال الراهب:

صحيح يا ابت انني لم اكن اقوم بواجباتي كما يجب، ولم اكن راهباً صالحاً، الا ان امراً واحداً كنت احرص على ان لا اخل به في حياتي وهو انني لم اكن أدين احداً من الاخوة. لهذا السبب فإنني سأقول للسيد عندما امثل امامه: انت يا سيد قلت لنا:

لا تدينوا لئلا تدانوا. لذا فإني ارجو الاّ تكون دينونته لي صارمة.

فقال رئيس الدير:

امض بسلام يا ولدي. قال هذا باعجاب. ثم قال:

لقد افلحتَ -بدون تعب- في سبيل خلاصك.

- سقط احد الرهبان في خطيئة عظيمة، فطرده رئيس الدير من الاسقيط. فلما علم الاب بنيامين بالامر، حمل اغراضه وتبعه قائلاً للذين حاولوا ان يمنعوه: انا خاطئ مثله. سامحوني يا اخوتي فأنا سارق ولص.

وبعد ايام رقد الراهب الذي كان قد اخطأ. فمضى ملاك من السماء الى الشيخ وهو يحمل نفسه وقال له:

هذه هي نفس من قمت بدينونته قبل حين. اين تريدني ان اضعه؟ فصرخ الشيخ وقال وهو يبكي:

لقد اخطأتُ. ومنذ ذلك الحين راح يتضرع الى الله ان يغفر له خطيئته. ولم يعد يتجاسر حتى نهاية حياته ان يدين احداً.

٧- في الافتراء:

عندما كان الأب ايسيذوروس البلوسيوتي كاهناً في الاسقيط كان

هناك شماس فاضل وورع. فأراد الأب ايسيذوروس ان يشرطنه كاهناً وان يجعله خليفة له. اما الشماس فلم يكن بسبب تواضعه يقبل هذه الشرطونية قائلاً:

انا غير مستحق ان اكون كاهناً.

وهذا الشماس كان يمقته راهب في الاسقيط كان الحسد قد استحوذ على قلبه، فحاول من كل قلبه ان يلوث سمعة الشماس كي يؤذيه. واليكم ما حرّضه ابليس على القيام به:

ذات يوم اخذ احد كتبه ووضعها خلسة في قلاية الشماس. ثم بعد ذلك مضى الى الأب ايسيذوروس واخبره عن كتابه الضائع وقال له ان احداً من الاخوة قد سرقه. وطلب ان تفتش القلالي. فقال الأب الرئيس:

ان امراً كهذا لم يكن قد حدث في الاسقيط من قبل. ولكن، خذ اثنين من الاخوة وفتش القلالي. وهكذا كان.

فقام الاخوة يبحثون في القلالي وفي النهاية وصلوا الى قلاية الشماس، وهناك وجدوا مطلبهم. فحملوه الى الكنيسة عند الغروب، حيث كان جميع الاخوة مجتمعين، واخبروا الأب الرئيس بصوت مسموع اين وجدوا الكتاب. فلم يهتز الشماس امام هذا الافتراء، بل طرح نفسه امام قدمي الأب ايسيذوروس وطلب السماح. وقال:

اخطأت، سامحوني يا اخوتي فأنا سارق ولص.

وبعد ثلاثة اسابيع انهى الشماس القصاص الذي فرض عليه. ولما دخل الكنيسة بدأ المفتري يصرخ من المه فقد دخله شيطان راح يعذبه، وقال:

لقد اخطأت امام اخي الشماس. وانا السبب في كل ما حصل له. لقد ظلمته وضميري يعذبني. فقام الاخوة وقضوا الليل وهم يصلون من اجله لكن عبثاً فالروح الشرير كان يعذبه جداً. عندئذ قال الأب ايسيذوروس للشماس:

صل من اجله يا اخي لأنك انت وحدك المفترى عليه، واذا طلبت من الله فإنه سيرحمه.

وعندما صلى، انعتق المفتري من شيطان الافتراء الذي كان يعذبه.

٨- في حب المال:

عاش بجوار احد الاديار ناسك كان يبدو فقيراً جداً.ولما كان رئيس الدير رحوماً، فقد راح يرسل له الثياب والطعام وكل امر آخر كان الناسك يحتاج اليه. وذات يوم مرض الناسك، فقام الاخوة في الدير لخدمته لعلمهم انه فقير ومعوز. ولكن عندما مات وجدوا داخل قلايته وعاء مملوء ذهباً.

فلما رأى رئيس الدير هذا، تنهد والتفت الى الاخوة وقال:

طالما أن الناسك كان يعيش امامنا دون ان يظهر لنا ثروته المخبأة، وكان رجاؤه عليها لا على الله، فأنا لا اريد ان اراه.خذوه وامواله واجعلوه في باطن الارض.ولما وضعوه في القبر مع امواله، نزلت نار من السماء واحرقت ذلك المكان.

ذهب الأب بيور ليعمل في حقل احد الاغنياء كي يتقاضى اجراً. اما صاحب الحقل فكان محباً للمال، فراح يؤجل دفع الاجر حتى اوان الحصاد في السنة التالية. فمضى الاب بيور ليعمل في الحقل نفسه، فقام صاحب الارض وارجأ دفع الاجر من جديد. وحدث الشيئ نفسه في السنة الثالثة ايضاً. فأراد الله العادل ان يؤدب هذا الظالم كي يفهم ما قد فعل. فقام الظالم يطوف على الاديار حتى وجد الاب بيور، فأنطرح عند قدميه وطلب منه ان يسامحه بعد ان دفع اليه الاجور المتراكمة طيلة ثلاث سنوات قائلاً:

لقد دفعت ثمن الظلم الذي سببته لك.

اما الاب بيور فكان قد نسي ظلمة صاحب الارض، ونسي الاجور ايضاً،

فقال لصاحب الارض: ادفع المال الى الكنيسة من اجل احتياجات الفقراء. اما هو فلم يحتفظ لنفسه بشيئ منه.

سأل بعض الاخوة شيخاً حكيماً وقالوا له:

ما هو حب المال يا ابانا؟

فأجابهم قائلاً:

حب المال هو ان لا تثق ان الله يعتني بك.

وهكذا، لا تثق بوعده، بل تحب الشهوات.

كتب صدرت حتى الآن...

١- اذهبوا بسلام

٢- اقوال الآباء الشيوخ

٣- تفسير القداس الالهي

٤- اليقظة والصلاة

٥- الحرب اللامنظورة

٦- ٤٠٠ قول في المحبة للقديس مكسيموس المعترف

٧- المقالة النسكية للقديس مكسيموس المعترف

٨- الرجل والمرأة من المنظار الارثوذكسي

٩- نعم ام لا للمناولة مع الطوائف الغربية؟

١٠- هل يلغى العهد القديم؟

١١- تجارب الرب على الجبل

١٢- نعم ام لا لكهنوت المرأة؟

١٣- غاية الحياة التأله

١٤- في حفظ الوصايا للقديس نيقوديموس الآثوسي

١٥- في الجسد والشهوة واللباس

١٦- في العقل الروحي (النوس)

١٧- رسالة القديس غريغوريوس بالاماس الى المتوحدة كسيني

١٨- اخبار وحكم الآباء النساك



Daccache
PRINTING HOUSE
s.a.r.l.
Amchit, Jbeil - Tel. 00961 9 622280


قرش جنيه
٨٥.٠٠